قاموس القرآن الكريم

لغة القرآن

دراسة توثيقية فنية

لغة القرآن

دراسة توثيقية فنية

الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
مشروع قاموس القرآن الكريم
الكويت: (١٣١١٣)
ص.ب: ٢٥٢٦٣
فاكس: ٢٤١٥٣٦٥
طباعة ذات السلاسل

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

لغة القرآن

دراسة توثيقية فنية

تأليف
الدكتور أحمد مختار عمر
الأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الكويت

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يمثل القرآن الكريم واقعاً لغوياً فريداً ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. فهو ـ من ناحية ـ قد توافرت له من وسائل الحفظ، وطرق التوثيق مالم يتوافر لأي نص آخر، ديني أو غير ديني. وهو ـ من ناحية أخرى ـ قد اجتمعت فيه كل مظاهر الأداء الفني والبلاغي، واحتوى من وسائل التأثير، وأسرار التعبير ما لا يتطاول إليه أي عمل سابق أو لاحق.

وإذا كانت رسالة كل رسول محكومة بزمان معين، ومكان معين، وشعب معين؛ وكانت معجزة كل رسول تلائم هذه الغاية من ناحية، وترتبط بمكان نزولها وزمانه من ناحية أخرى ـ فقد كانت رسالة محمد ﷺ شاملة لكافة الأمكنة، عامة لجميع الخلق، باقية ما بقيت السموات والأرض. وما كان يناسب هذا النوع من الرسالات معجزة آنيَّة تخاطب شعباً بعينه، في زمان بعينه، ومكان بعينه، وينتهي أثرها بأدائها، ويتوقف مفعولها بوفاة صاحبها؛ ولكن ما يناسبه معجزة خالدة، باقية الأثر، ممتدة المفعول، متجددة ما تجدد الليل والنهار...

وهكذا كانت معجزة الرسول محمد ﷺ معجزة من نوع خاص: معجزة لغوية.

وكون معجزة الرسول محمد ﷺ لغوية لا يعني أنها مقصورة على جانب الشكل الخارجي، أو الإطار الظاهري. فجانب اللغة يجمع بين

الشكل والمضمون، بين اللفظ والفكرة، بين الأداء والمحتوى. وهكذا جاء إعجاز القرآن اللغوي جامعاً للناحيتين؛ فإعجازه في شكله، كما هو في مضمونه، بل يزيد على ذلك إعجازاً آخر في ملاءمته بين الشكل والمضمون.

ولما كان جزءاً من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم صونُ ألفاظه عن التبديل والتغيير، والحفاظ عليه في صورته التي نزل عليها، فقد كان لزاماً على من يتحدث عن الجانب الفني والبلاغي في لغة القرآن أن يتحدث أولاً عن الجانب التوثيقي سواء من جانب التدوين والكتابة، أو من جانب الرواية والمشافهة. وكان سبيل الوصول إلى ذلك الحديث عن كتابة القرآن في عهد الرسول ﷺ، وخصائص الرسم العثماني، ووسائل تيسيره وتحسينه، ومدى تضمن هذا الرسم للأحرف السبعة، وأخيراً إبطال الدعوى التي تزعم وجود لحن في القرآن نتيجة سهو أو خطأ في رسم المصحف العثماني. وكان هذا كله هو موضوع الفصل الأول من الباب الأول الخاص بالجانب اللغوي والتوثيقي للقرآن.

وخصصت الدراسة لجانبي المشافهة بالقرآن والبحث في القراءات القرآنية فصلين تاليين تحدثا عن العلاقة بين الرسم والقراءة من ناحية، وبين الأحرف والقراءات من ناحية أخرى. كما تحدثنا عن تعدد أوجه القراءة، وعن أشهر من اشتغلوا بالقراءات رواية أو تصنيفاً.

وقد يتداخل الجانبان التوثيقي واللغوي في بعض الحالات، بل قد تكون بعض أدوات التوثيق لغوية في نفس الوقت، ولذا تم مزج الجانبين أثناء الحديث عن موقف اللغويين من القراءات القرآنية، وبيان الأهمية اللغوية والدينية لهذه القراءات.

ولم أجد من الممكن الحديث عن الجانب اللغوي للقرآن دون التعرض لبعض القضايا اللغوية الهامة فيه، وبهذا انبثق الفصل الرابع من الباب الأول الذي عالج قضايا ثلاثاً هي:

- غريب القرآن، وما احتواه من معان دقت على أفهام بعضهم.
- لهجات القبائل العربية الممثلة في القرآن الكريم.
- ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ ذات أصول أجنبية، عرّبها العرب قبل نزوله، واستخدموها في لغتهم بعد أن صارت عربية بالتعريب.

ولا يكتمل الحديث عن لغة القرآن دون إيفاء الجانب الفني والبلاغي فيه حقه. وهكذا جاء الباب الثاني الذي حاول أن يغترف من بحر القرآن الواسع، وأن يقدم قبساً من بلاغته وإعجازه وأسرار تعبيره وبدائعه.

والجانب الفني في لغة القرآن هو أهم جوانبه الإعجازية، كما أنه هو الجانب الذي لفت نظر العرب، وسحر لبهم، وأثار إعجابهم حتى قبل أن يعرفوا فضل القرآن وتميزه في مجالاته الأخرى.. وهو الجانب الذي لم يتخلف عن القرآن حتى في أقصر سوره، وقبل أن يكتمل نزوله، وهو بعدُ نجوم أو آيات متفرقات.

وقد حاول هذا الباب الكشف عن أسرار البيان في القرآن، بدءاً من الصوت المفرد، ومروراً بالكلمة أو اللفظة القرآنية، وانتهاء بتراكيبه وجمله وآياته. وهكذا خصص الفصل الأول من هذا الباب للكشف عن أسرار التعبير القرآني من الجوانب السابقة دون ادعاء للشمول أو الحصر. ولم يفت البحث خلال ذلك أن يبرز جانباً لغوياً من جوانب إعجاز القرآن لم يكن ظاهراً للعيان حين نزوله، وإنما كشف عنه التأمل والإحصاء بعد تقدم

البحث اللغوي وتحليل أصوات الكلام، وهو ما سميناه بالتوازن الصوتي والتصنيف الدقيق لفواتح السور.

وكان ضرورياً بعد الفراغ من هذا الفصل تخصيص فصل ثان للإعجاز القرآني ركز على الجانب الفني والبلاغي فيه، وبين أن التحدي الأكبر للعرب كان الإتيان بمثل القرآن أو بعضه في فصاحته، وبيانه الرفيع، ونظمه الفريد، وأسلوبه المعجز.

ورغم أن ما حواه القرآن من ألوان البديع وفنون البيان ووجوه تحسين الكلام داخل في إعجازه الفني والبلاغي فقد رأينا من الأفضل إفراده بفصل مستقل حمل اسم «بدائع القرآن»، أولاً لشغل هذه البدائع مؤلفات بتمامها، وثانياً لأن هذا النوع من البيان يحتاج إلى تفصيل خاص نظراً لتعدد فنونه وتنوع صوره.

وبعد: فالحديث عن لغة القرآن الكريم حديث لا ينتهي، وأي ادعاء بإمكانية الإحاطة، أو إدراك السر الكامل للإعجاز اللغوي القرآني هو محض خيال. ورغم توالي الأحقاب والسنين، وتتابع الدراسات القرآنية منذ القرن الأول للهجرة فقد بقي في جعبة العلماء الكثير ليقال وسيبقى للأجيال القادمة الكثير أيضا لتقوله. ورغم استمرار المحاولات لاكتناه النص القرآني وفهم أسراره فستظل محاولات قاصرة لأنها تتناول النص القرآني الذي يجاوز ـ بإعجازه ـ كل طاقات النفس البشرية.

ويظل القرآن ـ على مر العصور ـ زاداً لا ينفد، ومعيناً لا ينضب، وسيلاً متدفقاً لا يتوقف عطاؤه، ومائدة عامرة كلما استزدت منها الخير زادتك.

* * *

وأخيراً أقول: إنني لا أجد من الكلمات ما يفي بحق الأخوين العزيزين والصديقين الحميمين:

الأستاذ الدكتور عبدالله الغنيم.

والأستاذ عبدالحميد البسيوني.

الأول، لما منحني من ثقة، وما أفاضه عليّ من تشجيع لإتمام هذا العمل. والثاني، لتفضله بقراءة أصول هذا الكتاب، وإبدائه العديد من الملاحظات والاستدراكات التي جبرت كثيراً مما كان بالعمل من نقص، وتداركت ما شابه من قصور.

فلهما مني وافر الامتنان، ومن الله حسن الجزاء.

الكويت

في الأول من المحرم ١٤١٣ هـ

الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
مشروع قاموس القرآن الكريم
الكويت: (١٣١١٣)
ص.ب: ٢٥٢٦٣
فاكس: ٢٤١٥٣٦٥
طباعة ذات السلاسل

البـاب الأول

الجانب اللغوي والتوثيقي

الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
مشروع قاموس القرآن الكريم
الكويت: (١٣١١٣)
ص.ب: ٢٥٢٦٣
فاكس: ٢٤١٥٣٦٥
طباعة ذات السلاسل

(الفصل الأول)
كتابة القرآن

١ ـ كتابة القرآن في عهد الرسول:

لا نستطيع أن نتحدث عن الصورة الأولى التي كتب بها القرآن الكريم أثناء نزول الوحي في عهد الرسول ﷺ؛ لأن المصادر لم تحو نماذج من الكتابات المبكرة لهذه الفترة، كما أن هذه المصادر تجمع على أن عثمان بن عفان بعد أن أمر بنسخ المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق[١]. كذلك فإن الصحف التي كانت عند حفصة قد قام مروان بن الحكم بإحراقها بعد وفاتها[٢].

ولكن أغلب الظن أن آيات القرآن كانت تكتب في عهد الرسول خالية من أي نقط (سواء كان نقط إعجام[٣] أو نقط شكل[٤])، ومجردة من أي علامات إضافية حتى على فرض معرفة العرب لنقط الإعجام كما تدل

(١) البرهان ١/٢٣٦، والإتقان ١/٥٩.

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/٩٢، عن المصاحف٢٥، وانظر ص ٢١ منه.

(٣) نقط الإعجام هو الذي يميز الأحرف المتشابهة بعضها من بعض كنقط الباء بنقطة من تحت، والتاء باثنتين من فوق.

(٤) نقط الشكل كان صورة مرحلية للتعبير عن الحركات القصيرة، وهي الفتحة والضمة والكسرة.

بعض النقوش التي عثر عليها . وما أظن أن دعوات الصحابة إلى تجريد القرآن إلا اتباعاً لسنة رسول الله، واهتداء بالطريقة التي أقرها الرسول لكتابته. ومن ذلك قول عبدالله بن مسعود: «جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء»، وما روي عن ابن عمر وقتادة أنهما كانا يكرهان نقط المصحف(٢).

ولكن بعض الكتاب المعاصرين يطرح احتمال أن يكون الخط الذي كتب به الوحي بإملاء الرسول كان يحتوي على نقط الإعجام، وأن الصحف التي قيد فيها القرآن بإملاء النبي كانت ـ إذا صح الاحتمال ـ أكثر تقييداً في ذاتها، وإن انتفى أثر هذا التقييد بوجود رخصة الأحرف السبعة(٣).

ومعنى هذا أن تجريد النص القرآني من النقط قد استحدث في المصحف العثماني، وكان اختياراً من الكَتَبَة حتى يتسع هيكل الكلمة لأكبر عدد ممكن من الأحرف، أو الأوجه القرائية؛ إذ يبعد كما يقول القلقشندي «أن الحروف مع تشابه صورها كانت عَريّة عن النقط إلى حين نقط المصحف»(٤) على يد نصر بن عاصم.

وهناك إشارات في بعض المراجع إلى أن الرسول كان يرشد بنفسه كتبة الوحي إلى رسم حروف القرآن وكلماته، كقوله ﷺ لمعاوية: «ألِقِ

---

(١) عثر على بردية مصرية مؤرخة ٢٢ هـ، وعلى نقش قرب الطائف يعود إلى ٥٨هـ وفيهما بعض التنقيط (انظر تاريخ القرآن لعبد الصبور شاهين / ٧٢ والخط العربي لإميل يعقوب /٢٩، والخط العربي لسهيلة الجبوري /٥٦).
(٢) المحكم في نقط المصاحف للداني/١٠.
(٣) تاريخ القرآن لعبد الصبور/٧٣ بتصرف.
(٤) تاريخ القرآن لعبد الصبور/ ٧١، ٧٣، وانظر صبح الأعشى ١٥١/٣.

الدواة، وحرّف القلم، وانصب الباء، وفرّق السين، ولا تعور الميم، وحسّن الله ومُدّ الرحمن، وجوّد الرحيم..»[1].

ولا يصح هذا - بالطبع - إلا عند القائلين بمعرفة الرسول ﷺ للقراءة والكتابة، وهو رأي لاقى مقاومة شديدة ونكيراً من العلماء[2].

وسواء كان كُتّاب الوحي الرسميون يستخدمون نقط الإعجام في كتابة القرآن أو لا يستخدمونه فهناك سؤال يطرح نفسه في هذا المقام وهو: إلى أي مدى احتوى النص المكتوب للقرآن في عهد الرسول على الأحرف السبعة، أو الأوجه السبعة التي أنزل عليها القرآن؟

انقسم العلماء في الإجابة عن هذا السؤال إلى فريقين:

١ ـ فريق رأى أن النص المكتوب للقرآن في عهد الرسول ﷺ كان يحوي الأحرف السبعة التي أنزل عليها، وأن الرخصة في تعديد القراءة شملت المكتوب والمنطوق. ومن هذا الرأي الدكتور صبحي الصالح الذي يقول: «كتابة القرآن في عهد الرسول كانت ملحوظاً فيها الأحرف السبعة»[3].

---

(١) تاريخ القرآن وغرائب رسمه للكردي/١٩٠، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١٠٥.

(٢) من النقول التي تشعر بمعرفة الرسول للحروف ما روي عن ابن أبي شيبة وغيره: ما مات رسول الله حتى كتب وقرأ. وما جاء في حديث قصة الحديبية: «فأخذ رسول الله الكتاب فكتب». وفي رواية: «وليس يحسن يكتب فكتب». وفي رواية: «فكتب بيده». وروي عن جعفر الصادق: «كان عليه السلام يقرأ من الكتاب وإن كان لا يكتب». وفي «الشفاء» أنه وردت آثار تدل على معرفة الرسول لحروف الخط وحسن تصويرها (انظر: تاريخ القرآن لعبدالصبور/٤٧، ٤٨، وتاريخ القرآن للكردي/ ١٩٤، ومناهل العرفان للزرقاني ٣٥٧/١).

(٣) مباحث في علوم القرآن/٨٠.

٢ ـ وفريق رأى أن كتاب الوحي كانوا يكتبون النص القرآني في عهد الرسول كما يمليه، وبحرف واحد. أي أن الكتابة لم تكن كالقراءة على سبعة أحرف، أو سبعة أوجه؛ لأن تنوعات الأحرف السبعة لا يمكن ضمها في رمز خطي واحد. وقد تمت الكتابة في مكة بأيدي القرشيين، وفي المدينة بأيدي جماعة من الأنصار، ولم يكن بين الحيين فروق في الرسم تذكر[١].

ومن هذا الرأي الشيخ محمد أبو زهرة الذي قال: «الذي كتب في عصر النبي ﷺ لم يعتره تغيير، ولم تجر عليه الحروف السبعة، فالحروف السبعة كانت في قراءة القرآن لا في كتابته. واستئذان النبي كان في القراءة لا في الكتابة»[٢]. ومنه كذلك الدكتور عبدالصبور شاهين الذي فرّق بين التدوين والمشافهة، وقصر الرخصة في استبدال لفظ بآخر على المشافهة لا التدوين[٣]، ونص على أن إملاء الرسول القرآن على كُتّاب الوحي «كان على حرف واحد، وبصورة واحدة خالية من الزيادة، أو النقص، أو التبديل.. مما تحتمله أو لا تحتمله رخصة الأحرف السبعة..»[٤].

ويبدو أن الدكتور صبحي الصالح قد اتجه إلى هذا الرأي دون أن يشعر حين قال في موضع آخر في كتابه السابق: «إذا كان الرسول قد وسع على المسلمين في أول الأمر وراعى التخفيف عن العجوز والشيخ الكبير، وأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه (أي على طريقته في اللغة) تجنباً للمشقة

---

(١) تاريخ القرآن لعبدالصبور/٥٤.
(٢) المعجزة الكبرى: القرآن/٣٧.
(٣) تاريخ القرآن/٥٥.
(٤) السابق/ ٥٧.

في النطق بغير لغته فليس معنى هذا أنه كان يأذن لهم بإثبات هذه القراءات وكتابتها على أنها حروف نزل عليها القرآن»[1].

٢ ـ خصائص الرسم العثماني:

يراد بالرسم كتابة الحروف الهجائية التي تدل على الكلام، وبالرسم العثماني كتابة القرآن بالطريقة التي تمت في عهد عثمان بن عفان[2]. ويشمل ذلك طريقة هجائه وتجريده من علامات الإعجام والشكل.

وقد قسم القسطلاني في «لطائف الإشارات» طريقة هجاء المصحف إلى قسمين هما:

أ ـ قياسي، وهو ما وافق الخط فيه اللفظ. وقد جاء عليه أكثر رسم المصحف.

ب ـ واصطلاحي، وهو مخالفة الخط للفظ، أو مخالفة الرسم لقواعد الكتابة العربية[3]، وهذا النوع على الرغم من مخالفته لقواعد الرسم في العربية يخضع في معظمه لقواعد معينة تشكل الأسس لما سمي بالرسم العثماني.

وقد حصر القسطلاني قواعد الرسم في: الحذف أو الإثبات، والزيادة، والبدل، والفصل أو الوصل، والهمز، وما فيه قراءتان يكتب على إحداهما[4]. وأمثلة ذلك:

---

(١) مباحث في علوم القرآن/١٣٨.

(٢) تاريخ القرآن للكردي/١٠٧، ومناهل العرفان للزرقاني ٣٦٢/١.

(٣) لطائف الإشارات ٢٨٤/١، ٢٨٥، والإتحاف ١٠، ومقدمة «معجم القراءات القرآنية» لأحمد مختار وعبدالعال سالم / ٤١.

(٤) لطائف الإشارات ٢٨٨/١، والإتقان، النوع السادس والسبعون، وانظر مناهل العرفان ٣٦٢/١ وما بعدها.

أ ـ الحذف أو الإثبات:

من ذلك حذف ألف «لكن» مخففة ومشددة أينما وكيف وقعت، وكذلك ألف «أولئك» و«ذلك»، وألف «ها» التنبيه في مثل: «هأنتم هؤلاء»، والألف الندائية في مثل: «يٰرب»، «يٰنوح»، «يٰسماء»(١).

وقد تختلف المصاحف في الحذف أو الإثبات مثل الألفين في الجمع المصحح المؤنث كالصالحات والصافّات والصائمات. فأكثر المصاحف على حذف الألفين، وأقلها على حذف الأولى وإثبات الثانية(٢).

ومن أمثلة الحذف كذلك حذف الياء الواحدة المتطرفة بعد كسرة نحو: «ولا تكفرونِ»، «يشفينِ».. الخ(٣).

وكذلك حذف إحدى كل واوين تلاحقتا في كلمة نحو: «داود»، «الغاون»، وحذف الواو من مثل ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾(٤)، و﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ﴾(٥).

ب ـ الزيادة:

وقد انحصرت أمثلة الزيادة في الألف والواو والياء، ومن أمثلة ذلك:

* زيادة الألف في «شيء» مثل: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ ﴾(٦)، وفي «مائة»،

---

(١) لطائف الإشارات ١/٢٨٨، ٢٨٩، والإتحاف ١٠.
(٢) اللطائف ١/٢٩٤، والإتحاف ١٢.
(٣) اللطائف ١/٢٩٧.
(٤) الإسراء ١١.
(٥) الشورى ٢٤. وانظر لطائف الإشارات ١/٢٩٩، والمصاحف لابن أبي داود/١١٦ والإتقان ٢/١٦٧، والبرهان ١/٣٩٧، والمحكم في نقط المصاحف للداني/١٨، وما بعدها.
(٦) الكهف ٢٣.

و«مائتين» وفي «ابن» و«ابنة» حيث وقعا، وفي «الظنونا»، و«الرسولا» و«السبيلا» وغيرها.

* زيادة الواو في «أولو»، و«أولى»، وأولت»، و«أولئك»، و﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

* زيادة الياء في «ملأ» المجرور المضاف إلى مضمر مثل: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾[2]، وفي ﴿نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3]، وفي «أييد» من قوله سبحانه ﴿ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾[4]، وغيرها[5].

جـ ـ البدل:

ومن أمثلتة رسم الألف المتطرفة ياء اتفاقاً في «الهدى»، و«القرى» و«قربى»، و«الأسرى»، و«مثوىه»، «وأرىكم». . الخ.

ورسم الألف واوا في «الصلوٰة»، و«الزكوٰة»، و«الحيوٰة»، و«الربوٰا» غير مضافات.

وكتابة هاء التأنيث تاء في ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[6]، و﴿ نِعْمَتَ ﴾[7]، و﴿سُنَّتُ﴾[8].

---

(1) الأعراف ١٤٥.
(2) هود ٩٧.
(3) الأنعام ٣٤.
(4) الذاريات ٤٧.
(5) انظر لطائف الإشارات ١/٣٠٠، والمحكم للداني/١٧٤ وما بعدها، والبرهان ١/٣٨١ وما بعدها، والإتقان ٢/١٦٨.
(6) البقرة ٢١٨ وغيرها.
(7) البقرة ٢٣١ وغيرها.
(8) الأنفال ٣٨ وغيرها.

د ـ الفصل والوصل:

ومن أمثلة ذلك كتابة «عما» و«فيما» متصلتين، وكتابة ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾[1] ونحوه بفصل اللام عن اسم الإشارة[2]. وقد كتبت «ما» في المصحف وهي اسم مقطوعة وموصولة، فكتبوا ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾[3] مقطوعة، وكتبوا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[4] موصولة[5].

هـ ـ الهمـز:

اتفقت المصاحف على كتابة صورة الهمزة بالحرف الذي تؤول إليه في التخفيف أو تقرب منه، وأهملوا المحذوفة فيه، ورسموا المبتدأ بها ألفاً، فيما عدا بعض مواضع في الرسم وقعت على غير قياس. ولذا كتبت همزة «هؤلاء» واوا، و«لئلا» ياء، و«اشمأزت» ألفا، و«أولاء» ألفا كذلك، وأهمل رسمها في مثل «الاسما»: (الأسماء)[6].

و ـ ما فيه قراءتان يكتب على إحداهما:

ما فيه قراءتان (أو أكثر) نوعان: نوع يحتمله الرسم العثماني المجرد من النقط والشكل مثل: «فسوا»، التي تحتمل «فتبينوا» و«فتثبتوا» ـ وقد قرىء بهما[7]. ومثل: «ىسرها» التي تحتمل «نُنْشِزها» و«نُنْشرها» ـ وقد قرىء بهما

(١) الفرقان ٧.
(٢) لطائف الإشارات ١/٣٠٤، والإتقان ٢/١٦٩، ١٧٠.
(٣) الأنعام ١٣٤.
(٤) طه ٦٩.
(٥) مقدمة معجم القراءات القرآنية ١/٤٢.
(٦) لطائف الإشارات ١/٣٠٤ ـ ٣٠٦، وتاريخ القرآن لعبد الصبور/٢٠٩.
(٧) النساء ٩٤، والحجرات ٦، وانظر معجم القراءات القرآنية ٢/١٥٤، ٦/٢٢٠.

كذلك[1]. وهذا لا مشكلة فيه. ونوع لا يحتمله الرسم العثماني، ويتعذر رسمه ـ دون شكل ونقط ـ بصورة تحتمل جميع الوجوه. وقد جرى كُتَّاب المصاحف العثمانية في هذا النوع على تنويع الرسم في النسخ المتعددة التي نسخوها بحيث تقتصر كل نسخة على وجه واحد، وتحوي النسخ مجتمعة الوجوه المتعددة، أو القراءات المتنوعة. ومن هنا جاءت الاختلافات أو الفروق بين بعض المصاحف العثمانية وبعض.

ومن أمثلة هذه الاختلافات:

* جاء في مصحف أهل المدينة: «وأوصى»[2] وفي مصحف أهل العراق: «ووصّى».
* جاء في مصحف أهل المدينة: «سارعوا إلى مغفرة»[3] وفي مصحف أهل العراق: «وسارعوا».
* جاء في مصحف أهل الشام: «لم يتسَنَّهْ»[4]، وفي مصحف أهل العراق: «لم يَتَسَنَّ».
* جاء في مصحف أهل الشام: «بالبينات وبالزُّبُر»[5]، وفي مصحف أهل العراق: «والزبر».
* جاء في مصحف أهل الكوفة: «لئن أنجانا»[6]، وفي مصحف أهل البصرة: «لئن أنجيتنا».

---

(١) البقرة ٢٥٩. وهناك قراءتان أخريان يحتملهما الرسم (انظر: معجم القراءات القرآنية ١/٢٠٠).
(٢) البقرة ١٣٢.
(٣) آل عمران ١٣٣.
(٤) البقرة ٢٥٩.
(٥) آل عمران ١٨٤.
(٦) الأنعام ٦٣.

* جاء في مصحف أهل الكوفة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، وفي مصحف أهل البصرة: «حسنا»[2].

وقد بين فضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف الحكمة في تنويع الرسم في هذا النوع قائلاً: إنه اختلاف قصد بإثباته إنفاذ ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين واشتهاره بينهم. وإنما كتبت هذه في البعض بصورة، وفي آخر بأخرى؛ لأنها لو كررت في كل مصحف لتوهم نزولها كذلك. ولو كتبت بصورة في الأصل، وبأخرى في الحاشية لكان تحكماً[3].

ويلاحظ على حالات الهجاء في الرسم العثماني أن قواعدها غالبة وليست مطّردة. فقد رسمت بعض الكلمات في موضع برسم، وفي موضع آخر برسم مخالف كما سبق أن مثلنا. ونزيد على ذلك الأمثلة الآتية:

١ ـ ثبتت ألف «قرءان» في كل المواضع إلا في موضعين اثنين[4].

٢ ـ حذفت ألف «الميعاد» في الأنفال[5]، وأثبتت في غيرها[6].

٣ ـ رسم في جميع المصحف «لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ»[7] بياء بعد الهمزة، ولكن رسم «إِلَٰفِهِمْ» بغير ياء[8].

---

(١) الأحقاف ١٥.

(٢) دراسات قرآنية ـ تاريخ القرآن وعلومه لعدنان ررزور / ١٠٢، ١٠٣، ومقدمه معجم القراءات ١/ ٤٥.

(٣) تاريخ القرآن للكردي/٩٧ نقلاً عن الشيخ مخلوف في كتابه عنوان البيان في علوم التبيان، ومناهل العرفان ١/٢٥٢، ومقدمة معجم القراءات ١/ ٥٠.

(٤) هما يوسف ٢ والزخرف ٣.

(٥) آية ٤٢.

(٦) نحو آل عمران ٩. وانظر لطائف الإشارات ١/٢٨٧ ـ ٢٩١.

(٧) قريش ١.

(٨) قريش ٢. وانظر المحكم للداني /١٨٧.

٤ ـ رسمت «إبراهيم» في القرآن كله بالياء، إلا في البقرة فقد رسمت بدون ياء(١).

٥ ـ رسمت كلمة «كتاب» في جميع القرآن بغير ألف ما عدا أربعة مواضع رسمت فيها بالألف، منها: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(٢). ورسمت كلمة «قال» بالألف ماعدا خمسة مواضع رسمت فيها بدون ألف مثل: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾(٣).

٦ ـ رسمت ﴿ سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾(٤) بالألف، لكن ﴿ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾(٥) بالياء.

وقد حاول بعضهم أن يتلمس الحكمة في هذا التخالف وعدم الاطراد، وذكر من ذلك:

١ ـ منع أهل الكتاب أن يقرءوا القرآن على وجهه دون مُوَقِّف.

٢ ـ وجود الحكمة عند الصحابة الذين قاموا بكتابة المصحف، فمنها ما عرفناه، ومنه ما غاب عنا علمه. وقد ألف ابن البنَّاء كتاباً عنوانه «الدليل من مرسوم خط التنزيل» ضمنه مفاتيح كثيرة لتدبر ما غاب عن كثير علمه، وخفيت حكمة رسمه(٦).

٣ ـ وهناك بعض التحليلات أو التعليلات المقبولة لبعض أمثلة المخالفة، ومن ذلك:

---

(١) المصاحف / ١١٦ ، البقرة ١٣٢ .
(٢) الرعد ٣٨.
(٣) الأنبياء ١١٢. وانظر تاريخ القرآن للكردي/ ٦، ٧، ١٢٩، ١٤٥.
(٤) يوسف ٢٥.
(٥) غافر ١٨. وانظر تاريخ القرآن للكردي/ ١٢٩.
(٦) لطائف الإشارات ١/٢٨٤، ٢٨٥. وانظر أمثلة لتخريجات ابن البناء ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

أ ـ تعليل زيادة ألف في مثل: ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾[1]، أو في مثل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾[2]، بأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل استقرار قواعد الخط العربي.

ب ـ تعليل زيادة الألف في «مائة» للفرق بينها وبين «منه».

جـ ـ تعليل كتابة «لدى» تارة بالألف وتارة بالياء بأن المرسوم بالألف على اللفظ، وبالياء لانقلاب الألف ياء مع الإضافة إلى الضمير[3].

د ـ تعليل حذف الألف في «الخلق»[4] بأنه قصد به احتواء القراءتين: قراءة الجماعة: «وهو الخَلّاق»، وقراءة المطوعى «وهو الخالق»[5].

هـ ـ تعليل كتابة ألف «الصلاة»، و«الزكاة»، و«الحياة»... واوا بأنه على اعتبار الأصل، أو على لغة أهل الحجاز الذين يفرطون في تفخيم الألف وما قبلها في ذلك[6].

و ـ تعليل كتابة «أم من» تارة هكذا، وتارة متصلة «أمَّن»؛ بأن الأول للدلالة على أنها المنقطعة التي بمعنى «بل»، والثاني على أنها ليست تلك[7].

---

(١) النمل ٢١.
(٢) الكهف ٢٣.
(٣) لطائف الإشارات ١/٣٠٠، والمحكم للداني/ ١٧٧، ومقدمة معجم القراءات ١/٤١، ٤٢.
(٤) الحجر ٨٦.
(٥) لطائف الإشارات ١/٢٨٩.
(٦) المحكم للداني / ١٨٩.
(٧) مناهل العرفان ١/٣٦٧.

كما أن من العلماء من التمس حكمة في عدم الالتزام بموافقة الهجاء للنطق، وهي «حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتّكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة» [1].

٣ ـ تيسير الرسم العثماني وتحسينه:

إذا كان رسم المصحف العثماني ـ بتجريده الأحرف من النقط والشكل ـ قد رمى إلى توسيع مدلول الرسم ليحتمل القراءات التي ثبتت بطريق الرواية والسماع، فإن هذه الطريقة ما لبثت أن تكشفت عن بعض المشكلات التي ظهرت بعد فترة لم تتجاوز نيفاً وأربعين سنة[2]، نتيجة ضعف السليقة اللغوية، وتغير التركيبة السكانية للمجتمع الإسلامي بعد التوسع في الفتوحات، وانتشار الإسلام، ودخول الأعاجم في دين الله أفواجا، وما صحب ذلك من صعوبة تلقي القرآن مشافهة عن العلماء، ورغبة كثير من المسلمين في التلاوة من مصاحفهم.

وقد سجلت كتب التصحيف نماذج كثيرة لأخطاء وقعت في قراءة القرآن لم تقتصر على عامة الناس فحسب، بل تعدتهم إلى خاصتهم ومشاهيرهم. ومن أمثلة ذلك ما رواه حمزة الأصفهاني:

---

(١) السابق ٣٦٩/١، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/٤٢.

(٢) جمع عثمان المصحف عام ٢٥ أو ٣٠هـ، وقام أبو الأسود بضبط المصحف بالشكل عام ٦٧هـ (الخط العربي لسهيلة الجبوري/٥٦، والتنبيه على حدوث التصحيف للأصفهاني/٧٤، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١١٣. وانظر النشر ٧/١).

أ ـ قرأ رجل من الكبراء في المصحف: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾[1] ـ قرأها «وعلى والديك».

ب ـ امتحن أمير البصرة «حماداً» الراوية بتكليفه القراءة في المصحف فصحّف فيه بضعاً وعشرين آية[2].

جـ ـ قرأ بعضهم: «جعل السقاية في رِجْل أخيه» بدلا من ﴿ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾[3].

وقد تمثلت مشكلات الرسم العثماني في جوانب ثلاثة هي:

أ ـ الرسم بطريقة لا يتفق فيها المكتوب مع المنطوق.

ب ـ التجريد من نقط الإعجام الذي يميز بين الأحرف المتشابهة رسماً، المختلفة نطقاً.

جـ ـ التجريد من الضبط بالشكل، أو من علامات الحركات. والرواية المشهورة عن سبب تصدي أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف بالشكل تذكر أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ ـ بجرّ «رسول»، فاستعظم ذلك، وقال: عزّ وجه الله. إن الله لا يبرأ من رسوله[4] ثم قام بنقط المصحف ضبطاً للشكل.

---

(١) المائدة ١١٠.

(٢) من أمثلتها: «ومما يعرشون» (النحل ٦٨)، قرأها: «يغرسون»، «وعدها إيّاه» (التوبة ١١٤) قرأها: «وعدها أباه» (هكذا قال الأصفهاني، وهي قراءة الحسن وغيره ـ معجم القراءات ٣/٤٨)، وغير ذلك.

(٣) يوسف ٧٠، وانظرالتنبيه على حدوث التصحيف/ ٣٦ وما بعدها.

(٤) البحث اللغوي عند العرب/٨٥، والخط العربي لسهيلة الجبوري/٥٧.

وكان هذا هو **الإصلاح الأول الرسمي**[1] في تاريخ المصحف، وتم عام ٦٧هـ[2].. وكانت طريقة أبي الأسود في ضبط المصحف أن استحضر كاتباً وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ مداداً يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف، فيضع نقطة واحدة فوق الحرف إذا رأى أبا الأسود قد فتح شفتيه (علامة الفتحة)، ونقطة واحدة تحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه (علامة الكسرة)، ونقطة واحدة بين يدي الحرف (أمامه) إذا رآه قد ضم شفتيه (علامة الضمة). أما إذا أتبع الحرف الأخير غُنّة فقد أمر الكاتب أن ينقط نقطتين إحداهما فوق الأخرى (علامة التنوين).

وأما الحرف الساكن فقد أهمله، واعتبر عدم النقط علامة له[3].

والنموذج الآتي يوضح طريقة أبي الأسود:

الحمدُ لله[4]

نقطة حمراء فوق الحرف = فتحة.

نقطة حمراء بين يدي الحرف = ضمة.

نقطة حمراء تحت الحرف = كسرة.

ويلاحظ أن بعض الكُتّاب قد عمم طريقة الضبط هذه بالنسبة لكل ما تحرك من الحروف، وبعضهم قصره على ما إذا لم يشكل التبس،

---

(١) كانت هناك إصلاحات سابقة لكنها أخذت طابعاً فردياً، تمثلت في إدخال بعض الصحابة والتابعين تعديلات على الرسم العثماني باجتهاد شخصي، فكان منهم من نقط مصحفه دون أن يجعل النقط نظاماً عاماً، ومنهم من أضاف علامات التخميس أو التعشير. (انظر المحكم للداني/٢، ٣، ١٧، ٣٥. وانظر مقدمته ٣٠).

(٢) الخط العربي لسهيلة الجبوري / ٥٦.

(٣) السابق / ٥٦ ـ ٥٧، وملحق المحكم للداني/ ٢١١.

(٤) مقدمة المحقق للمحكم/٣٨، ٣٩.

وبعضهم قصره على أواخر الكلم، وهو موضع الإعراب؛ إذ فيه يقع الإشكال ويدخل الالتباس(١).

ولم تمض إلا فترة يسيرة لم تزد على ربع قرن حتى أحس الناس بحاجتهم إلى إدخال إصلاح آخر على رسم المصحف، بقصد التمييز - عن طريق النقط - بين الأحرف المتشابهة رسماً المختلفة نطقاً. وقد قام بهذه المهمة نصر بن عاصم (توفي ٨٩ هـ) ويحيى بن يعمر(٢) (توفي ١٢٩هـ) بتكليف من الحجاج بن يوسف الثقفي في زمن عبدالملك بن مروان(٣).

وكان هذا هو **الإصلاح الثاني الرسمي** في تاريخ المصحف. وفيه نقطت الحروف بنفس مداد الكتابة، وكان النقط يكتب أحياناً مدوراً، وأحياناً مربعاً(٤).

وظل الناس فترة من الزمن يميزون نقط الشكل عن نقط الحروف (الإعجام) عن طريق استخدام لون مخالف للأول، ولون أسود للثاني. ثم تخفف الناس من استخدام المداد المخالف، وأخذوا يشكلون الحروف بمداد الكتابة نفسه، مما أدى إلى اختلاط نَقْط الشكل بنقط الإعجام، فوضع الخليل ابن أحمد (توفي ١٧٥هـ) طريقته الجديدة في الشكل.

---

(١) ملحق المحكم للداني/ ٢١٠.

(٢) بناء على ما قيل سابقاً من العثور على برديات ونقوش قديمة فيها بعض التنقيط فإن بعض العلماء يقصرون جهد نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر على إدخال النقط في المصحف، أو على إكماله بعد أن كان مقصوراً على بعض الحروف دون بعض (انظرالخط العربي لإميل يعقوب/ ٣١). ولعل هذا هو ما عناه الزركشي بوصفه نصر بن عاصم بأنه «أول من نقط المصاحف» (البرهان ١/ ٢٥١).

(٣) التنبيه للأصفهاني/٧٤، وتاريخ القرآن للكردي/١٥٨.

(٤) الخط العربي لسهيلة الجبوري/٥٩.

وكان هذا هو الإصلاح الثالث الرسمي في تاريخ المصحف، حيث وضع علامات الشكل الثماني التي ما نزال نستعملها حتى الآن وهي:

* جرّة علوية[١] = فتحة.
* جرة سفلية[٢] = كسرة.
* رأس واو = ضمة[٣].
* رأس خاء/دائرة صغيرة = سكون.
* رأس شين = شدة.
* رأس عين = همزة.
* صـ = علامة الوصل.
* ~ = علامة المد.[٤]

وزاد بعضهم على هذه العلامات الثماني علامتين أخريين نسب وضعهما إلى الخليل، إحداهما للدلالة على الرَّوْم، والأخرى على الإشمام[٥].

ولم يكتف العلماء بهذه الإصلاحات الثلاثة للرسم العثماني، وإنما أضافوا إليها بعض التحسينات التي لم تكن الحاجة ملحة إليها، وإنما أضيفت ابتغاء التيسير على الناس في ضبط المصحف، ولذا أخذ بعضها طابعاً محلياً، وبعضها طابعاً عاماً، واستمر بعضها مستخدماً حتى العصر الحديث، ومن هذه التحسينات:

---

(١) وصفها بعضهم بألف مبطوحة فوق الحرف (المحكم للداني/٧).
(٢) كانت في الأصل ياء ممتدة تحت الحرف (السابق والصفحة).
(٣) ورمز للتنوين بتكرار العلامة.
(٤) الخط العربي لسهيلة/٦٠، وتركي عطية/٢٨، وإميل يعقوب/٣٨، ٣٩، والمحكم للداني/٧.
(٥) الإتقان ٢/١٧١، وانظر المحكم ٦، والنقط الملحق بالمقنع ١٢٥، وصبح الأعشى ٣/١٥٦، ١٥٧. والرَّوْمُ: النطق ببعض الحركة. أما الإشمام فهو: الإشارة إلى الضمة من غير تصويت.

١ ـ وضع علامة عند نهاية الآية، بعد أن كان يدل عليها بترك فراغ بينها وبين الآية التالية. وقد أخذت العلامة تارة شكل نقط ثلاث على هيئة مثلث[1]، وتارة على شكل نقط ست على هيئة معين. ثم استبدل بها شرط رسم بعضها فوق بعض. ثم أحيطت هذه الشرط بدوائر. وقد سارع الناس إلى تلقي هذه العلامات بالقبول قبل سواها لاحتياجهم إلى معرفة تقسيم الآيات، ولا سيما بعد أن انعقد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي.

٢ ـ وضع علامة التخميس، أي بعد كل خمس آيات. وكانت عبارة عن دائرة تتضمن رأس خاء[2].

٣ ـ وضع علامة التعشير، أي بعد كل عشر آيات. وكانت عبارة عن دائرة تتضمن رأس عين[3].

وقد تمت إضافة هذه العلامات في وقت مبكر جداً، لا يتجاوز عصر التابعين. وفي هذا يقول قتادة ـ وهو تابعي: «بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا»[4].

ويقال إن المأمون العباسي أو الحجاج هو الذي أمر بوضع علامة التعشير. وقد سمح بوضع هذه العلامات كثير من المتقدمين، وكرهها بعضهم بالحمرة وغيرها من الألوان[5].

---

(١) المصاحف لابن أبي داود/١٤٣.

(٢) المصحف الشريف لمرزوق/٤١.

(٣) السابق والصفحة.

(٤) البرهان ١/٢٥١، والإتقان ٢/١٧١، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٢٢، والمحكم للداني ٢، ٣، ١٥.

(٥) نقلت كراهية التعشير عن ابن مسعود وعطاء ومجاهد وأبي العالية وابن سيرين. وكرهه الإمام مالك إذا كان بالحمرة، وقال: تعشيره بالحبر لا بأس به (انظر المحكم للداني / ١٤، ١٥).

٤ ـ رسم فواتح السور، وذكر خواتم السور[١]. وقد كره بعض القدماء ذلك مخافة أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن[٢].

٥ ـ تقسيم القرآن إلى أجزاء، والأجزاء إلى أحزاب، والأحزاب إلى أرباع، والإشارة إلى ذلك كله برسوم خاصة[٣].

٦ ـ كان نُقّاط أهل العراق يستعملون للحركات وغيرها، وللهمزات اللون الأحمر وحده، وكان بعضهم يميز القراءات الشاذة في المصاحف بنقطها بلون مخالف لنقط القراءة المشهورة[٤].

٧ ـ كانت مصاحف أهل المدينة تكتب الهمزة المحققة باللون الأصفر، وتكتب علامات الحركات والسكون والتشديد والتخفيف باللون الأحمر[٥]. وانتقل ذلك عنهم إلى أهل المغرب والأندلس[٦]. وزاد الأخيرون ـ بعد هذا ـ اللون الأخضر لألفات الوصل[٧].

٨ ـ كان بعضهم يجمع قراءات شتى في مصحف واحد، ويجعل لكل قراءة لوناً من الألوان مخالفاً للسواد، كالحمرة والخضرة والصفرة واللازورد[٨].

---

(١) المحكم للداني/ ١٥ ـ ١٧، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١٢٢ والتعبير الفني في القرآن لأمين/٨٨.
(٢) المحكم للداني/١٦.
(٣) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١٢٢، والمصحف لمرزوق/١٩، والتعبير الفني لأمين/٨٨، ومناهل العرفان ١/٤٠٢، ٤٠٣.
(٤) تدوين القرآن لقبيسي/٥١، والمحكم للداني/٢٠.
(٥) المحكم للداني/٨، ١٩.
(٦) تدوين القرآن لقبيسي/٥٠، ٥١.
(٧) الخط العربي لتركي/٢٧ وانظر المحكم/٨٦، ٨٧، وكتاب النقط ١٢٦.
(٨) المحكم للداني/٢٠.

٩ ــ ثم أضيفت تحسينات أخرى في العصر الحديث، وبخاصة بعد انتشار الطباعة.

وقد شملت هذه التحسينات:

أ ــ وضع ألف بقلم دقيق فوق كل من الواو والياء في مثل: «الصلوٰة»، و«التورىٰة»، تنبيها إلى أن الألف هي المعول عليها في النطق دون الواو والياء.

ب ــ وضع ياء إضافية في مثل كلمة «وليّى» للإشارة إلى أنها تنطق بياءين لا ياء واحدة. وقد وضعت هذه الياء تارة هكذا: (وَلِـۧىَ) وتارة هكذا: (وَلِيِّۦ).

جـ ــ وضع واو صغيرة بعد الواو في مثل: «دَاوُۥدُ»[1].

د ــ وضع صفر مستدير فوق حرف العلة في نحو: «قالواْ»، و«أوْلئك» للدلالة على زيادة هذا الحرف، وعدم جواز النطق به[2].

ومع كل هذه الإصلاحات والتحسينات التي أدخلت على الرسم العثماني ظل المسلمون متحرجين من إدخال أي إصلاح على طريقة الهجاء، واتباع قواعد الإملاء الحديث في رسم المصحف. ولذا ظلت المشكلة الأولى باقية حتى الآن دون أن يطرأ عليها تغيير أو تحوير يذكر.

وهو ما سنخصص لبحثه العنوان التالي:

٤ ــ رسم المصحف والهجاء الحديث:

على الرغم من قبول معظم العلماء منذ القديم للتحسينات التي

(١) تاريخ القرآن للكردي/ ٢١٦ ـ ٢١٨.

(٢) انظر اصطلاحات الضبط الملحقة بالمصحف الأميري المصري.

أدخلت على الرسم العثماني، وإقرارهم لها، كالإعجام والشكل وسائر أنواع الرموز، فقد ثار الجدل بينهم قديماً ـ وما يزال الجدل ممتداً حتى الآن ـ بالنسبة لاتباع قواعد الإملاء في رسم المصحف، وكتابته بطريقة الهجاء الحديثة.

ففي القديم انقسم العلماء إلى أربعة فرقاء:

١ ـ فريق اعتبر رسم المصحف سُنّة متبعة(١)، ولذا منع إدخال أي تغيير أو تبديل عليه مخافة أن يضيّع الرسم الحديث شيئاً من القراءات(٢). ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل الذي قال: «يحرم مخالفة خط المصحف الإمام في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»، والبيهقي الذي قال: «من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه»(٣). وسئل الإمام مالك عمن استكتب مصحفاً، أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا، إلا على الكِتْبة الأولى. وقال أيضاً وقد سئل عن الحروف في القرآن كالواو والألف، أترى أن يغيّر في المصحف؟ قال: لا(٤).

---

(١) على أن واضع منهجه هو النبي نفسه (مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٠٥) وأن النبي كان يقول لكاتب الوحي: اكتب كلمة كذا بالواو دون كلمة كذا. واكتب (فيما) في موضع كذا منفصلة، وفي موضع كذا متصلة، واكتب (لشاىء) بزيادة ألف قبل الياء.. وهكذا، وهو من كلام محمد بن حبيب الله الشنقيطي في جوابه عن أسئلة وجهها إليه الكردي (تاريخ القرآن للكردي / ٢٢٥، ٢٢٦).

(٢) من العجيب أن يحارب الرسم الحديث بهذه الحجة، مع أن إعجام المصحف وضبطه بالشكل ـ وقد نالا القبول بعد أخذ ورد ـ قد ضيعا كثيراً من القراءات التي كان يسمح بها الرسم العثماني.

(٣) تاريخ القرآن للكردي/ ١٢٤ ـ ١٢٦، والبرهان ١/٣٧٩، ولطائف الإشارات ١/٢٧٨، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١٠٨ عن الإتقان، ومقدمة معجم القراءات القرآنية ١/٤٠، ٤١.

(٤) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/١٠٨، ولطائف الإشارات ١/٢٧٩.

٢ ــ وفريق أباح مخالفة الرسم العثماني، وصرح بأنه اصطلاحي وليس توقيفاً، ومن هؤلاء الباقلاني الذي يقول: «أما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً إذ لم يأخذ على كتاب القرآن.. رسماً بعينه.. وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص، وحدّ محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً.. ولذلك اختلفت خطوط المصاحف وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.. والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز. فكل رمز دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته، وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت. وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنَّى له ذلك»[1].

٣ ــ وفريق تسامح في كتابة المصاحف المعدة للتعليم فقط دون المصحف الإمام، وتمثل تسامحه إذ ذاك في قوله: «أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط ولا يزاد في المصاحف مالم يكن فيها. وأما المصاحف الصغار التي يتعلم فيها الصبيان وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً». وممن قال بذلك الإمام مالك[2].

---

(١) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٠٩، ١١٠.

(٢) المحكم للداني/ ١١، ١٣.

٤ ـ وفريق ذهب إلى أبعد من الجواز، وفضّل أو أوجب مخالفة الرسم العثماني واتباع طرق الهجاء الحديثة. ويمثل هذا الفريق العزّ بن عبدالسلام الذي يقول: «لا تجوز كتابة المصاحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجُهّال»(١)

ومع هذا لم نجد أحداً من القدماء قد جرؤ على تغيير رسم المصحف وإخضاعه للهجاء الحديث فيما عدا ما رواه ابن أبي داود عن محاولة قام بها عبيدالله بن زياد (توفي ٦٧ هـ) الذي نسب إليه أنه أمر كاتباً بإضافة الألف إلى ألفي كلمة حذفت منها. فكان هذا الكاتب يضع «قالوا» مكان «قلو»، و«كانوا» مكان «كنو»(٢).

أما في العصر الحديث فقد تباينت الآراء كذلك:

١ ـ فهناك رأي يمنع، وهو ماأعلنته لجنة الفتوى بالأزهر، ونص رأيها: «ترى لجنة الفتوى رفض هذا الرسم، والوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه، وذلك لأن القرآن الكريم كتب وقت نزوله على النبي ﷺ، ومضى عهده ﷺ والقرآن كله على هذه الكتبة، ولم يحدث فيه تغيير ولا تبديل. وقد كتبت به مصاحف عثمان... وأقر أصحاب النبي عمل عثمان... واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، والأئمة المجتهدين.. ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم

---

(١) البرهان ١/٣٧٩، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١١١، ولطائف الإشارات ١/٢٧٩، ومناهل العرفان ١/٣٧٠ وما بعدها.

(٢) المصاحف لابن أبي داود/٥٠، ١١٨. وقد تشكك بعض الباحثين في هذه الرواية (مقدمة معجم القراءات القرآنية ١/٦٥).

بـه أولاً إلى تلك القواعـد التي استحدثت. . بـل ظل مصـطلح القرآن قائماً مستقلاً بنفسه بعيداً عن التأثر بتلك القواعد»[1].

٢ ـ وهناك رأي يبيح استناداً إلى عجز عامة المسلمـين عن قراءة القـرآن في رسمه القديم. ولذا يحسن أو يجب أن يكتب لهم باصـطلاحات العصر الشائعة وبقواعد الإملاء الحديثة[2].

ومن أصحاب هذا الرأي أولئك الذين حملوا «الرسم العثماني» على الأداء لا مجرد الشكل الكتابي. ولقد أجـازوا اتباع أي طـريقة في الكتـابة مـا دامت لا تؤدي إلى خـروج عن إحـدى الصـور المـرويـة. ويمثـل هؤلاء شيخ القراء في مشيخة المقارىء المصرية الشيخ علي محمد الضباع الذي قـال: «كاتب المصحف إذا رسم هجـاء كلماته بصـورها الـرسمية عـلى وجه مما أثر عن أصحاب الرسول، والـتزم. . رسماً يـطابق قراءة معينـة من القراءات المتواترة، ثم ضبطه بـأي طريق من طـرق الضبط. . فلا يقـال إنه خـالف الرسم العثـماني. . وإن كانت الصـورة التي أتى بها لا تحكي صورة بعينها لمصحف من المصاحف الستة؛ لأن المعتبر في متابعـة الرسم العثماني تصوير الكلمة القرآنية على وجه أُثر عن تلك المصـاحف أو بعضها. وأما الضبط فقـد جرى عمـل المسلمين عـلى الترخيص بـه دفعاً للالتباس، ومنعاً للتحريف والخطأ»[3].

٣ ـ وهناك رأي ثالث يوفق بين الرأيين، فيلزم اتباع الرسم العثماني في كتابة المصاحف، مع التنبيـه في ذيل كـل صفحة من صفحـات المصحف إلى ما عسى أن يكون فيها من ألفاظ مخـالفة لـلاصطلاح الحـديث في الخط

---

(١) مقدمة معجم القراءات القرآنية ١/٤٢.

(٢) التعبير الفني في القرآن/ ٨٩، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١١٢.

(٣) تاريخ القرآن للكردي/ ١٠٨.

والإملاء، تجنباً لأخطاء التلاوة التي يقع فيها من يعتمد على اجتهاده في قراءة المكتوب[1].

٥ ـ رسم المصحف العثماني والأحرف السبعة:

ناقشنا حديث «الأحرف السبعة» في مكان آخر[2]، وانتهينا إلى أن أقرب الآراء فيه إلى القبول تلك التي تفسر الأحرف بالأوجه اللغوية المتوزعة بين القبائل العربية التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الفساد والخلل.

والسؤال الآن هو: إلى أي مدى اشتمل النص المدون للمصحف العثماني على هذه الأحرف السبعة؟

انقسم العلماء في الإجابة عن هذا السؤال إلى ثلاثة فرقاء:

١ ـ ففريق ضم جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين ذهب إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة. وبنوا ذلك على أنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة، ولا أن تجمع على ترك شيء من القرآن[3].

٢ ـ وذهب جمهور العلماء والأئمة إلى أن المصاحف العثمانية جاءت جامعة

---

(١) مناهل العرفان ٣٩١/١، والتعبير الفني/ ٨٩، ٩٠، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١١٢.

(٢) انظر: الفصل الثاني: المشافهة . بالقرآن، ص ٥١ وما بعدها.

(٣) النشر ٣١/١، والإتقان ٥٠/١، وتاريخ القرآن للكردي/٥٥، ودراسات قرآنية/١٢٧ وغيرها.

للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل، ومشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة[1].

٣ ـ وذهب الإمام الطبري ومن تابعه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة، وهو حرف قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، استناداً إلى قول عثمان لكتبة المصحف: إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وفي رواية: فإنه أكثر ما نزل بلسانهم.

وأصحاب هذا الرأي يردون جميع القراءات المعروفة لنا الآن إلى هذا الحرف الواحد، ولهذا يقول الطبري: إنه بعد كتابة المصحف العثماني على حرف واحد اندثرت الأحرف الستة الأخرى.. فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها، وعفو آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منهم بصحتها أو صحة شيء منها[2]. وينقل الزركشي عن الحارث المحاسبي أنه قال: «ليس عثمان جامع القرآن، وإنما هو حامل الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار»[3]. ويقول القرطبي: «قال كثير من علمائنا.. هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف»[4].

(١) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٣٠، والإتقان ١/٤٩، ٥٠، وتاريخ القرآن للكردي/ ١٨٨، والنشر ١/٣١.

(٢) تفصيلات ذلك في الإتقان ١/٦٠ وتاريخ القرآن للكردي/٤٤ ـ ٤٨، ٥١، ٥٣ ـ ٥٦، ١٨٨، والتعبير الفني في القرآن/٩١، ودراسات قرآنية/ ١٢٧، ومناهل العرفان ١/١٦١، والبرهان ١/٢١٣، ٢١٨، ٢٣٦.

(٣) البرهان ١/٢٣٩، والإتقان ١/٦٠.

(٤) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/٤١، وانظر القرطبي ١/٤٦.

ويظهر بشيء من التحقق أن الرأيين الثاني والثالث متقاربان، وأنهما ينتهيان إلى القول باندثار شيء من الأحرف أو الأوجه أو القراءات التي سمح بالقراءة بها في عهد الرسول للتيسير على المسلمين وتجنيبهم المشقة في نطقهم بغير حرفهم أو لغتهم، ثم منعت القراءة بها في عهد عثمان بعد أن انضبط الأمر، وتدربت الألسن، اتقاء للفتنة، ودرءاً للشقاق والخلاف[1].

وقد دافع الطبري عن الرأي القائل بخلو المصحف العثماني من بعض الأحرف السبعة بقوله إن الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة فتعصى بتركها أو إهمالها وإنما كان ذلك جائزاً أو مرخصاً لهم فيه. حتى إذا اختاروا حرفاً واحداً وأجمعوا على ذلك يتعين المصير إليه، والوقوف عنده[2].

٦ ــ رسم المصحف العثماني ودعوى اللحن:

وردت في الآثار روايات عن بعض الصحابة تفيد أن رسم المصحف العثماني قد اشتمل على بعض المآخذ، وأن هذه المآخذ قد تركت في المصحف كما هي دون تصحيح. ومن هذه الروايات:

١ ــ ما نسب إلى عثمان بن عفان أنه قال: «أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها»، وما روي عن عكرمة: «لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فقال: لا تغيّروها، فإن العرب ستغيرها، أو قال ستعربها بألسنتها. لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد هذه الحروف».

---

(١) انظر البرهان ١/٢١٣.

(٢) تفسير الطبري ١/٦٤، ٦٥، ودراسات قرآنية/١٢٧، ومقدمة معجم القراءات القرآنية ١/٤٤.

٢ ـ ما روي عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[(١)]، إنما هي: «ووصّى ربك»، التزقت الواو بالصاد نتيجة تحمل القلم مداداً كثيراً.

٣ ـ ما روي عن عائشة أنها لم سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾[(٤)]، قالت: «هذا عمل الكُتّاب، أخطأوا في الكتاب»[(٥)].

وقد ناقش العلماء من قديم هذه الدعوى[(٦)]، وانتهوا إلى رفضها للأسباب الآتية:

أولاً: ما نسب إلى عثمان:

١ ـ ما روي عن عثمان إسناده ضعيف مضطرب منقطع .

٢ ـ إذا كان عثمان قد جمع المصحف الإمام ليقتدي به الناس فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب؟ ومن غير المعقول أن يتولى عثمان جمع المصحف ليرتفع الخلاف في القرآن بينهم ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحناً

(١) الإسراء ٢٣.

(٢) طه ٦٣.

(٣) النساء ١٦٢.

(٤) المائدة ٦٩.

(٥) الإتقان ١/١٨٣، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١١٤، والمحكم للداني/ ١٨٥، ومقدمة معجم القراءات ١/٥٥.

(٦) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة «باب ماادعى على القرآن من اللحن» على سبيل المثال.

(٧) الإتقان ١/١٨٣. وقد ردّ الداني في المقنع إسناد الحديث قائلاً إنه مروي عن يحيى بن يعمر وعكرمة عن عثمان، وابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئاً ولا رأياه (حاشية المحكم للداني/ ١٨٦). وانظر: المقنع/١١٥ ـ ١٢٠ ط دمشق.

أو خطأ يتولى تغييره من يأتي بعده. وإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك فكيف يقيمه غيرهم؟[1].

٣ ـ ثبت أن عثمان كان «مواصلاً لدرس القرآن، متقناً لألفاظه، واقفاً على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي». روى عبدالله بن هانىء البربري مولى عثمان: كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أبيّ بن كعب فيها: «لم يتسنّ»[2]، وفيها «**لا تبديل للخلق**»[3]، وفيها «**فأمهل الكافرين**»[4]، قال فدعا بالدواة فمحا أحد اللامين: «لخلق الله»، ومحا «فأمهل»، وكتب «فمهّل»، وكتب «لم يتسنه»[5].

٤ ـ لو صحت الرواية عن عثمان يكون المراد، باللحن فيها: «التلاوة»، دون «الرسم» إذ كان كثير من القرآن لو تلي على حال رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة وتغيرت ألفاظها، مثل: «لأاذبحنه» ـ «لأاوضعوا» ـ «سأوريكم» ـ «الربوا»، وشبهه مما زيدت الحروف في رسمه. فلو تلا ذلك تال لا معرفة له بحقيقة الرسم ـ لو تلاه على حال صورته في الخط لصيّر الإيجاب نفياً، ولزاد في اللفظ ما ليس فيه، ولا من أصله، فوقع في اللحن مع أن رسم ذلك كذلك صحيح[6].

ولهذا قال ابن المنادي: إن رسم بعض الكلمات في المصحف بالنقص أو الزيادة هو «عندنا مما نظر إليه عثمان فقال: أرى في المصحف لحناً،

---

(١) تاريخ القرآن للكردي/ ٦٥، ٦٦، وحاشية المحكم للداني/ ١٨٧.
(٢) البقرة ٢٥٩. وقد سبق أنها كتبت كذلك في مصاحف أهل العراق.
(٣) الروم ٣٠، وصحتها: لا تبديل لخلق الله.
(٤) الطارق ١٧، وصحتها: فمهّل الكافرين.
(٥) الإتقان ١/١٨٣.
(٦) هامش المحكم للداني/ ١٨٦، ١٨٧.

وستقيمه العرب بألسنتها. فأوجب ذلك من القول: إن من الخط المكتوب مالا تجوز به القراءة من جهة الإعراب، وأن حكمه أن يترك على ما خُطّ، ويطلق للقارئين أن يقرءوه بغير الذي يرونه مرسوماً»[1].

ويقول صبحي الصالح تعليقاً على ما روي من تحسينات أدخلها عبيدالله بن زياد والحجاج على رسم المصحف: «ولعل هذه التحسينات الإملائية هي التي عناها عثمان بقوله ـ إن صح ـ: أجد فيه ملاحن ستصلحها العرب»[2].

٥ ـ ثبت أن زيد بن ثابت قد قام بمراجعة المصحف الإمام ثلاث مرات، ثم قام عثمان نفسه بمراجعته. ولم يقرّه إلا بعد أن عرض المصحف على صحف حفصة، وحينئذ «طابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف»[3].

٦ ـ ما أراده عثمان «باللحن» ليس الخطأ، وإنما اللغة واللهجة. وقد روي أن القرآن نزل بلحن قريش، أي بلغتهم. وعلى هذا يكون مراد عثمان: إن بعض الكُتّاب سجل القراءة على لغته وقراءته. فالمراد باللحن إذن: وجوه القراءة، وليس الخطأ[4]. ويؤكد هذا التفسير للفظ اللحن الباب الذي ورد في كتاب المصاحف لابن أبي داود وعنوانه «باب المصاحف العثمانية: اختلاف ألحان العرب في المصاحف». وقد ورد تحته ما يأتي:

أ ـ تفسير الألحان باللغات بدليل قول عمر بن الخطاب: إننا لنرغب عن كثير من لحن أبيّ، يعني: لغة أبيّ.

---

(١) المحكم للداني/ ١٨٥.

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١١٤.

(٣) تاريخ القرآن للكردي/ ٦٢، ٦٣.

(٤) تاريخ القرآن لعبدالصبور/١٢٠، ومقدمة معجم القراءات ١/٥٧.

ب ــ قول عثمان بعد اطلاعه على المصحف: أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. وقد عقب ابن أبي داود على مقالة عثمان بقوله: « هذا عندي، يعني بلغتها. وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه»[1].

كما يؤكده ما توصل إليه المستشرق الألماني «يوهان فك» في كتابه «العربية» بعد دراسة مستفيضة تاريخية دلالية لمادة «لحن»، من أن اللحن كان يعني في الجاهلية وصدر الإسلام معاني: الميل، والفطنة، والبلاغة، والغناء، والرمز، والإشارة، واللغز، والتورية، وطريقة التعبير. ولم يكن يعني مطلقاً «الخطأ». وانتهى بأن الكلمة ربما دلت على معنى «الخطأ» في وقت متأخر نسبياً ورجح أن يكون ذلك في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني[2].

ثانياً: ما نسب إلى ابن عباس:

١ ــ ما سبق قوله عن دقة الصحابة في التحري، ومراجعتهم للمصحف، ومراجعة عثمان له قبل سماحه بنشره على الناس.

٢ ــ من المعروف بداهة أن القراءة تقوم على الرواية والنقل والمشافهة إلى جانب الرسم، كما سبق أن ذكرنا. فكيف تقرأ «وقضى» ـ بالضاد ـ طبقاً للرسم، وروايتها «ووصّى» ـ بالصاد؟ ـ مع أن الرواية تسبق الرسم، والرسم ليس إلا تسجيلاً لما تناقله الصحابة حفظاً وتلاوة؟[3].

---

(١) المصاحف/ ٣٢.

(٢) تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ١٢٠ عن يوهان فك/ ٢٣٥ ـ ٢٤٦.

(٣) تاريخ القرآن لعبد الصبور/ ١١٨، ومقدمة معجم القراءات ٥٨/١.

ثالثاً: ما نسب إلى عائشة:

١ ـ هذه القراءات قد وجهت نحوياً أحسن توجيه، فكيف يقال إن الكاتب أخطأ في كتابتها؟[١].

٢ ـ من الممكن أن يحمل قول عائشة على أنهم أخطأوا في اختيار «الأَوْلى» من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه، لا أنهم أخطأوا في الرسم[٢].
وكيف يكونون قد أخطأوا في الرسم وكلمة «هذان» مكتوبة في المصحف العثماني: «هذن» لتحتمل وجوه القراءات فيها. فأين خطأ الكاتب وهو لم يكتب ألفاً ولا ياء؟[٣].

---

(١) انظر توجيهاتها في البحر المحيط لأبي حيان ٣/٣٩٥.
(٢) الإتقان ١/١٨٥، وانظر مناهل العرفان ١/٣٧٩ وما بعدها.
(٣) مناهل العرفان ١/٣٨٦.

(الفصل الثاني)
المشافهـة بالقرآن

١ ـ العلاقة بين الرسم والقراءة:

المبدأ الأساسي في نقـل القرآن وقـراءاته المتعـددة هو المشـافهة والنقـل والتلقي والأخذ ثقة عن ثقة، وخلفاً عن سلف. ولا يجوز لمسلم أن يقرأ في المصحف بجميـع احتمالات رسم الكلمـة (دون إعجام أو شكـل) حتى مـع صحة المعنى، ولكن فقط بما جاءت به الرواية مما يحتمله رسم الكلمة[1].

ومعنى هـذا أن الرسم لم يسبق النـطق، وإنما النـطق هـو الـذي سبق الرسم، وأن الرسم لم ينشىء قراءة، وإنما القراءة هي التي أنشأت الرسم.

ولكن بعض المستشرقين حـاولوا قلب المـوضوع، وتقديم الرسم عـلى القراءة زمنياً، ومن هؤلاء جولد تسيهـر، وبلاشـير، وتبعهم بعض الباحثـين العـرب دون تمحيص. يقـول الأول إن الكثير من القــراءات نشـأ نتيجـة «خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة تحت هذا الهيكـل أو فوقـه، وعدد تلك النقـاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يـوجد في الكتـابة العـربية الأصليـة ما يحـدده إلى اختلاف مـواقع الإعـراب

---

(١) انظر تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ٢١٥، ودراسات قرآنية/ ١٠٣، ١٩٩، ٢٠٠.

للكلمـة. . واختلاف دلالتهـا. وإذن فاختـلاف تحلية هيكـل الرسم بـالنقط واختلاف الحركات. . كانا السبب الأول لنشأة حـركة اختـلاف القراءات في نص لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه»[1].

ويقـول الثاني: إن طـائفة من القـراءات نشأت بـأخرة، وبصـورة غير إرادية نتيجة ما يحتمله المصحف العثماني[2].

ويقـول إميل يعقـوب: «وكانت المصـاحف الأولى المكتـوبـة في القـرن الأول الهجـري دون إعجـام، وكـان هـذا سببـاً من أسبـاب اختـلاف القراءات»[3].

وللرد على هؤلاء وغيرهم نسوق الأدلة الآتية:

١ ـ أن ما يحتمله رسم المصحف ليس نوعاً واحداً، وإنما عدة أنواع هي:

أ ـ ما نقله الثقات ووافق العربية، فهذا قرآن قطعاً يقـرأ به ويتعبـد بتـلاوته، مثـل «مالـك/ ملك يوم الـدين»[4] ومثل «يَخْـدعـون/ يُخادعون»[5].

ب ـ ما نقله الآحاد، ووافق العربية، فهذا يُقبل ولا يقـرأ به لمخـالفته الإجماع مثل القراءة المنسوبـة إلى أبي حنيفة «**إنمـا يخشى اللهُ من عباده العلماءَ**»[6].

---

(١) دراسـات قـرآنيـة/ ٢٠٠، ٢٠١، ومقـدمـة معجم القـراءات ١/ ٥٩ عن مـذاهب التفسـير الإسلامي لجولد تسيهر/ ٨، ٩.

(٢) تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ٨٥، ٢١٣.

(٣) الخط العربي / ٢٦.

(٤) الفاتحة ٤.

(٥) البقرة ٩.

(٦) فاطر ٢٨، وانظر معجم القراءات القرآنية ٥/ ١٨٣.

جـ ــ ما لم ينقل عن قارىء ثقة، وقام أحد الأفراد بتخمين قراءته من واقع الرسم، وهذا ليس قرآناً قطعاً، ولهذا قال السيوطي: «رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر. .» وعلل ذلك بأن القراءة تمتنع «بالقياس المطلق الذي لا أصل له يرجع إليه، ولا ركن يعتمد في الأداء عليه»[1].

وإذا كانت بعض المراجع قد ذكرت أمثلة لهذا النوع فليس على أنه قرآن، ولكن على أنه تحريف ناتج عن غفلة، أو تصحيف يلام عليه فاعله، أو على أنه نوع من النوادر والمُلَح[2]. ولهذا كان الأصفهاني في كتابه «التنبيه» حريصاً على أن يوضح أن احتمال الهجاء لفظين لا يكفي لعدهما قراءتين، بل لابد أن يروى كل منهما ليصيرا قراءتين، ولذا اختار للباب الرابع من كتابه عنواناً هو «في ذكر اختلاف ألفاظ من القرآن احتمل هجاؤها لفظين، فمن أجل أنه قرىء بهما صارتا قراءتين»[3].

٢ ــ أن المدون من القراءات التي ضبطها العلماء، وتثبتوا من سندها لا يقاس من ناحية الكم إلى ما يمكن أن ينشأ من قراءات كثيرة يحتملها الرسم. ولو كان الرسم هو المعيار ما ردّ العلماء كثيراً من قراءات حماد الراوية، مع احتمال الرسم لها[4].

---

(١) الإتقان ١/٧٦، ٧٧.

(٢) سبق أن مثلنا لهذا النوع، ص ٢٨، ونضيف المثالين التاليين: من قرأ غافلاً «لازيت فيه» بدلا من «لا ريب فيه» (البقرة ٢)، أو قرأ «ولله ميزاب السموات والأرض» بدلا من «ميراث» (آل عمران ١٨٠) - (انظر: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٢٢٩).

(٣) التنبيه/ ٢٢٩.

(٤) التنبيه/ ٣٦ وما بعدها.

٣ ـ أن عثمان بن عفان حينما كتب المصاحف ووزعها على الأقاليم لم يكتف بالنص المكتوب، وإنما أرسل مع كل مصحف قارئاً يقرىء الناس[١].

٤ ـ أن النحاة واللغويين ـ رغم جرأتهم على القراء ـ لم يجرؤوا على القراءات، ولم يعدوا قراءةً ما صح نحوياً أو لغوياً لمجرد صحته، دون أن ترد الرواية بنقله. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾[٢]، جاءت الرواية فيه برفع «كيد». قال الفراء: ولو قرأ قارىء «كيدَ» بالنصب لكان صواباً؛ إذا جعلت «إنما» حرفاً واحداً[٣]. ولكن لم يقرأ به أحد من القراء العشرة، ولا من الأربعة الذين فوق العشرة[٤].

ب ـ قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[٥]، لم يرو أن أحداً من القراء قرأه «بسيمائهم»، أو «بسيميائهم»[٦] مع ورود ذلك لغة، ولذا لم يعدها اللغويون قراءة، رغم صحتها لغة.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا﴾[٧]. من المعروف أن لغة بني عامر بالكسر أي «فادعِ»، ولكن حيث لم ترد بها رواية عن قارىء لم تعد من القراءات[٨].

---

(١) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٢٢٩.
(٢) طه ٦٩.
(٣) يعني: كافة ومكفوفة، أو أداة حصر.
(٤) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٢٢٦، ومعجم القراءات ٤/ ٩٤.
(٥) البقرة ٢٧٣.
(٦) معجم القراءات ١/ ٢١٤.
(٧) البقرة ٦١.
(٨) معجم القراءات ١/ صفحة ي.

٢ ـ نزول القرآن على سبعة أحرف:

تواتر النقل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[١]، ولكن تعددت روايات الحديث، وتعددت المناسبات التي ارتبطت به. فمن رواياته المتعددة:

أ ـ إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسَّر منها[٢].

ب ـ أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف[٣].

جـ ـ أَقْرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده فيزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف[٤].

د ـ أنزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أصبت[٥].

هـ ـ إن الملكين أتياني فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: فقلت: زدني. قال: اقرأه على حرفين. حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ على سبعة أحرف[٦].

و ـ لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المِراء، فقال: إنّي بُعثت إلى أمة أميين، منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي[٧]، والعجوز. فقال جبريل: فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف[٨].

ز ـ أتى جبريل النبي ﷺ وهو عند أضاة بني غفار، فقال: إن الله تبارك

---

(١) انظر مناهل العرفان ١/١٣٢، والنشر ١/٢١.
(٢) تفسير الطبري ١/٢٥.
(٣) السابق ١/٢٧.
(٤) السابق ١/٢٩، ولطائف الإشارات ١/٣١.
(٥) تفسير الطبري ١/٣٠.
(٦) تفسير الطبري ١/٣٢.
(٧) العاسي: الكبير المُسِنّ.
(٨) تفسير الطبري ١/٣٥.

وتعالى يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منها حرفاً فهو كما قرأ[١].

ح ـ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فلا تَمَارَوْا في القرآن، فإن المراء فيه كفر[٢].

ومن المناسبات التي ارتبطت به:

أ ـ اختلاف رجلين في قراءة سورة أو آية[٣].

ب ـ اختلاف عبدالله بن مسعود وجماعة في سورة من القـرآن، أهي خمس وثلاثون آية، أم ست وثلاثون آية[٤].

جـ ـ اختلاف عبدالله بن مسعود، وزيد، وأبيّ بن كعب في قراءة سورة[٥].

د ـ اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم في قراءة حروف كثيرة من سورة الفرقان[٦].

هـ ـ اختلاف عمر بن الخطاب مع رجل في قراءة آية[٧].

و ـ اختلاف أبيّ بن كعب مع رجل (أو رجلين) في قراءة آية[٨].

ز ـ اختلاف أبيّ بن كعب مع رجلين في قراءة سورة النحل[٩].

ومع تواتر أحاديث الأحرف السبعة، وروايتها في معظم كتب السنـة،

---

(١) السابق ١/٣٩.
(٢) السابق ١/٤٤.
(٣) السابق ١/٢٣، ٤٣.
(٤) السابق ١/٢٣.
(٥) السابق ١/٢٤.
(٦) السابق والصفحة. وانظر لطائف الإشارات ١/٣١، ٣٢.
(٧) تفسير الطبري ١/٢٧.
(٨) السابق ١/٣٣، ٣٦، ٤٢.
(٩) السابق ١/٣٧، ٣٨، ٤١.

وتعدد أسانيدها، وصحة معظمها[1] ، فإنه لم ينقل عن الرسول ولا أحد من الصحابة تعيين المراد بالأحرف السبعة ولذا اجتهد العلماء في تفسيرها، وبلغت هذه التفسيرات خمسة وثلاثين وجهاً عند بعض، وأربعين وجهاً عند بعض[2]. ولا يمكننا تعيين المراد بها على سبيل القطع، ولكننا سنختار من بين الآراء الكثيرة أشهرها ـ بادئين بأصحها ـ وهي:

أولاً: رأي ابن قتيبة (توفى ٢٧٦ هـ) الذي فسر الأحرف بالأوجه اللغوية وحصرها في سبعة هي:

١ ـ الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى: ﴿**هؤلاء بناتي هن أطهرُ لكم**﴾[3] و: «**أطهرَ لكم**»، وقوله تعالى: ﴿**وهل نُجازِى إلا الكفورَ**﴾[4] و: «**هل يُجَازَى إلا الكفورُ**».

٢ ـ أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة، وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو قوله تعالى: ﴿**ربنا باعِدْ بين أسفارنا**﴾[5] و: «ربُّنا باعَدَ بين أسفارنا»[6].

٣ ـ أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى: ﴿**إنْ كانت إلا صيحةً واحدةً**﴾[7] و:

---

(١) انظر: تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ٢٥ وما بعدها، وص ٢٢٩ وما بعدها. وحينما صعد عثمان المنبر وسأل من سمع النبي ﷺ يقول: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف»، أن يقوم ـ قام الكثيرون حتى لم يحصوا، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال ذلك، فقال عثمان: وأنا أشهد معهم (انظر النشر ١/٢١، والإتقان ١/٤٥، ومقدمة معجم القراءات ١/٦٧).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٣١.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن (ط٣) ص ٣٦ ـ ٣٨.

(٤) هود ٧٨. وانظر معجم القراءات ٣/١٢٦.

(٥) سبأ ١٧. وانظر معجم القراءات ٥/١٥٤، ١٥٥.

(٦) سبأ ١٩.

(٧) يس ٢٩. وانظر معجم القراءات ٥/٢٠٤.

«زَقْيَة». و: ﴿كالعهن المنفوش﴾[1] و: «كالصوف».

٤ ـ أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، كقوله تعالى: ﴿وطلح منضود﴾[2] و: «وطلع».

٥ ـ أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموتِ بالحقّ﴾[3] مع: «وجاءت سكرة الحق بالموت».

٦ ـ أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها، ولا يزيل صورتها نحو قوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف نُنْشزها﴾[4]، و: «نُنْشرها».

٧ ـ أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله تعالى: ﴿وما عملته أيديهم﴾[5] مع: «وما عملتْ أيديهم»[6].

وقريب منه ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي (توفي ٤٥٤ هـ) في حصر الاختلافات في سبعة أوجه هي:

١ ـ اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، أو تذكير وتأنيث.

٢ ـ اختلاف تصريف الأفعال، من ماض ومضارع وأمر.

٣ ـ اختلاف وجوه الإعراب.

٤ ـ الاختلاف بالنقص والزيادة.

٥ ـ الاختلاف بالتقديم والتأخير.

---

(١) القارعة ٥. وانظر معجم القراءات ٨/٢٢١.

(٢) الواقعة ٢٩. وانظر معجم القراءات ٧/٦٦.

(٣) ق ١٩. وانظر معجم القراءات ٦/٢٣٤.

(٤) البقرة ٢٥٩. وانظر معجم القراءات ١/٢٠٠.

(٥) يس ٣٥. وانظر معجم القراءات ٥/٢٠٧.

(٦) انظر النشر ١/٢٧، ولطائف الإشارات ١/٣٨، ٣٩، ومقدمة معجم القراءات ١/٦٨، وتاريخ القرآن لعبدالصبور/ ٣٤.

٦ ـ الاختلاف بالإبدال، والقلب من حرف لآخر، ومن كلمة لأخرى.
٧ ـ اختلاف اللغات في مثل الفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإدغام، والإظهار، ونحو ذلك[١].

ومن هذا الرأي كذلك ابن الجزري (توفي ٨٣٣ هـ) الذي ذكر في كتابه النشر أنه ـ بعد تأمل وإمعان نظر لنيف وثلاثين سنة، وتتبع للقراءات الصحيحة والشاذة ـ استطاع أن يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وهي:

١ ـ الاختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة (البُخْل/ البَخَل/ البُخُل/ البَخْل)[٢].
٢ ـ الاختلاف في الحروف بتغير في المعنى فقط (وادّكر بعد أُمَّةٍ/ أَمَهٍ)[٣].
٣ ـ الاختلاف في الحروف بتغير في المعنى لا الصورة (تَبْلو/ تتلو)[٤].
٤ ـ الاختلاف في الحروف بتغير الصورة لا المعنى (بَسْطة/ بصطة)[٥].
٥ ـ الاختلاف في الحروف بتغير الصورة والمعنى معاً (أشد منهم/ منكم)[٦].
٦ ـ الاختلاف في التقديم والتأخير (فَيَقْتلون ويُقْتلون/ فَيُقْتلون ويَقْتلون)[٧].

---

(١) لطائف الإشارات ١/٤١، ٤٢، ومناهل العرفان ١/١٤٨ وما بعدها، ومقدمة معجم القراءات ١/٧١.
(٢) النساء ٣٧، وانظر معجم القراءات ٢/١٣٢.
(٣) يوسف ٤٥، وانظر معجم القراءات ٣/١٧٣.
(٤) يونس ٣٠، وانظر معجم القراءات ٣/٧٢.
(٥) البقرة ٢٤٧، وانظر معجم القراءات ١/١٩١.
(٦) غافر ٢١، وانظر معجم القراءات ٦/٤٠.
(٧) التوبة ١١١، وانظر معجم القراءات ٣/٤٦.

٧ ـ الاختلاف في الزيادة والنقصان (وما خلق الذكر والأنثى/ والذكر والأنثى) [١].

ثانياً: رأى كل من أبي عبيدة (توفي ٢٠٩ هـ)، وأبي حاتم السجستاني [٢] (توفي ٢٥٥ هـ) والطبري [٣] وغيرهم أن المراد بالأحرف السبعة اختلاف اللغات (اللهجات ـ الألسن) باختلاف القبائل. ولم يتفق أصحاب هذا الرأي على تحديد القبائل السبع:

أ ـ فقيل: قريش ـ هذيل ـ تميم ـ الأزد ـ ربيعة ـ هوازن ـ سعد بن بكر [٤].

ب ـ وقيل: قريش ـ هذيل ـ سعد بن بكر ـ ثقيف ـ خزاعة ـ أسد وضبة وألفافها ـ تميم وقيس ومن انضاف إليهم [٥].

جـ ـ وقيل: قريش ـ كنانة ـ أسد بن خزيمة ـ هذيل ـ تميم ـ (أو تيم الرباب) ضبة ـ قيس [٦].

د ـ وقيل: خمسة منها لعجز هوازن، واثنان لقريش وخزاعة [٧].

ثالثا: هي سبعة من المعاني المتفقة يعبر عنها بالألفاظ المختلفة مثل: (هَلُمّ، وأقبل، وتعال ـ عَجِّلْ، وأسرعْ ـ أَنْظِرْ، وأَخِّرْ، وأَمْهِلْ ـ اِمْضِ، وأَسْرِ..). واختار هذا الرأي الزنجاني مستدلا بما روي عن أنس أنه قرأ:

---

(١) الليل ٣، وانظر النشر ١/٢٦، ومعجم القراءات ٨/١٦٨.
(٢) لطائف الإشارات ١/٣٣.
(٣) تفسير الطبري ١/٤٨.
(٤) لطائف الإشارات ١/٣٣، والبرهان ١/٢١٧.
(٥) البرهان ١/٢١٩.
(٦) البرهان ١/٢١٩، والإتقان ١/٤٧، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٨٢.
(٧) الطبري ١/٦٦، ٦٧، والبرهان ١/٢٨٣. وانظر كذلك الإتقان ١/٤٩.

«إنَّ ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قيلًا»، وحين قيل له: إنما هي: «وأقوم قيلا»[(١)]، قال: أَقْوَمُ، وأَصْوَبُ، وأَهْدَى: واحد[(٢)].

رابعاً: هي سبعة أصناف من الكلام، أو سبعة أوجه من المعاني، وهي: الزجر، والأمر، والحلال، والحرام، والمُحْكَم، والمتشابه، والأمثال[(٣)].

خامساً: هي لغات سبع غير عربية جاءت في القرآن، لكنها اتفقت في لفظها ومعناها في العربية، وفي اللغة الأعجمية[(٤)].

وكما اختلف العلماء في تفسير المراد بالأحرف، اختلفوا في المراد بالسبعة، فقيل قصد بالسبعة التحديد، وقيل إن العدد لا مفهوم له، وإنما أريد به مطلق الكثرة.

وأقرب الآراء إلى القبول ذلك الذي يطلق الأحرف من العدد، ولا يقيدها بسبعة[(٥)]، ويفسرها بأوجه الأداء، أو اختلاف الألفاظ، أو أي استعمال ناشيء عن تنوع اللهجات العربية وتعددها، وذلك للأسباب الآتية:

---

(١) المزمل ٦، وانظر معجم القراءات ٢٥٣/٨.

(٢) البرهان ٢٢٠/١، والإتقان ٤٦/١، ومقدمة معجم القراءات ٧٠/١.

(٣) البرهان ٢١٦/١، ولطائف الإشارات ٤٣/١. وهو مأخوذ من حديث ابن مسعود عن النبي: كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر وآمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال. وقد ردّ الحديث جماعة من أهل النظر، وقال ابن عبدالبر: هو حديث لا يثبت (انظر لطائف الإشارات ٤٣/١، ٤٤).

(٤) حكى ذلك صاحب المباني في مقدمته. وانظر: التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٨١.

(٥) قال السيوطي: ليس المراد السبعة الحقيقية، وإنما المراد التسهيل والتيسير والسعة. ولفظ السبعة يطلق ويراد به الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون ويراد به الكثرة في العشرات والسبعمائة ويراد به الكثرة في المئات (الإتقان ٤٥/١).

١ ـ أن القبائل العربية الواردة لغاتها في القرآن الكريم لا يصح تقييدها بعدد معين وقد بلغت في كتاب أبي عبيد «لغات القبائل الواردة في القرآن» بضعا وثلاثين[1].

٢ ـ أن الاختلاف بين الصحابة الذي رفع إلى الرسول ﷺ كان اختلافا نطقياً لفظياً، يتعلق بالتلاوة لا بالمعاني، ولا بالتحليل أو التحريم، ولا بالوعد أو الوعيد، ولا ما أشبه ذلك. إذ لو حدث خلاف في ذلك كان من المستحيل أن يصوّبهم الرسول جميعاً؛ لأن هذا يعني أن يكون الله قد أمر بفعل شيء بعينه في تلاوة ونهى عن فعله في تلاوة أخرى.[2].

٣ ـ أن الحكمة من تعديد الأحرف التوسعة، وهذه تظهر في جانب الأداء والنطق واستخدام الكلمات أكثر مما تظهر في غيرها. ولذا يقول الزركشي: «إذ لو كُلّف كل فريق منهم ترك لغته والعدول عن عادة نشأوا عليها من الإمالة والهمز والتليين والمد وغيره لشق عليهم»[3]. ويقول ابن قتيبة: «فالهذلي يقرأ (عَتَّى حين) يريد: حتى حين، لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ: (تِعلمون)، و(تِعلم)، والتميميّ يهمز، والقرشيّ لا يهمز، والآخر يقول: (وإذا قيل لهم)، و: (غيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر، و: (هذه بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم.. وهذا ما لا يطوع به كل لسان»[4]. ويقول

---

(١) وأوصلها بعضهم إلى الخمسين (الإتقان/ ١/ ١٣٥).

(٢) الطبري ١/ ٤٨، والبرهان ١/ ٢١٧، والإتقان ١/ ٤٨، وقضايا قرآنية/ ٢٢١، ودراسات قرآنية/ ١١٩.

(٣) الإتقان ١/ ٢٢٧.

(٤) تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ٣٤ عن تأويل مشكل القرآن/ ٢٨ ـ ٣٠، وانظر مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ١٤٢.

ابن الجزري إن النبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها، عربيها وعجميها. وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر. بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتعليم والعلاج، لاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً.. فلو كلفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع[1].

٣ ـ بين الأحرف والقراءات:

لم يكن هناك فرق في عصر الرسالة بين كلمة «حرف»، وكلمة «قراءة»، فقد كان يقصد بالحرف اللغة أو اللهجة التي سمح الرسول ﷺ بأن يقرأ بها. وهذا الحرف يصبح قراءة بمجرد هذا السماح، أو النقل عن الرسول. ولذا ورد اللفظان بالتبادل في كثير من أحاديث الأحرف السبعة، دون لمح أي فرق بينهما. ومن ذلك:

* «فقام كل رجل منا وهو لا يقرأ على قراءة صاحبه».
* «فقلنا: إنا اختلفنا في القراءة».
* «أقرأنيها زيد، وأقرأنيها أبيّ بن كعب فاختلفت قراءتهم».
* «فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله.. فقرأ عليه القراءة.. ثم قال رسول الله ﷺ: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»[2].

---

(١) النشر ١/٢٢.

(٢) تفسير الطبري ١/٢٣ ـ ٢٥.

ولكن بعد العرضة الأخيرة للقرآن، واستقرار نصه على الصورة الأخيرة بعد اكتمال نزوله، وعدم تعرّضه للنسخ بعد ذلك ثبت على حرف واحد، وهوالحرف الذي سجل به النص القرآني[1] في صورته النهائية. ويقال إن زيد بن ثابت كان شاهداً العرضة الأخيرة التي بيّن فيها ما نسخ وما بقي، وإنه كتبها للرسول ﷺ وقرأها عليه، وكان يُقرىء الناس بها حتى مات[2]. ولذا اعتمد أبو بكر زيداً لجمع القرآن في صحف استحقت اسم «مصحف» بعد أن وضعت بين دفتين[3]. ثم انتقلت إلى عمر بعد وفاة أبي بكر، وإلى حفصة بعد وفاة عمر[4]، وكانت هي الأساس لجمع عثمان الثاني للقرآن على حرف واحد هو حرف قريش بمشاركة زيد كذلك[5].

ثم جرى المترجمون لسير القراء - في مؤلفاتهم - على أن يميزوا في ترجمة القارىء بين أدائه وروايته، فيسمون الأول قراءة، والثاني حرفاً، وقد يجتمع في الشخص الواحد القراءة ورواية الحروف، كما كان الحال بالنسبة لكثير من الصحابة والتابعين، وعدد من مشاهير القراء، مثل حمزة وخلف والكسائي ويعقوب.

واقترن بهذا الاستخدام استخدام آخر، فكان القارىء إذا اقتصر على القراءة العامة لا يوصف بشيء آخر، لكن إذا أدخل في قراءته عنصراً مخالفاً

---

(١) نحيل إلى ما سبق أن ذكرناه من أن توسعة الأحرف السبعة كانت في حدود القراءة لا التسجيل، وأن كتابة الوحي كانت هي الفيصل الذي حفظ للقرآن وحدة الصورة.

(٢) البرهان ١/٢٣٧، والإتقان ١/٥٠.

(٣) جاء في البرهان (١/٢٨٢): لما جمع أبو بكر القرآن قال سمّوه، فاقترح ابن مسعود له أن يسمى «المُصْحَف». وقيل إن سالم بن معقل (توفي ١٢هـ) كان صاحب هذا الاقتراح (المصحف الشريف لمرزوق/ ١١).

(٤) البرهان ١/٢٣٤، والإتقان ١/٥٧.

(٥) راجع ما سبق أن ذكرناه تحت عنوان: «رسم المصحف العثماني والأحرف السبعة».

كان ذلك منه حرفاً خارجاً عن القراءة العامة، وهي آنذاك قراءة قريش ولسانها، كما كان الحال بالنسبة لابن مسعود الذي كان يقرىء الناس (عَتًى حين) بدلاً من (حتى حين)[1].

وإذا كان الرسول ﷺ قد حصر الأحرف في سبعة، فإن القراءات التي نقلت إلينا ليست محصورة في عدد معين، وإن كان العلماء قد قسموها إلى مراتب حسب ما تحققه من شروط الصحة، كما سنوضح فيما بعد.

والذي يهمنا الآن أن نوضحه هو أن ما أطلق عليه ابن مجاهد (توفي ٣٢٤هـ) «القراءات السبع»[2] ليس هو الأحرف السبعة، وإنما هو اختيار خاص لابن مجاهد وقف به عند العدد سبعة[3]. وقد وضح ابن الجزري الفرق بين المفهومين فقال: «لا يجوز أن يكون المراد من الأحرف السبعة هؤلاء السبعة القراء المشهورين، وإن كان يظنه بعض، لأن هؤلاء السبعة لم يكونوا خُلقوا ولا وُجدوا»[4]. ويقول مكي بن أبي طالب: «وأما من ظن أن قراءة هؤلاء السبعة هي الأحرف السبعة فقد غلط غلطاً عظيماً. ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم، ووافق خط المصحف ألا يكون قرآناً، وهو غلط عظيم. فإن الذين صنفوا

---

(١) ملخص عن تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) انظر مبحث «تصنيف القراءات وأشهر القراء ورواتهم»، ص ٧٠ وما بعدها.

(٣) ذكر الزركشي سببين لاقتصار ابن مجاهد على سبعة قراء هما:

١ ــ أن عدد المصاحف التي وجهها عثمان للأمصار كانت سبعة، فجعل عدد القراء على عدد المصاحف.

٢ ــ أنه جعل عددهم على عدد الحروف التي نزل بها القرآن وهي سبعة (البرهان ١/ ٣٢٩).

(٤) النشر ١/ ٢٤.

القراءات من الأئمة المتقدمين كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني وأبي جعفر الطبري.. قد ذكروا أضعاف هؤلاء»[1].

وقد وجه كثير من العلماء اللوم لابن مجاهد لاقتصاره من بين القراء على سبعة، وإيقاعه الناس في الوهم والتلبيس، ولذا قال السيوطي: «مُسَبِّع السبعة فعل ما لا ينبغي، وجعل الأمر مشكلا على العامة باختياره. فظن كل من قلّ نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الحديث. وليته إذ اختار نقص عن السبعة أو زاد عليها ليزيل الشبهة»[2].

---

(١) تاريخ القرآن للكردي/ ٨٦، ومقدمة معجم القراءات ١/ ٧٥.
(٢) الإتقان ١/ ٨٠.

(الفصل الثالث)
البحث في القراءات القرآنية

١ ــ القراءات القرآنية: نشأتها والتأليف فيها:

يعود تعدد القراءات القرآنية، أو الأوجه المختلفة التي سمح النبي ﷺ بقراءة النص المصحفي بها إلى حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف». وقد سبق أن ناقشنا الحديث، وبينا المراد منه.

ولم تسجل هذه الأحرف أو القراءات في كتاب أو تدون في صحف أيام الرسول؛ لأن كُتّاب الوحي على عهد النبي لم يكتبوا القرآن بالأحرف السبعة التي تمثلها لهجات العرب أو بعضها، والتزموا باللغة التي كان رسول الله ﷺ يملي عليهم بها. أما الأحرف السبعة فقد ظهرت في قراءة القرآن لا في كتابته كما سبق أن ذكرنا(١).

وحين تفرق الصحابة في الأمصار الإسلامية كان كل منهم يقرىء الناس بحرفه(٢).

---

(١) انظر ما سبق تحت عنوان «كتابة القرآن في عهد الرسول»، ص ١٨.

(٢) كان بعض الصحابة يتوجه إلى هذه الأمصار بتعليمات من الخليفة، فقد أرسل عمر مثلاً إلى الشام معاذا، وأبا الدرداء، وعبادة ليعلموا الناس القرآن (انظر مقدمة معجم القراءات ١٣/١).

وصحب ذلك تسجيل كتابي فردي لكل حرف يقرأ به الصحابي أو المتلقي عنه على حدة. وقد كان يحدث أن يجتمع أكثر من صحابي في مكان واحد، فتتعدد أوجه القراءة في هذا المكان، مما سبب شقاقاً بين أتباع كل حرف وحرف، وجعل كلاً منهم يخطِّئ الآخر[1].

وامتدت الفترة بين وفاة الرسول وكتابة عثمان للمصحف الإمام بضع عشرة سنة سجل فيها كثير من القراء وتابعيهم أحرفهم، أو الأوجه التي كانوا يقرءون بها دون تقيد «بنص المصحف» ذي الحرف الواحد. وهذا هو التطور الخطير الذي حدث لنص المصحف بعد وفاة الرسول، وامتد زمن أبي بكر وعمر، وجزءاً من حكم عثمان.

وحين ثارت الفتن بين المسلمين في أوائل حكم عثمان بسبب اختلافهم في القراءة، وكفَّر بعضهم بعضاً انتزع عثمان الفتنة من جذورها بردّه المسلمين جميعاً إلى اللفظ المأذون في كتابته وهو «نص المصحف» المكتوب في عهد النبي، وألزمهم أن يتقيدوا بما يسمح به رسمه من أوجه القراءات، وقام بجمع سائر الصحف والمصاحف وأحرقها.

وبذلك أخذت القراءات في عهد عثمان، وبعد كتابته للمصحف الإمام شكلاً جديداً يتمثل فيما يأتي:

١ ـ تقليص حجمها، وتقييد أوجهها بما يسمح به رسم المصحف فقط، وترك ما عدا ذلك.

٢ ـ انتقالها مرة ثانية إلى ما كانت عليه في عهد الرسول أي إلى وضع «التلاوة» لا وضع «التسجيل والتدوين».

---

(١) وقد كان هذا أهم أسباب إقدام عثمان على جمع الناس على مصحف واحد.

واستمـر الحال عـلى ذلـك مـدة طـويلة استقـرت فيهـا الأمـور، وزال التعصب بين المسلمين، ولم يعد هناك خشية من تسجيل القراءات مرة ثـانية، فتم تسجيلها، ولكن بصورة علمية يتوافر عليها العلماء المتخصصون، ويزنونها بميزان النقد الدقيق.

ومن هنا دخلت القراءات مرة ثانيـة عصر التدوين والتسجيـل، وكان ذلك منذ منتصف القرن الثاني الهجري، أي بعد مـرور ما يـزيد عـلى قرن من جمـع الناس عـلى المصحف الإمام، وبعـد أن كثر الاختـلاف فيما يحتمله رسم المصحف، وقـرأ أهل البـدع والأهواء بمـا لا يُحِلّ أحـد تلاوتـه وفـاقـاً لبدعتهم[1].

ويصور القَسْطِلاَّني حاجة المسلمـين إلى تدوين القـراءات وتصفيتها في قوله: «ولما كان الصـدر الأول لا يدونـون علومهم في دفاتـر ولا كتب، ثقة منهم في ضبـطهم، واتكالاً عـلى حفظهم، وبـدا في كثير من ألفـاظ القـرآن التفريط، وفشا في جملة من طرق الروايات التخليط ـ قيض الله تعالى لكتابه المجيد.. من دوّن وجوه قـراءاته وضبط طـرق رواياتـه، فاجتهـدوا في ذلك حق الاجتهاد، وبذلوا النصح في ذلك لله ورسوله والعباد.. فأخذوا في جمع ذلك وتدوينه، فاستفرغوا فيه وسعهم، وبذلوا جهدهم»[2].

وكـان أول من ألف في القراءات ـ كـما ذكر ابن الجـزري ـ هارون بن موسى، ونص عبارته: «قال أبـو حاتم السجستـاني: أول من سمع بـالبصرة

---

(١) كمن قرأ من المعتزلة: «وكلم اللهَ موسى تكليما» بنصب لفظ الجلالة على المفعولية. ومن قـرأ من الرافضة: «وما كنتُ متخذ المضلَّيْن عضدا» بتثنية اللفظ، يعنـون أبا بكـر وعمر. (انـظر لطائف الإشارات ١/٦٦).

(٢) لطائف الإشارات ١/٨٥. وانظر النشر ١/٩.

وجوه القراءات وألَّفها، وتتبع الشاذ منها فبحث عن إسناده: هارون بن موسى الأعور، وكان من القراء»[1]، ومات قبل المائتين.

ثم تلاه جماعة من علماء القرن الثالث على رأسهم:

١ ـ أبو عُبَيْد القاسم بن سلاّم (توفي ٢٢٤هـ)، وجعل القراء خمسة وعشرين قارئاً مع السبعة.

٢ ـ أحمد بن جبير الكوفي نزيل أنطاكية (توفي ٢٥٨هـ). وقد جمع كتاباً في القراءات الخمس التي تمثل الأمصار الخمسة (مكة والمدينة، والبصرة، والكوفة، والشام) أخذ من كل مصر واحداً.

٣ ـ القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي (توفي ٢٨٢هـ) الذي ألف كتاباً جمع فيه قراءات عشرين إماماً، منهم السبعة[2].

وتتابعت المؤلفات بعد ذلك، فكان مما ظهر منها:

أ ـ لمؤلفين توفوا في القرن الرابع:

١ ـ الجامع في القراءات لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي ٣١٠هـ)، جمع فيه نيفاً وعشرين قراءة.

٢ ـ كتاب القراءات لأبي بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني (توفي ٣٢٤هـ). وقد ضم الأحد عشر، وأدخل معهم أبا جعفر.

---

(١) غاية النهاية ٢/٣٤٨، والمرشد الوجيز/١٨١.

(٢) لطائف الإشارات ١/٨٥، وتاريخ القرآن لعبد الصبور/٢١٧، والنشر ١/٣٤.

٣ ـ قراءات السبعة لأبي بكـر أحمد بن مـوسى بن العباس بن مجـاهد (تـوفي ٣٢٤هـ) وكان أول من اقتصر على القراءات السبع المشهورة.

٤ ـ كتاب في القراءات لأبي بكر أحمد بن نصر الشَّذَائي (توفي ٣٧٠هـ).

٥ ـ الحجة في القراءات السبع لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالَوَيْه (توفي ٣٧٠ هـ).

٦ ـ الحجة في القراءات السبع لأبي علي الفارسي (توفي ٣٧٧هـ).

٧ ـ الشامل والغاية في قراءات العشرة لأبي بكر أحمـد بن الحسين بن مِهْران الأصبهاني (توفي ٣٨١هـ).

٨ ـ التـذكرة في القـرءات الثماني لأبي الحسن طـاهـر بن الإمـام الأستـاذ أبي الطيب عبدالمنعم بن عبـدالله بن غَلْبون الحلبي نـزيل مصر (تـوفي ٣٨٩ أو ٣٩٩هـ).

٩ ـ حجة القراءات لأبي زُرعة (من رجال المائة الرابعة)[١].

ب ـ لمؤلفين توفوا في القرن الخامس:

معظمها ركز على القراءات السبع التي اختارها ابن مجـاهد، ومنهـا ما زاد عليها ثلاث قراءات أو أربعاً، ومن هذه المؤلَفات:

١ ـ المنتهى في القـراءات العشر لأبي الفضل محمـد بن عبدالكـريم الخزاعي (توفي ٤٠٨ هـ).

---

(١) معجم مصنفات القرآن لعلي شواخ ٤/١١ ومَـا بعدهـا، ولطائف الإشـارات ١/٨٦، ٨٧، ومقدمة معجم القراءات ١/١١٩، وتاريخ القرآن لعبدالصبور/٢١٧، والنشر ١/٣٤.

٢ ــ الكشف عن وجوه القراءات السبع - والتبصرة، كلاهما لمكي بن أبي طالب القيسي (توفي ٤٣٧هـ).

٣ ــ التيسير (في السبع) للحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (توفي ٤٤٤هـ).

٤ ــ جامع البيان (في السبع) للمؤلف السابق.

٥ ــ العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد الأنصاري الأندلسي (توفي ٤٥٥هـ).

٦ ــ التلخيص في القراءات الثماني لأبي معشر عبدالكريم بن عبدالصمد القطان الطبري الشافعي شيخ أهل مكة (توفي ٤٧٨هـ)(١).

جـ ــ لمؤلفين توفوا في القرن السادس:

١ ــ إرشاد المبتدي، وتذكرة المنتهي في القراءات العشر لمحمد بن الحسن القلانسي (توفي ٥٢١هـ).

٢ ــ الإقناع في القراءات السبع لأحمد بن علي بن أحمد بن خلف بن الباذِش (توفي ٥٤٠هـ).

٣ ــ الكفاية في القراءات الست لأبي محمد عبدالله بن علي المعروف بسبط الخيّاط (توفي ٥٤١هـ).

٤ ــ المبهج في القراءات الثماني وقراءة ابن مُحَيْصِن، والأعمش... للمؤلف السابق.

---

(١) المراجع السابقة والصفحات.

٥ ـ المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم المبارك بن الحسن الشهرَزُورِي، (توفي ٥٥٠هـ).

٦ ـ حِرْز الأماني، في القراءات السبع (الشاطبية) لأبي القاسم بن فِيرُّه الرعيني الأندلسي الشاطبي (توفي ٥٩٠هـ)[1].

د ـ مؤلفات أخرى:

وتوالت المؤلفات ـ بعد ذلك ـ وكان من أشهرها:

١ ـ شروح الشاطبية للسَّخاوي، وأبي شامة، وأبي عبدالله محمد بن الحسن الفاسي، وأبي العباس بن جِبَارَة المقدسي، وأبي إسحاق إبراهيم بن عمر الجَعْبَرِيّ، وابن أم قاسم المرادي البغدادي، وأبي العباس أحمد بن يوسف الحلبي المعروف بالسمين.

٢ ـ النشر في القراءات العشر لشمس الدين محمد بن الجزري (توفي ٨٣٣هـ) ـ مطبوع.

٣ ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لعمر بن القاسم بن محمد بن علي الشهير بالنشار (كان حيا ٨٩٨هـ) ـ مخطوط.

٤ ـ إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر لأحمد بن محمد البنا الدمياطي (توفي ١١١٧هـ) ـ مطبوع.

٥ ـ غيث النفع في القراءات السبع لعلي النوري الصفاقسي (توفي ١١١٧هـ) ـ مطبوع[2].

(١، ٢) معجم مصنفات القرآن ٤/ ١١ وما بعدها، ولطائف الإشارات ١/ ٨٧، وتاريخ القرآن لعبدالصبور/٢١٨ ومقدمة معجم القراءات ١/ ١٢٠، ١٢١، ومصادر معجم القراءات صفحة ع.

ومن العلماء من قصر تأليفه على **القراءات الشاذة وحدها**. وقد بدأ ذلك في وقت مبكر لم يتجاوز القرن الثالث الهجري، **ومن أشهر هذه المؤلفات حتى القرن الرابع**:

١ ـ كتاب الشواذّ لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (توفي ٢٩١هـ).

٢ ـ كتاب الشواذ لابن مجاهد (توفي ٣٢٤هـ).

٣ ـ البديع في شواذ القراءات لابن خالويه (توفي ٣٧٠هـ).

٤ ـ المحتسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (توفي ٣٩٢هـ).

وتتابعت المؤلفات بعد ذلك مثل:

١ ـ المحتوى في القراءات الشواذ للداني (توفي ٤٤٤هـ).
٢ ـ الكامل في القراءات لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهُذَلي (توفي ٤٦٥هـ).
٣ ـ إعراب القراءات الشاذة لأبي البقاء العُكْبَرِي (توفي ٦١٦هـ).
٤ ـ شواذ القراءات واختلاف المصاحف لرضى الدين أبي عبدالله محمد بن أبي نصر بن عبدالله الكرماني (أواخر القرن السابع)[1].

٢ ـ تصنيف القراءات وأشهر القراء ورواتهم:

كان هناك عدد كبير من الصحابة يتجاوزون العشرات، عرفوا في عهد

---

(١) تاريخ القرآن لعبدالصبور/ ١٠ ـ ١٦ و٢١٨ وما بعدها، ومقدمة معجم القراءات ١٢٢/١، ١٢٣.

الرسول بقراءة القرآن أو حفظه أو جمعه. وشكل هؤلاء الطبقة الأولى من القراء، سواء منهم من عاشوا في مكة أو المدينة، أو من انتشروا في الأقطار الإسلامية يعلّمون المسلمين القرآن. وقد اشتهر من بينهم بالإقراء سبعة هم ـ كما ذكر السيوطي: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري[1]. واشتهر في كل بلد إسلامي قراءة الصحابي الذي علمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرءون بقراءة أبيّ بن كعب، وأهل الكوفة بقراءة عبدالله بن مسعود، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعري.. وهكذا[2].

ولكن بدأ تشكيل أول فريق رسمي من القراء بأولئك الذي وجههم عثمان بن عفان إلى الأمصار الإسلامية مع المصاحف. فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني، وعبدالله بن السائب مقرىء المكي، والمغيرة بن شهاب مقرىء الشامي، وأبو عبدالرحمن السُّلَمِيّ مقرىء الكوفي، وعامر بن عبدالقيس مقرىء البصري[3]. ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم.. ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم، ويؤخذ عنهم. وكان ممن اشتهروا بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية، مع ارتباط كل منهم بأحد المصاحف العثمانية:[4]

---

(١) الإتقان ١/٧٢.
(٢) مقدمة التحقيق لكتاب المصاحف/٦، والتعبير الفني في القرآن/ ٣٩.
(٣) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/٩٩، ومناهل العرفان ١/٣٩٦، ٣٩٧.
(٤) وردت القائمة في لطائف الإشارات ١/٦٦، ٦٧، ومناهل العرفان ١/٤٠٨، ٤٠٩ مع إضافات يسيرة من بعض المراجع. وانظر مناهل العرفان ١/٣٩٧.

أ ـ بالمدينة :

١ ـ أبو جعفر يزيد بن القَعْقاع المخزومي الذي توفي عام ١٣٠هـ(١).

٢ ـ شيبة بن نِصاح، الذي توفي عام ١٣٠هـ(٢).

٣ ـ نافع بن عبدالرحمن بن أبي نُعيم، إمام دار الهجرة في القراءات. وقد ولد عام ٧٠هـ وتوفي عام ١٦٩هـ. وقرأ على سبعين إماماً من التابعين منهم أبو جعفر، والأعرج وشيبة بن نصاح(٣). **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

ب ـ بمكة :

١ ـ الأعرج، حُميد بن قيس، توفي عام ١٣٠هـ(٤).

٢ ـ ابن مُحَيصن المكي، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن. قرأ على مجاهد ودِرباس (مولى عبدالله بن عباس)، وتوفي عام ١٢٣هـ(٥).

٣ ـ عبدالله بن كَثِير شيخ مكة وإمامها في القراءة. ولد عام ٤٥ هـ وتوفي عام ١٢٠ هـ نقل قراءته أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والشافعي وغيرهم(٦). **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

---

(١) لطائف الإشارات ١/٩٧.
(٢) مداخل المؤلفين/٢٩٠.
(٣) لطائف الإشارات ١/٩٣، ٩٤.
(٤) غاية النهاية ١/٢٦٥.
(٥) لطائف الإشارات ١/٩٨.
(٦) السابق ١/٩٤، ٩٥.

جـ ــ بالكوفــة:

١ ــ يحيى بن وثّاب الأسدي الكوفي. قرأ عـلى علقمة بن قيس وزر بن حُبيش وغيرهما، وتوفي عام ١٠٣هـ[١].

٢ ــ الأعمش، أبو محمد سليمان بن مِهران. قرأ على يحيى بن وثاب، وتوفي عام ١٤٨هـ[٢].

٣ ــ خلف بن هشام البزار، ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٢٩هـ[٣].

٤ ــ عاصم بن أبي النَّجود الذي انتهت إليه رياسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبدالرحمن السلمي. وقد توفي عام ١٢٧ أو ١٢٨هـ[٤]. **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

٥ ــ حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، من تابعي التابعين. وإليه انتهت القراءة بعد عاصم. وهو شيخ الكسائي، وتلميذ الأعمش وطلحة بن مصرّف توفي عام ١٥٤، أو ١٥٦، أو ١٥٨ هـ[٥]. **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

٦ ــ الكسائي، علي بن حمزة. وهو من تابعي التابعين. قرأ على حمزة بن حبيب، وعيسى بن عمر الهمداني. وقرأ الأخير بدوره على عاصم، وطلحة، والأعمش، وتوفي عام ١٨٩ هـ[٦]. **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

---

(١) مداخل المؤلفين/ ٦١٢.
(٢) لطائف الإشارات ١/٩٩، ١٠٠.
(٣) السابق ١/٩٨.
(٤) السابق ١/٩٦.
(٥) السابق ١/٩٦، ٩٧.
(٦) لطائف الإشارات ١/٩٧.

د ـ بالشام:

١ ـ أبو يحيى عطية بن قيس الكِلاَبي الحمصي الدمشقي، من التابعين. قارىء دمشق بعد ابن عامر، ولد عام ٧ هـ وتوفي عام ١٢١هـ[١].

٢ ـ أبو عمر يحيى بن الحارث بن عمرو الغساني الذِّمَاري الدمشقي، من التابعين توفي عام ١٤٥ هـ[٢].

٣ ـ شُريح بن يزيد الحضرمي، توفي عام ٢٠٣ هـ[٣].

٤ ـ عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم، من التابعين. ولد عام ٢١ أو ٢٨ هـ وتوفي عام ١١٨ هـ[٤]. **وهو أحد القراء السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد.**

هـ ـ بالبصرة:

١ ـ أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري. ولد عام ٢١ هـ وتوفي ١١٠هـ .

٢ ـ عبدالله بن أبي اسحاق. أخذ القراءة عن يحيى بن يَعْمُر ونصر بن عاصم، وتوفي عام ١١٧ هـ[٦].

---

(١) غاية النهاية ١/٥١٣، ٥١٤.
(٢) السابق ٢/٣٦٧، ٣٦٨.
(٣) السابق ١/٣٢٥.
(٤) لطائف الإشارات ١/٩٥، ٠٦.
(٥) السابق ١/٩٨، ٩٩.
(٦) نشأة النحو/٦١.

٣ ـ عاصم بن أبي الصباح العجاجي الجحدري البصري. مات عام ١٢٨هـ(١).

٤ ـ اليزيدي، أبو محمد يحيى بن المبارك البصري. أمثل أصحاب أبي عمرو بن العلاء، وقام بعده بالقراءة، توفي عام ٢٠٢ هـ(٢).

٥ ـ يعقوب بن إسحاق بن عبدالله بن إسحاق الحضرمي. توفي عام ٢٠٥هـ(٣).

٦ ـ أبو عمرو بن العلاء. قرأ على أبي جعفر، وشيبة، وابن كثير، والحسن البصري، وعبدالله بن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعاصم بن أبي النَّجود، وتوفي عام ١٥٤ أو ١٥٧هـ(٤). **وهو أحد القراء السبعة** الذين اختارهم ابن مجاهد.

وتكاثر القراء أثناء ذلك وبعده، وكان فيهم «المتقن وغيره. فلذا كثر الاختلاف، وعسر الضبط، وشق الائتلاف، وظهر التخليط، وانتشر التفريط، واشتبه متواتر القراءات بفاذّها، ومشهورها بشاذّها. فمن ثم وضع الأئمة لذلك ميزاناً يرجع إليه، ومعياراً يعوّل عليه»(٥). ولذا حين بدأ التأليف في القراءات ـ في منتصف القرن الثاني الهجري ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لم يكن تأليفاً عشوائياً أو تجميعياً، وإنما كان تأليفاً ناقداً فاحصاً متتبعاً لأسانيد القراءة ورواتها.

---

(١) غاية النهاية ١/٣٤٩.
(٢) لطائف الإشارات ١/٩٨، ٩٩.
(٣) السابق ١/٩٧، ٩٨.
(٤) لطائف الإشارات ١/٩٥.
(٥) السابق ١/٦٧، والنشر ١/٩.

وكـان معيار تصنيف القـراءات في تلك الحقبة هـو من نـاحيـة درجـة إسنـادها، فـما كان متـواتر الإسنـاد وصف بالصحـة، وما كـان رواية آحـاد وصف بالشذوذ، وما خرج عن هذا وذاك ترك. ومن ناحية أخـرى تركيبهـا اللغوي والنحوي، فما صحت لغته وسلمت تراكيبه قبلوه، ومـا خالف لغـة العرب ردوه وتركوه(١).

وتبلورت هذه المقاييس أو المعايير ـ بعـد ذلك ـ عـلى يد ابن الجـزري (تـوفي ٨٣٣ هـ) الذي حـدد شروط القراءة الصحيحـة التي لا يجوز ردهـا، ولا يحل إنكارها، فيما يأتي:

١ ــ موافقة العربية ولو بوجه.
٢ ــ موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.
٣ ــ صحة سند القراءة.

وقـد فسر ابن الجزري قـوله في الضـابط الأول «ولو بـوجـه» قـائـلاً: «نريد به وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصـح أم فصيحاً، مجمعـاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقـاه الأئمة بالإسناد الصحيح»(٢).

وفسر الضابط الثاني بقوله: «ونعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً في بعضهـا دون بعض، كقـراءة ابن عـامـر (**قـالـوا اتخـذ الله ولـدا**) في البقـرة ١١٦ بغير واو، فـإن ذلك ثـابت في المصحف الشامي، وكقـراءة ابن كثـير (**جنات تجـري من تحتها الأنهار**) في بـراءة ١٠٠ بزيـادة (من)، فـإن ذلـك ثـابت في المصحف المكي.. فلو لم يكن ذلـك كـذلـك في شيء من

(١) تاريخ القرآن لعبد الصبور/ ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) النشر ١/ ١٠.

المصاحف العثمانية لكانت القراءة بذلك شاذة لمخالفتها الرسم المجمع عليه»[1].

ولكن ابن الجزري لا يكتفي في هذا الضابط بموافقة أحد المصاحف العثمانية ويزيد: «ولو احتمالاً» فماذا يعني بذلك؟ أجاب ابن الجزري قائلاً: «وقولنا بعد ذلك: ولو احتمالاً، نعني به ما يوافق الرسم ولو تقديراً»، ومثّل لما وافق تقديراً بكلمات مثل: السموات، والصلحت، واليل، والصلوة. كما مثل له بآية الفاتحة التي كتبت في جميع المصاحف بغير ألف ﴿ملك يوم الدين﴾، فقراءة الحذف: «ملك» تحتمله تحقيقاً، وقراءة الألف «مالك» تحتمله تقديراً[2].

أما ضابط صحة السند فقد اكتفى منه برواية القارىء العدل الضابط عن مثله، مع شهرة القراءة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له. ولم يشترط ابن الجزري في صحة السند تواتره، ونقد رأى من تشدد واشترط التواتر بقوله: «إن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من الرسم وغيره. إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآناً، سواء وافق الرسم أم خالفه»[3].

ومتى اختل في قراءة ركن من هذه الأركان الثلاثة قلت درجتها، أو رفضت. ويمكن ـ من شروط ابن الجزري ـ استخلاص الأنواع السبعة التالية من القراءات:

١ ـ المتواتر، وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم. وهو أعلى الدرجات. وغالب القراءات كذلك.

---

(١) السابق ١/١١.
(٢) النشر ١/١١، ١٢.
(٣) السابق ١/١٣، ولطائف الإشارات ١/٦٨ ـ ٧٠.

٢ ـ المشهور، وهو ما صح سنده، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم. ويقرأ به على ما ذكره ابن الجزري وغيره.

وقد كان التواتر يطلب تحصيله في الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقة متواترة بالقرآن. أما بعد وجود المصحف فقد اكتفى العلماء في الرواية بصحتها وشهرتها، متى وافقت رسم المصحف، ولغة العرب[١].

٣ ـ الآحاد، وهو ما صح سنده، وصح وجهه في العربية، ولكن لم يشتهر الاشتهار المذكور. ولا يقرأ به.

٤ ـ الشاذ، وهو مالم يصح سنده كقراءة ابن السميفع: «فاليوم ننحّيك ببدنك»[٢]، أو كان إسناده ضعيفاً كالقراءة المنسوبة إلى أبي حنيفة وهي: «**إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ**»[٣]. ولا يقرأ به.

٥ ـ الموضوع، كقراءات بعض المعتزلة أو الرافضة، وهذا كذب، ولا يعد قراءة[٤].

٦ ـ اللحن أو التصحيف، وهو خطأ من القارىء المبتدىء، أو سهو أو غلط ممن نقله، فيرفض ولا يعد قراءة[٥].

٧ ـ مازيد في قراءات بعض الصحابة كقراءة ابن عباس «يأخذ كل سفينة صالحة غصبا»[٦]. وقراءة عائشة وحفصة «حافظوا على الصلوات

---

(١) مناهل العرفان ١/٤٢١.
(٢) في قوله تعالى؛ ننجّيك.. (يونس ٩٢). وانظر معجم القراءات ٣/٩٢.
(٣) فاطر ٢٨.
(٤) انظر ما سبق في ص ٤٨، ٤٩، ٦٥.
(٥) انظر أمثلة في مبحث «تيسير الرسم العثماني وتحسينه». ص ٢٧ وما بعدها.
(٦) الكهف ٧٩. وانظر معجم القراءات ٤/٧.

والصلاة الوسطى صلاة العصر»[1]. فهذا لا يقرأ بـه،وينبغي حمله على التفسير. ويقبل على أنه خبر شرعي يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية[2].

ونتيجة تحكيم المعايير الثلاثة التي ذكرها ابن الجزري صنفت القراءات حسب درجة صحتها إلى مجموعات أربع تبدأ من الأعلى درجة وهي:

١ ـ القراءات السبع.
٢ ـ القراءات الثلاث المكملة للعشر.
٣ ـ القراءات الأربع المكملة للأربع عشرة.
٤ ـ القراءات الشاذة.

والإجماع منعقد على صحة القراءات السبع، إما على سبيل التواتر أو الاشتهار[3]، ولذا لا مجال للشك في قبولها.

ونقل عن معظم الأصوليين والفقهاء جواز القراءة بالثلاث الزائدة على السبع[4] حتى نفى بعضهم وجود أحد من المسلمين يحظر القراءة بها[5]. ووصف الشيخ تاج الدين السبكي القراءات العشر بأنها «متواترة معلومة من الدين بالضرورة»[6].

---

(١) البقرة ٢٣٨. وقد رويت بروايات كثيرة، انظرها في معجم القراءات ١/١٨٥.

(٢) مناهل العرفان ١/٤١٧، ٤٢٣ ـ ٤٢٤. وزاد بعضهم المردود، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة. وهذا النوع رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر (انظر مناهل العرفان ١/٤١٩).

(٣) لطائف الإشارات ١/٧٧، ومناهل العرفان ١/٤٣٣.

(٤) لطائف الإشارات ١/٧٥، ١٧٠.

(٥) السابق ١/٧٦. وانظر منجد المقرئين/٢٧.

(٦) السابق ١/٧٦، ومناهل العرفان ١/٤٣٣.

أما القراءات الأربع الزائدة على العشر فقد وصفوها بالشذوذ[1]. وهذا غريب لأنه يسلب أي حكمة من إفراد العلماء أصحابها بالذكر. كما أنه يتنافى مع وضع كثير من العلماء القراءَ الأربعة عشر في قائمة واحدة ووصفهم بأنهم «الأئمة القراء»، كما فعل القسطلاني في «لطائف الإشارات»[2].

ومع ذلك ينبغي أن نلفت نظر القارىء إلى الملاحظات الثلاث التالية:

١ ــ أن تواتر أو شهرة القراءات السبع لا يعني تواتر أو شهرة كل ما روي عن القراء السبعة. فلكل منهم قراءات لم تبلغ حدّ التواتر أو الشهرة ولذا عدت من الشاذ[3].

ويمكن فهم ذلك على أحد تفسيرين:

أ ــ أن يكون القارىء السبعي قد نقل القراءة أو حدّث بها فنسبت إليه، ولكنها لم تكن ضمن اختياراته في قراءته. وقد فرّق صاحب «غيث النفع» بين التحديث بالقراءة الذي يفيد ثبوتها، ولا يبيح القراءة بها، والقراءة بها التي تفيد ثبوتها، وإباحة القراءة بها[4].

ب ــ أن يكون الشاذ قد فقد شرط التواتر بسبب ضعف الرواية، أو

---

(١) لطائف الإشارات ١/٧٧، ١٧٠، ومقدمة معجم القراءات ١/٩٥. وقيل بتواتر بعضها، وقيل بصحتها (مناهل العرفان ١/٤٥٩).

(٢) ١/٩٣. وانظر نقل ابن الجزري (١/٣٧) جواز القراءة والإقراء بقراءة أبي جعفر وشيبة والأعمش وغيرهم.

(٣) تاريخ القرآن لعبد الصبور/١١. وقد أورد إحصائية بعدد ما نسب من شواذ في المحتسب لكل قارىء سبعي (ص ١٢).

(٤) غيث النفع/٣٥٤.

أن تكـون القراءة قـد رويت عن غير الـراويين اللذين اختـارهمـا ابن مجاهد لكل قارىء.

٢ ــ أن بعض العلماء كان يقيم اختياره للقراءة على معـايير أخـرى مثل قـوة وجه العربية، ومثل اجتماع العامة عليه (أهل المدينـة والكوفـة، أو أهل الحرمين، أو نافع وعاصم مثلاً)[١].

٣ ــ أن من العلماء من رفض مبـدأ المفـاضلة بـين القـراءات عـلى أسـاس تصنيف أصحابها إلى سبعة أو عشرة. . الخ، وأقـام مفاضلتـه على تقييم كل قراءة على حدة طبقا للمعايـير الثلاثـة السابق ذكـرها. ولهـذا يقول القسـطلاني «فإذا اجتمعت هـذه الثلاثـة في قراءة وجب قبـولها، وحـرم ردها، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. نص على ذلك الداني والمهدوي ومكي وأبوشامـة وغيرهم ممن يطول ذكره»[٢]. ويقـول ابن الجزري في النشر: «وقـد ذكر النـاس من الأئمـة في كتبهم أكثر من سبعـين ممن هو أعـلى مرتبـة وأجل قـدراً من هؤلاء السبعة»[٣].

وقد اطّرح جماعة من العلماء في كتبهم في القـراءات ذكر بعض هؤلاء السبعة فقد ترك أبو حـاتم وغيره: حمـزة والكسائي وابن عـامر، وزاد نحـو عشرين غيرهم. وزاد الطبري فوق السبعة نحو خمسة عشر رجلاً. وكذلك فعـل أبو عبيـد. وبعض المؤلفين في القـراءات يقدم يعقـوب الحضرمي (من القراء الثلاثة) شيخ حمزة. وبعضهم كان يفضل قراءة أبي جعفـر (من القراء

---

(١) البرهان (١/٣٣١، والإتقان ١/٨١.

(٢) اللطائف ١/٦٨، ٦٩، وهو نفسه كلام ابن الجزري ١/٩.

(٣) النشر ١/٣٧، وقد نقله عن مكي بن أبي طالب في الإبانة/٦.

الثلاثة) أو شيبة (خارج القراء الأربعة عشر). وبعضهم حصر القراء في خمسة أو في ثمانية[1].

وقد تضمنت القائمة التي سبق أن ذكرناها لقراء الأمصار قراء متنوعي الدرجة. ونزيد الأمر تفصيلاً فنذكر أشهر راويين لكل قارىء من القراء الأربعة عشر[2].

رواة القراء السبعة:

١ ــ راويا قراءة نافع:

أ ــ أبو موسى عيسى بن مِينا المدني الملقب بقالون (لجودة قراءته) توفي عام ٢٠٥ أو ٢٢٠ هـ.

ب ــ أبو سعيد عثمان بن سعيد الملقب بوَرْش (لشدة بياضه، أو لحسن قراءته). انفرد برياسة الإقراء في مصر، مع حسن صوت وجودة قراءة. توفي عام ١٩٧ هـ.

٢ ــ راويا قراءة ابن كثير:

أ ــ أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله البَزّي. توفي عام ٢٠٥ هـ.

ب ــ أبو عمر محمد بن عبدالرحمن الملقب بقُنْبُل (لشدته). توفي عام ٢٩١ هـ.

٣ ــ راويا قراءة أبي عمرو:

أ ــ أبو عمر حفص بن عمر الدُّوري. توفي عام ٢٤٦ هـ.

ب ــ أبو شعيب صالح بن زياد السُّوسي. توفي عام ٢٦١هـ.

---

(١) انظر بوجه أخص: البرهان ١/٣٢٩، والإتقان ١/٨٠، والنشر ١/٣٧.

(٢) أما أسانيد هذه القراءات فيمكن الرجوع إليها في كتاب النشر لابن الجوزي أو لطائف الإشارات للقسطلاني.

٤ ــ راويا قراءة ابن عامر:

أ ــ أبو الوليد هشام بن عمار بن أبَان. توفي عام ٢٤٥هـ.

ب ــ أبو عمرو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذَكْوان. توفي عام ٢٤٢ هـ.

٥ ــ راويا قراءة عاصم:

أ ــ أبو بكر شعبة بن عياش. توفي عام ١٩٣ هـ.

ب ــ أبو عمر (أو أبو داود) حفص بن سليمان بن المغيرة. توفي عام ١٨٠ هـ.

٦ ــ راويا قراءة الكسائي:

أ ــ أبو الحارث الليث بن خالد المروزي. توفي عام ٢٤٠ هـ.

ب ــ أبو عمر الدوري (راوي أبي عمرو).

٧ ــ راويا قراءة حمزة:

أ ــ أبو محمد خلف بن هشام البزار. توفي عام ٢٢٩ هـ.

ب ــ أبو عيسى خلّاد بن خالد الصيرفي الكوفي. توفي عام ٢٢٠هـ.

رواة القراء الثلاثة:

٨ ــ راويا قراءة أبي جعفر:

أ ــ عيسى بن وَرْدان المدني. توفي في حدود ١٦٠ هـ.

ب ــ الربيع سليمان بن مسلم بن جمَّاز. توفي عام ١٧٠هـ.

٩ ــ راويا قراءة يعقوب:

أ ــ أبو عبدالله بن المتوكل المعروف برُويس. توفي عام ٢٣٨هـ.

ب ـ أبو الحسن روح بن عبدالمؤمن بن عبدة بن مسلم. توفي عام ٢٣٤ أو ٢٣٥ هـ.

١٠ ـ راويا قراءة خلف:

أ ـ إسحاق بن إبراهيم المروزي. توفي عام ٢٨٦ هـ.

ب ـ أبو الحسن إدريس بن عبدالكريم البغدادي. توفي عام ٢٩٢ هـ.

رواة القراء الأربعة:

١١ ـ راويا قراءة ابن محيصن:

أ ـ البزي (راوي ابن كثير).

ب ـ أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ. توفي عام ٣٢٨ هـ.

١٢ ـ راويا قراءة اليزيدي:

أ ـ سليمان بن أيوب بن الحكم. توفي عام ٢٣٥ هـ.

ب ـ أحمد بن فرح. توفي عام ٣٠٣ هـ.

١٣ ـ راويا قراءة الحسن البصري:

أ ـ أبو نعيم شجاع بن أبي نصر البلخي. توفي عام ١٩٠ هـ.

ب ـ الدوري (راوي أبي عمرو).

١٤ ـ راويا قراءة الأعمش:

أ ـ أبو العباس الحسن بن سعيد المطوعي. توفي عام ٣٧١ هـ.

ب ـ أبو الفرج محمد بن أحمد بن إبراهيم الشَّنَبُوذي. توفي عام ٣٨٨ هـ(١).

---

(١) انظر لطائف الإشارات ١/١٠٠ وما بعدها.

واستمرت هذه الروايات معمولاً بها في كل عصر إلى أن فاقت ثلاث منها على غيرها وهي:

١ ــ رواية الدوري عن أبي عمرو البصري.
٢ ــ رواية ورش عن نافع المدني.
٣ ــ رواية حفص عن عاصم الكوفي.

ثم نشرت رواية حفص حتى تغلبت على رواية الدوري. وتغلبت أيضا على رواية ورش إلا في المغرب. وبذا صارت رواية حفص عن عاصم الكوفي هي القراءة المشهورة المستعملة في أيامنا في أكثر بلاد العالم الإسلامي (١).

٣ ــ موقف اللغويين من القراءات القرآنية:

إذا كان الفقهاء والقراء والأصوليون قد قسموا القراءات إلى مجموعات حسب درجات صحتها، ووضعوا لقبولها شروطاً ثلاثة هي موافقتها لأحد المصاحف العثمانية، وموافقتها العربية، وصحة سندها، فقد حكمتهم في ذلك نظرتهم إلى القراءة باعتبارها وسيلة تعبد وتقرب إلى الله، وشرطاً لصحة الصلاة ومصدراً للتشريع والتحريم والتحليل.

أما اللغويون فقد كان لهم من القراءات موقف مختلف، حكمتهم فيه نظرتهم إلى القراءة باعتبارها أحد المصادر اللغوية المعتمدة، وشاهداً لا يمكن التعامل معه بمعزل عن سائر الشواهد اللغوية. ويتلخص هذا الموقف في تطبيق شروط الشاهد اللغوي على القراءة، فما استوفاها قبلوه، وما أخل بها

(١) مقدمة محقق كتاب المصاحف/٩.

استبعدوه. ومن هنا كان شرط اللغويين الوحيد لقبول القراءة هو «صحة روايتها عن القارىء العدل حتى لو كان فرداً». ويستوي عندهم أن تروى القراءة بطريق التواتر أو بطريق الآحاد. كما يستوي عندهم أن تكون القراءة سبعية أو عشرية أو شاذة. بل إن ابن جنى في مقدمة كتابه «المحتسب» كان حريصاً على وضع القراءة الشاذة على قدم المساواة مع القراءة السبعية، وذلك في قوله: «إنه نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية مِنْ أمامِه وورائه. ولعله أو كثيراً منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه».

وإذا كان اللغويون لم يشترطوا النقل المتواتر في أي نص لغوي، فلماذا يشترطونه في القراءة القرآنية، وإذا كانوا قد سمحوا بقبول نقل الواحد إذا كان الناقل عدلاً رجلاً كان أو امرأة، حراً كان أو عبداً[1]، فلماذا يوضع قيد على قبول القراءة دون غيرها؟.

بل أكثر من هذا يصرح السيوطي بأن العدالة وإن كانت شرطاً في الراوي فهي ليست شرطاً في العربي الذي يحتج به.

وإلى جانب عدم اشتراط اللغوي التواتر لقبول القراءة لم يشترط اتصال سندها ورفعه إلى الرسول، لأنه يقبل الأخبار المرسلة التي انقطع سندها، بل وقد يقبل نقل أهل الأهواء والبدع. واللغوي بهذا يتعامل مع القراءة على أنها نص عربي رواه أو قرأ به من يوثق بعربيته على فرض التشكك في صحة نسبته إلى الرسول ﷺ. وبهذا يدخل في باب الاحتجاج اللغوي كثير مما رفضه القراء والأصوليون.

وأما شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية فلا يتقيد به

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٨٦.

اللغوي كذلك، لأن ما خالف هذه المصاحف يعد ـ في أدنى درجاته ـ من باب التفسير أو الشرح اللغوي الذي كان يسجله بعض الصحابة القراء، أو بعض المتلقين عنهم، أو من قبيل استخدام الرخصة التي منحها الرسول ﷺ إياهم في مطلع عصر الرسالة، وهي قراءة القرآن على سبعة أحرف، أو سبعة أوجه. وإذا كانت الرخصة قد زالت بزوال سببها، ويجمع المسلمين على المصحف الإمام فإن آثارها وما نتج عنها لا يمكن محوه من ذاكرة التاريخ بجرة قلم، ولا يصح تجاهله، لا باعتباره قرآناً، وإنما باعتباره كلاماً عربياً فصيحاً. وإذا كان يُحظر التعبد بمثل هذا النوع من النصوص أو تمنع قراءته في الصلاة فهناك مجالات أخرى لروايته والاستشهاد به. يقول القسطلاني: «إن من قرأ بالشواذ غير معتقد أنها قرآن، ولا يوهم أحداً ذلك، بل لما فيها من الأحكام الشرعية ـ عند من يحتج بها ـ أو الأحكام الأدبية فلا كلام في جواز قراءتها»[1] ويقول الزركشي في البرهان نقلاً عن ابن الصلاح: «وقد نُقل ما لم يستوف الشروط لفوائد، منها ما يتعلق بعلم العربية لا القراءة بها»[2]. وبهذا ينبغي أن تدخل القراءات بجميع درجاتها ومستوياتها في الدرس اللغوي والأدبي دون حرج.

وتختلف نظرة اللغوي إلى القراءة ـ بعد ثبوتها ـ باختلاف الغاية من الاستشهاد بها. فإذا كانت الغاية إثبات وجود اللفظ في اللغة، أو ضبط نطقه، أو ذكر معناه، أو غير ذلك من النتائج الجزئية التي لا تعمم حكماً، ولا تبني قاعدة ـ إذا كانت الغاية كذلك فلا يهم كثرة النماذج اللغوية الموافقة لهذه القراءة أو قلتها، كما لا يهم أن تكون القراءة هي النموذج الوحيد المنقول إلينا.

---

(١) لطائف الإشارات ١/٧٣.

(٢) البرهان ١/٣٣٢.

أما إذا كانت الغاية من الاستشهاد وضع قاعدة، أو استنباط حكم، أو تقنين نمط ـ فإن اللغوي حينئذ يضع القراءة إلى جانب غيرها من النصوص ويوازن بينها، ويبني القاعدة على الكثير الشائع، سواء كان مقروءاً به أو غير مقروء، وسواء كانت القراءة متواترة أو غير متواترة. والقراءة حينئذ لا تتميز بوضع خاص، ولا تنفرد بنظرة معينة بالنسبة لسائر المصادر اللغوية. وكيف تتميز والنص القرآني نفسه لم يعط في مجال التقعيد أي ميزة على غيره من النصوص؟.

ألم يتوقف اللغويون عند بعض الآيات القرآنية فحفظوها ولم يقيسوا عليها لأنها لم تأت طبقاً للنموذج الشائع في لغة العرب؟ من منا يسمح بأن يقيس المتكلم على الآية القرآنية: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾[1] فيرفع الطرفين بعد «إنّ»؟مهما قال النحويون في تأويلها، واجتهدوا في تخريجها؟ مع أنها قراءة خمسة من السبعة هم: نافع وابن عامر وحمزة وعاصم (من رواية أبي بكر عنه) والكسائي، وقراءة أبي جعفر وخلف ويعقوب ـ وهم الثلاثة الذين أضيفوا إلى السبعة، وقراءة الحسن والأعمش من الأربعة الذين أضيفوا إلى العشرة[2]؟.

فالقراءة إذن في مجال التقنين والتقعيد لا تعزل عن بقية المصادر اللغوية، وهي القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف[3]، والشعر الجاهلي والإسلامي، ومأثور النثر من حكم وأمثال وخطب.. وهي توضع

---

(١) طه ٦٣.

(٢) معجم القراءات ٤/ ٨٩.

(٣) في تحرير القول عن موقف النحويين من الحديث، انظر كتابنا: البحث اللغوي عند العرب / ٣٤ وما بعدها.

مع غيرها في سلة واحدة ويصنف الجميع ويحلل، ثم توضع القاعدة على ما تثبت كثرته، ويتضح شيوعه واطراده، لأنه هو الذي يمثل اللغة المشتركة أو القاعدة التي يجب محاكاتها والالتزام بها.

وبهذا يمكننا أن نفهم ـ على ضوء هذا التوضيح ـ وجهة نظر النحويين الذين استبعدوا في مجال الاستشهاد قراءات سبعية مثل:

١ ـ قراءة ابن عامر: «**وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم**»[١] بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول.

٢ ـ قراءة حمزة: «**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ**»[٢]، بالجر على عطف الظاهر على الضمير المجرور دون إعادة حرف الجر. وقد وضح أبو علي الفارسي سبب الاستبعاد، فقال: وهذا ضعيف في القياس، وقليل في الاستعمال. وما كان كذلك فترك الأخذ به أحسن.

٣ ـ قراءة معظم السبعة: ﴿إنّ هذان لساحران﴾ برفع الطرفين بعد إنّ.

كما يمكننا أن نفسر ما قد يبدو من تناقض واضطراب في موقف اللغوي حين يكون لغوياً وقارئاً في نفس الوقت. ولعل من أظهر الأمثلة على هذا حالة أبي عمرو بن العلاء الذي روي عنه قبول بعض القراءات رغم تخطئة النحويين لها، ورفض بعض القراءات رغم قراءة بعض الثقات بها.

فمن الموقف الأول قبوله قراءة حمزة: «**ما أنا بمصرخكم، وما أنتم**

---

(١) الأنعام ١٣٧.
(٢) النساء ١.

بمصرخيِّ»[1] بكسر الياء المشدّدة رغم تخطئة النحاة لها. فهذا القبول كان بصفته قارئاً يحكّم مقاييس القراءة الصحيحة، وهي صحة السند، وموافقة رسم المصحف، وموافقة العربية ولو بوجه. ووجه موافقتها للعربية قد ذكره الفراء في «معاني القرآن» حين روى أنها لغة بني يربوع[2].

ومن الموقف الثاني رفضه قراءة ابن مسعود والحسن وزيد بن علي وعيسى بن عمر وغيرهم: «**هؤلاء بناتي هنَّ أطهرَ لكم**»[3] فهو في رفضه هذا يحكّم مقياس النحوي الذي يبني قبوله أو رفضه على الشيوع والكثرة، وليس على مجرد السماع.

ومع هذا فنحن لا نقر اللغويين على موقفهم من القراءات في جملة أمور منها:

١ ـ وصفهم بعض القراءات بأنها من القبيح، أو الرديء، أو الوهم، أو الغلط. وقد كان في إمكانهم أن يصفوها بأنها أقل فصاحة فلا تبنى عليها قاعدة أو يصفوا أمثلتها بالقلة أو الندرة، أو غيرها مما لا يحقق شروط النحوي.

٢ ـ عدم استقرائهم الدقيق للتراكيب النحوية التي وردت في القرآن الكريم وقراءاته، مما جعلهم يحكمون بعدم ورود الظاهرة في القرآن مع ورودها. وقد ذكر الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة أمثلة كثيرة لذلك

---

(١) إبراهيم ٢٢. وانظر خزانة الأدب ٢/٢٥٩، حيث ينقل عن أبي عمرو قوله لسائله: هي جائزة أيضاً، لا تبال.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن ١/٢٣. ولاحظ أن أبا عمرو رغم قبوله لها لم يقرأ بها لأنها ليست اللغة الفصحى.

(٣) هود ٧٨. وانظر البحر المحيط ٥/٢٤٧.

نكتفي منها بمنعهم وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب، مع وروده في القرآن ثماني عشرة مرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾(٢).

٣ ــ جرأتهم في رد بعض القراءات لأنها لم تثبت من طريقهم مع أنها ثابتة من طرق أخرى. ومن ذلك:

أ ــ إنكار أبي عمرو الضم في لفظ «العُدْوة»(٣) وقول الأخفش: «لم نسمع من العرب إلا الكسر»، مع أن الضم مسموع، وهو قراءة معظم السبعة (من عدا ابن كثير، وأبي عمرو)(٤).

ب ــ إنكار أبي عمرو قراءة: «**فيومئذ لا يُعَذَّب عذابه أحد، ولا يُوثَق وثاقه أحد**»(٥) ببناء الفعلين للمجهول، وهي قراءة الكسائي ويعقوب. قال السخاوي: «وإنما تواتر الخبر عند قوم دون قوم. وإنما أنكرها أبو عمرو لأنها لم تبلغه»(٦).

٤ ــ الأهمية اللغوية والدينية للقراءات القرآنية:

لا يغيبن عن البال أن القراءات القرآنية تعد كنزاً لغويا وأدبياً لم يكتشف بعد، وأنها بما أثارته من حوار وجدل قد أخصبت التفكير اللغوي العربي، وشحذت الهمم والعقول لمناقشتها وتحليلها والحكم عليها.

---

(١) البقرة ٤٥.
(٢) يوسف ٦٦. وانظر دراسات لأسلوب القرآن ١/٨، ١١.
(٣) الأنفال ٤٢.
(٤) معجم القراءات القرآنية ٢/٤٥١، ودراسات لأسلوب القرآن ١/٤٧.
(٥) الفجر ٢٥، ٢٦.
(٦) دراسات لأسلوب القرآن ١/٤٧.

وهي ـ بالإضافة إلى هذا وذاك ـ يمكن أن تزود اللغوي ـ في فهمه وتحليله للغة العربية الفصحى ولهجاتها ـ بمعين لاينضب، وزاد لا ينفد. ويمكن ضرب عشرات الأمثلة للأهمية اللغوية للقراءات القرآنية، ولكننا سنكتفي بضرب الأمثلة الآتية:

١ ـ لا ينكر أحد أن القراءات القرآنية وطرق التلاوة للنص القرآني تعد المثال الحي الوحيد لكيفية نطق الفصحى قديماً وحديثاً. وكثيراً ما يحتاج اللغوي عند وصف صوت من الأصوات، أو ظاهرة صوتية معينة إلى الاستهداء بنطق المجيدين من قُرَّاء القرآن. أما باقي المصادر اللغوية فقد وردتنا مكتوبة لا منطوقة، وكثيراً ما أوقعت طريقة الكتابة العربية في التصحيف والتحريف.

٢ ـ تشتمل القراءات القرآنية على شواهد لغوية سكتت المعاجم عن ذكرها. وربما كان أظهر مثال لذلك قوله تعالى: ﴿وما قَدَروا الله حق قدره﴾[1]. من الفعل الثلاثي المخفف. ولكن يشيع في لغة العصر الحديث استخدام كلمة «التقدير» من الفعل المضعف «قدَّر» بمعنى عظَّم أو احترم. ونفتش في المعاجم القديمة عن سند لهذا الاستعمال فلا نجد، وتسعفنا القراءات القرآنية فتمدنا بالشاهد، وهو قراءة الحسن وعيسى الثقفي: «وما قدَّروا الله..»[2]. قال في الكشاف: وقرىء بالتشديد على معنى: وما عظَّموه كنه تعظيمه.

٣ ـ يمكن اتخاذ القراءات القرآنية مرتكزاً لتحقيق التيسير، ودليلا لتصحيح

---

(١) الأنعام ٩١.
(٢) البحر المحيط ٤/١٧٧.

كثير من العبارات والاستعمالات الشائعة الآن، والتي يتحرج المتشددون عن استعمالها. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ ضبط الفعل «تَوَفَّى» بالبناء للمعلوم. ورغم أن الاستعمال الفصيح هو بناؤه للمجهول فقد جاءت القراءة القرآنية مصححة للنطق الحديث. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾(1) فقد قرأها الأعمش وغيره: «ومنكم من يَتَوَفَّى»(2). قال النحاس في «إعراب القرآن»(3)، وأبو حيان في «البحر المحيط»(4): أي يستوفي أجله.

ب ـ تخفيف كلمات مثل «أمسية»، و«أضحية»، و«أمنية». وقد ورد التخفيف في بعض القراءات مثل: «تلك أمانِيهِمْ»(5)، «ليس بأمانِيكُمْ ولا أمانِي أهل الكتاب»(6)، «إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمْنِيَتِه»(7).

جـ ـ ويمثل باب العدد مشكلة كبيرة للمتعلم العربي، فتارة يخالف (تذكيراً وتأنيثاً) وتارة يوافق، وغير ذلك. وتزداد المشكلة بالنسبة للعدد من ثلاثة إلى عشرة: لأن تمييزه جمع، ولابد من رد الجمع إلى مفرده للحكم بالتذكير أو التأنيث. ويحل المشكلة أن يُنصح المتكلم بأن يقدم المعدود ويؤخر العدد، وحينئذ تجوز له المطابقة

---

(1) الحج ٥.
(2) معجم القراءات القرآنية ١٦٦/٤.
(3) ٣٩٠/٢.
(4) ٣٥٣/٦.
(5) البقرة ١١١. والقارئون هم: أبو جعفر والحسن.
(6) النساء ١٢٣. والقارئون هم: الحسن وشيبة وأبو جعفر والأعرج وغيرهم.
(7) الحج ٥٢. وهي قراءة أبي جعفر.

لأنه نعت، والمخالفة لأنه عدد. وقد جاء بالوجهين قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[1] حيث قرىء كذلك «وكنتم أزواجاً ثلاثاً»[2].

د ـ يشيع في لغة العصر الحديث استعمال «كِلَا» مع المثنى المؤنث المجازى التأنيث مثل: «كلا الدولتين»، و«كلا الصحيفتين».. وقد جاءت القراءة القرآنية لتصحح هذا الاستعمال، وذلك في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾[3]، فقد قرأها ابن مسعود: «كلا الجنتين آتت أكلها» قال في البحر[4]: «أتي بصيغة التذكير، لأن تأنيث الجنتين مجازى».

هـ ـ تذكر كتب النحو أن من مواضع كسرة همزة «إنّ» وقوعها مفعولاً للقول ولكنّ كثيراً من المتحدثين يفتحونها الآن. وقد جاء الفتح في بعض القراءات مثل قراءة المطوعي: «**ولئن قلتم أنكم مبعوثون من بعد الموت**..»[5]. قال في البحر:[6] «لأن قلت في معنى: ذكرت». ويجوز أن يكون على تقدير حرف الجر. وحذف حرف الجر قياسي مع أن.

٤ ـ من الممكن ضم القراءات القرآنية المتواترة والشاذّة، وإعادة

---

(١) الواقعة ٧.
(٢) مختصر البديع لابن خالويه/ ١٥.
(٣) الكهف ٣٣.
(٤) ٦/١٢٤.
(٥) هود ٧.
(٦) ٥/٢٠٥.

الدراسة لبعض الأبواب الصرفية المضطربة، مثل أبواب الفعل الثلاثي المجرد. فمن المعروف أن أبواب هذا الفعل تتوزع بين الكسر والفتح والضم في كل من الماضي والمضارع دون ضابط صارم. وأكثر الأبواب شيوعاً في اللغة العربية ما كان بفتح العين في الماضي وضمها أو كسرها في المضارع (طبقاً لقاعدة المخالفة). ولكن المتحدث يقف حائراً - إن لم يرجع إلى المعجم - في كثير من الأحيان هل يخالف إلى الكسر؟ أو الضم؟.

ويوجد في أمثلة القراءات القرآنية ما يسمح بفتح باب الاختيار في حركة المخالفة فنكسر أو نضم حسب ماشاع على ألسنة المثقفين وقبله العرف اللغوي الحديث. وقد وردت الأفعال الآتية - وغيرها كثير - بالكسر والضم:

* ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفا﴾[1].
* ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾[2].
* ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾[3].
* «ويوم نحشر أعداء الله إلى النار»[4] (على قراءة البناء للمعلوم).
* ﴿لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾[5].
* ﴿فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾[6].
* ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾[7].

---

(١) طه ٩٧، ومعجم القراءات ٤/١١١.
(٢) المؤمنون ٦٦، ومعجم القراءات ٤/٢١٧.
(٣) الفرقان ١٧، ومعجم القراءات ٤/٢٧٧.
(٤) فصلت ١٩، ومعجم القراءات ٦/٩٦.
(٥) الفرقان ٦٧، ومعجم القراءات ٤/٢٩٤.
(٦) القصص ١٩، ومعجم القراءات ٥/١٢.
(٧) سبأ ٣، ومعجم القراءات ٥/١٤٢.

* ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون﴾[1].
* ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [2].
* ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ [3].
* ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ [4].
* ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾[5].

ومن اللافت للنظر أن يكون هذا هو رأي أبي زيد الأنصاري (توفي ٢١٥هـ)، الذي عرف عنه قوله: « إذا جاوزت المشاهير من الأفعال.. فأنت في المستقبل بالخيار إن شئت قلت يفعُل بضم العين، وإن شئت قلت يفعِل بالكسر»[6].

٥ ـ بعض القراءات غير المشهورة لا تقل قبولا ـ من ناحية المعنى ـ عن المشهورة ومن أمثلة ذلك:

أ ـ قرأ الزهري: «وأوفو بعهدي أُوَفِّ بعهدكم»[7]، وقد عقب ابن جنى على هذه القراءة بقوله: «ينبغي أن يكون قرأ بذلك لأن فعَّلت أبلغ من أفعلت فيكون على: أوفوا بعهدي أبالغ في توفيتكم؛ كأنه ضمان من الله سبحانه أن يعطي الكثير في مقابل القليل»[8].

---

(١) الزخرف ٥٧، ومعجم القراءات ١٢١/٦.
(٢) الفتح ١٠، ومعجم القراءات ٢٠٣/٦.
(٣) الفتح ١٥، ومعجم القراءات ٢٠٦/٦.
(٤) الحجرات ١١، ومعجم القراءات ٢٢٣/٦
(٥) الرحمن ٣١، ومعجم القراءات ٥١/٧.
(٦) نقل ذلك عنه الفيروز أبادي في مقدمة قاموسه، وأقره عليه.
(٧) بدلا من «أوفِ بعهدكم» (البقرة ٤٠).
(٨) المحتسب ٨١/١.

ب ــ قرأ ابن مسعود: «كلما ردوا إلى الفتنة رُكِّسوا فيها»[1] . قال ابن جني: «وجه ذلك أنه شيء بعد شيء، وذلك لأنهم جماعة. فلما كانوا كذلك وقع منه شيء بعد شيء فطال، فلاقى به لفظ التكثير والتكرير كقوله تعالى: ﴿وغَلَّقت الأبواب﴾[2] .

جـ ــ قرىء: «لا يكادون يُفْقِهون قولا»[3]، والمشهور «يَفْقهون». قال الطبري: والصواب عندي من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان، في قراءة الأمصار غير دافعة إحداهما الأخرى. وذلك أن القوم الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر جائز أن يكونوا لا يكادون يَفْقهون قول غيرهم، وجائز أن يكونوا مع كونهم كذلك لا يكادون يُفْقهون غيرهم لعلة بلسانهم أو بمنطقهم»[4].

٦ ــ من العلماء من أقام تعدد القراءات مقام تعدد الآيات، وتعدد المعاني واعتبر ذلك ضرباً من ضروب البلاغة، يبتدىء من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز[5].

ولا تقف أهمية القراءات عند قيمتها اللغوية، بل تضيف إلى ذلك قيمتها الدينية الكبيرة، وعلى سبيل المثال:

١ ــ تحوي القراءات القرآنية كثيراً من أحكام الإلقاء والتلاوة، كالوقوف على التاء المربوطة، وحذف الحركة أو تسهيلها، وأحكام الهمزة، والوقف

---

(١) بدلا من «أركسوا فيها» (النساء ٩١).
(٢) المحتسب ١/١٩٤.
(٣) الكهف ٩٣. وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف والأعمش وغيرهم (معجم القراءات ١٢/٤).
(٤) تفسير الطبري ١٦/١٤.
(٥) مناهل العرفان ١/١٤٢.

والإمالة، والإدغام، والإبدال، والمد، والقصر، والتفخيم، والترقيق، وغيرها، مما يدخل تحت «علم التجويد».

٢ ـ بعض القراءات يعد من باب التفسير اللغوي لبعض الألفاظ، مما يكون له الأفضلية على غيره من التفسيرات، أو يلقي ضوءاً على المعنى المراد من اللفظ، ومن ذلك:

أ ـ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾(١)، قرأها ابن مسعود وأبيّ: «أعصر عنباً».

ب ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾(٢)، قرأها ابن مسعود: «يتصدعن منه».

جـ ـ ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(٣)، قرأها أُبيّ وعلي وعائشة وغيرهم: «حطب جهنم».

د ـ ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾(٤)، قرأها أبيّ وابن عباس وابن مسعود وغيرهم: «حتى تستأذنوا».

هـ ـ ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾(٥)، قرأها ابن مسعود: «كالصوف المنفوش».

٣ ـ بعض القراءات قد يبنى عليه حكم فقهي، أو يؤدي إلى استنباط هذا الحكم. ومن ذلك:

أ ـ قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ

---

(١) يوسف ٣٦. والقراءة في معجم القراءات ١٦٩/٣.
(٢) مريم ٩٠، ومعجم القراءات ٦١/٤.
(٣) الأنبياء ٩٨، ومعجم القراءات ١٥٢/٤.
(٤) النور ٢٧، ومعجم القراءات ٢٤٦/٤.
(٥) القارعة ٥، ومعجم القراءات ٢٢١/٨.

﴿أَيْدِيَهُمَا﴾[1]. وقد جاءت قراءة ابن مسعود لتحديد اليد التي يبدأ بقطعها وهي: «فاقطعوا أيمانهما»[2].

ب ـ قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[3] وقد قرأ ابن مسعود وأبيّ وغيرهما: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»[4]، فدلت القراءة على شرط التتابع.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[5]. فقراءة حفص بنصب «أرجلكم»، عطفاً على الوجوه والأيدي. وبذلك تكون الأرجل داخلة في الأعضاء المغسولة. أما قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة وغيرهم فإنها بكسر «أرجلكم»[6]، بالعطف على «الرءوس»، فتكون الأرجل داخلة في المسح مع الرأس. وقد قال الفقهاء إن القرآن نزل بالمسح على الرأس والرجل أوّلا، ثم عادت السُّنّة إلى الغسل. ومنهم من قال إن المسح ـ في قراءة الجر ـ للخُفّ، والغسل ـ في قراءة النصب ـ لغيره[7].

---

(١) المائدة ٣٨.
(٢) معجم القراءات ٢/٢٠٨.
(٣) المائدة ٨٩.
(٤) معجم القراءات ٢/٢٣٦.
(٥) المائدة ٦.
(٦) معجم القراءات ٢/١٩٥.
(٧) تاريخ القرآن للكردي/ ٢١١، ومناهل العرفان ١/١٤١.

د ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ، وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾[1] محمول على جهة الأم وحدها. وقد جاءت قراءة سعد بن أبي وقاص: «وله أخ أو أخت من أم»، وقراءة أبيّ «من الأم»[2] لتبين هذا الحكم المجمع عليه، وهو أن المراد بالإخوة هنا الإخوة لأم، دون الأشقاء، ودون من كانوا لأب[3].

هـ ـ وجاءت قراءة: «وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ» مع ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[4] لتفيد الجمع بين الحكمين المختلفين. فالحائض لا يقربها زوجها حتى تَطْهُر بانقضاء الحيض، وتَطَّهَّر بالاغتسال[5]. فلابد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء. وهو مذهب الشافعي ومن وافقه[6].

٤ ـ كثير من القراءات يكمل بعضها بعضا، أو يفسر بعضها بعضاً. فكما أن القرآن يفسر بعضه بعضا، فكذلك القراءات يفسر بعضها بعضا، ويفسر بعضها بعض القرآن. ونضرب لذلك الأمثلة القليلة الآتية:

أ ـ يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ

---

(١) النساء ١٢.

(٢) معجم القراءات ٢/١١٦.

(٣) تاريخ القرآن للكردي/ ٩١، ٢١١، ومناهل العرفان ١/١٤٠.

(٤) البقرة ٢٢٢.

(٥) تاريخ القرآن للكردي/ ٩١، ٢١١.

(٦) مناهل العرفان ١/١٤١.

﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[1].

فقد اختلف المفسرون في معنى الآية، فمنهم من قال إن الذي يعلم تأويله: الله والراسخون في العلم، وبذلك عطفوا «الراسخون» على لفظ الجلالة. ومنهم من قال إن الذي يعلم تأويله هو الله فقط، ثم استأنف قائلاً: والراسخون في العلم يقولون آمنا به. والرأي الثاني أرجح وأوضح، ولهذا جاءت قراءة أُبيّ وابن عباس وغيرهما: «وما يعلم تأويله إلا الله. ويقول الراسخون في العلم..» ـ جاءت قراءتهم مرجحة أن المراد هو المعنى الثاني لا الأول.

ب ـ يقول تعالى متحدثاً عن فئة من اليهود: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا، وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ، وَرَٰعِنَا. لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾[3]. فكانوا يسكتون على «راعنا» لتوهم أنهم يريدون «الرعاية» مع أن قصدهم «الرعونة». ولذا جاءت قراءة الحسن وابن محيصن كاشفة نية اليهود حينما نونت كلمة «راعنًا»[4]. وهذا واضح من قول بقية الآية: ﴿**ليا بألسنتهم وطعنا في الدين**﴾.

جـ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[5]، وهناك قراءة سبعية:

---

(١) آل عمران ٧.

(٢) معجم القراءات ٢/٧.

(٣) النساء ٤٦.

(٤) معجم القراءات ٢/١٣٨.

(٥) آل عمران ١٦١.

«ومـا كان لنبي أن يُغَـلّ»[1] ـ بالبنـاء للمجهول. فمعنى الأولى: أن يخون أصحابه بأخذ شيء من الغنائم خفيـة. ومعنى الثانيـة: أن يُخَوَّن ـ بالبناء للمجهول. وقد جاء في الأثر أن أحد المنـافقين قال يوم بدر حين فقدت قطيفة حمراء من الغنيمـة: خاننـا محمد وغلّنـا، فأكـذبه الله عـز وجـل. ولاشـك أن القـراءتـين يكمـل بعضهما بعضا.

د ـ قال تعالى: ﴿فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾[2]. وحيث لم يكن الأخ سارقـاً في الحقيقة، وإنمـا كـان متهـما بالسرقـة، جاءت القـراءة التاليـة لتـدل عـلى هـذا المعنى، وهي: «قالوا يا أبانا إن ابنك سُرِّق»[3] بالبناء للمجهول.

---

(١) معجم القراءات ٢/٨١، والقارئون هم: نافع وابن عامر وحمزة والكسائي من السبعة.

(٢) يوسف ٨١.

(٣) معجم القراءات ٣/١٨٦. وهي قراءة ابن عباس والكسائي وغيرهما.

(الفصـل الرابع)
الغريب واللغات في القرآن

١ ــ غريب القرآن:

يقسم أبـو حيان في مقـدمـة كتـابـه «تحفـة الأريب بمـا في القـرآن من الغريب» ألفاظ القرآن إلى قسمين:

أ ــ قسم يكـاد يشترك في فهم معنـاه عامـة العرب والمستعـربة، كمـدلـول السماء والأرض.

ب ــ وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحر في اللغة العربية، وهو الذي صنف أكثر الناس فيه، وسموه «غريب القرآن»(١).

فغـريب القرآن إذن هـو ألفاظـه التي يبهم معناهـا على عـامة العـرب ويحتاج فهم مدلولها إلى ثقافة لغوية وأدبية خاصة.

ويبين الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه «المفردات في غريب القرآن» أهمية فهم غريب القـرآن، باعتبـاره المدخـل لفهم معانيـه فيقول: «تحصيـل معاني مفردات ألفاظ القرآن الكريم في كونه من أوائل المُعَاوِن لمن يريـد أن يدرك معانيه كتحصيل اللَّبِن في كـونه من أول المعـاون في بناء مـا يريـد أن يبنيه»(٢).

---

(١) ص ٢٧.

(٢) ص ٦.

وقد ألف كثير من العلماء في «غريب القرآن» وحملت تآليفهم أسماء كثيرة أشهرها ثلاثة هي «غريب القرآن»، و«معاني القرآن»، و«مجاز القرآن». وهي أسماء بدت مترادفة أو كالمترادفة في عرف المتقدمين[1]. وظهرت الحاجة إلى هذا النوع من التأليف في وقت مبكر بعد وفاة الرسول ﷺ، واشتدت حاجتهم أكثر بعد أن امتدت الفتوح، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية.

ولعل أول عمل تم إنجازه في هذا المجال هو تفسير ابن عباس (توفي ٦٨هـ) لنحو مائتي كلمة من غريب القرآن فيما عرف بمسائل نافع بن الأزرق. وتقول الروايات إن ابن عباس كان جالساً في فناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنَجْدة بن عويمر: «قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به»[2]. وأخذ ابن الأزرق يسأل ابن عباس مسائل كان يجيبه عنها ويستشهد لكل كلمة يفسرها ببيت من الشعر.

ولم يكن ابن عباس بدعا بين الصحابة في تلمس معاني القرآن من الشعر فهذا عمر بن الخطاب يُسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[3] فيتوقف، ويجيب شيخ من هذيل: في لغتنا، التخوف: التنقص، ويسأله عمر فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيجيب الشيخ الهذلي: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقته:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامكاً قَرِدا ... كما تخوف عُودَ النبعةِ السفَنُ[4]

(١) انظر مقدمة المحقق لتفسير غريب القرآن لابن قتيبة/ صفحة ج.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطيء/ ٢٦٩.

(٣) النحل ٤٧.

(٤) التامك: السنام، والقرِد: الذي تلبّد وبره أو تساقط، والسَّفَن: الحديدة التي تُبْرَد بها القِسِيّ.

فيقـول عمـر: أيهـا النـاس، عليكم بـديـوانكم لا تضلوا. . شعـر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم[1].

وجـاء عن كثـير من الصحـابـة ـ غـير عمـر وابن عبـاس ـ وكثـير من التـابعين تفسـير القرآن والاحتجـاج على غـريبه بـالشعر. قـال الـزركشي في البرهان نقلاً عن ابن الأنباري: وفيه دلالة عـلى بطلان قـول من أنكر عـلى النحويين احتجاجهم على القرآن بالشعر، وأنهم جعلوا الشعر أصلاً للقرآن، وليس كـذلك. وإنمـا أراد النحويـون أن يثبتوا الحـرف الغـريب من القـرآن بالشعر لأن الله تعالى يقول: «**إنـا أنزلنـاه قرآنـاً عربيـاً**»، ويقول «**بلسـان عربي مبين**»[2].

وتوالت المؤلفات في «غريب القرآن» بعد ذلك فكان منها:

أولاً: ما حمل اسم «غريب القرآن»:

١ ــ غريب القرآن لعطاء بن أبي رباح (توفي ١١٤هـ) ـ مخطوط[3].

٢ ــ تفسـير غـريب القـرآن، لأبي محمـد عبـدالله بن مسلم بن قتيبـة (تـوفي ٢٧٦هـ) ـ مطبوع. وقد رتبه على ترتيب السور في المصحف[4].

٣ ــ غريب القرآن، المسمى بنزهة القلوب لمحمـد بن عبدالعـزيز السجستاني (توفي ٣٣٠هـ) ـ مطبوع[5].

٤ ــ المفـردات في غريب القـرآن، لأبي القـاسم الحسين بن محمـد المعـروف

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطيء/ ٢٧٤.

(٢) البرهان ١/٢٩٤.

(٣) معجم مصنفات القرآن ٣/٢٩٩.

(٤) تفسير غريب القرآن/ صفحة ب

(٥) معجم مصنفات القرآن ٣/٣٠١.

بالراغب الأصفهاني (توفي ٥٠٢هـ) ـ مطبوع. وقد رتبه حسب الحروف الهجائية[١].

٥ ـ تحفة الأريب، بما في القرآن من الغريب، لأثير الدين أبي حيان الأندلسي (توفي ٧٤٥هـ) ـ مطبوع. وقد رتبه حسب الحروف الهجائية بالنظر إلى الأوائل. فإذا اتفقت الأوائل اعتبر الأواخر[٢].

ثانياً: ما حمل اسم «معاني القرآن»:

١ ـ معاني القرآن للفراء، يحيى بن زياد النحوي (توفي ٢٠٧هـ) ـ مطبوع.

٢ ـ معاني القرآن للأخفش، سعيد بن مسعدة (توفي ٢١٥هـ) ـ مطبوع.

٣ ـ معاني القرآن للنحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري (توفي ٣٣٨هـ) ـ مخطوط[٣]، وقد نمى إلى علمنا أنه طبع مؤخراً.

ثالثا: ما حمل اسم «مجاز القرآن»:

يدخل تحت هذا الصنف: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى (توفي ٢١٠هـ) ـ مطبوع. وقد عنى بالمجاز «الطريق الذي يسلكه القرآن في تعبيراته». وكان يستعمل عند تفسيره للآيات الكلمات: «مجازه كذا»، «تفسيره كذا»، «معناه كذا»، «غريبه»، «تأويله».. على أن معانيها واحدة أو تكاد[٤].

---

(١) المفردات / ٤.
(٢) تحفة الأريب/ ٧.
(٣) معجم مصنفات القرآن ٢١٧/٤، ٢١٨.
(٤) مجاز القرآن/ ١٨، ١٩ من مقدمة المحقق.

ويحتاج المتعرض لبيان «غريب القرآن» - كما يقول الزركشي في البرهان - «إلى معرفة علم اللغة: اسماً وفعلاً وحرفاً. فالحروف لقلتها تكلم النحاة على معانيها، فيؤخذ ذلك من كتبهم. وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة»(١).

ولا يستغني المفسر للقرآن عن معرفة هذا الفن، ولذا يقول مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»(٢). ويحذّر الزركشي من مخاطر التسرع في تدبر معاني الألفاظ، الذي يوقع في الخطأ، كما وقع لجماعة من الكبار، فقد روى الخطابي عن أبي العالية أنه سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٣)، ففال:هوالذي ينصرف عن صلاته، ولا يدري عن شفع أو وتر. فقال الحسن: مَهْ ياأبا العالية ليس هكذا، بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم، ألا ترى قوله ﴿عن صلاتهم﴾(٤)؟ ووقع ابن قتيبة في خطأ مماثل حين فسر «يعشو» في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾(٥) بأنه من عشا يعشو عشوا إذا نظر. وقد غلّطوه في ذلك، وإنما معناه: يُعْرض. قالوا: وإنما غلط، لأنه لم يفرق بين عَشَوْت إلى الشيء، وعَشَوْت عنه.

وقد كان كثير من السلف يتوقفون في تفسير غريب القرآن، لا جهلاً، وإنما تهيباً وحذراً من أن يزلوا. وقد كان الأصمعي - وهو من هو في

---

(١) ٢٩١/١.
(٢) السابق ١/٢٩٢.
(٣) الماعون ٥.
(٤) البرهان ١/٢٩٤.
(٥) الزخرف ٣٦.

اللغة ـ لا يفسر شيئاً من غريب القرآن. وحكى أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾(١)، فسكت، ثم قال: هذا في القرآن. وسئل أبو بكر عن «الأبّ» في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾(٢)، فقال: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كلام الله مالا أعلم»(٣).

وهذه أمثلة من تفسير ابن عباس لغريب القرآن، واستشهاده عليه:

١ ـ سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٤)، فقال: السَّنا: الضوء. واستشهد ببيت أبي سفيان بن الحارث:

يدعو إلى الحقّ لا يبغي به بدلا   يجلو بضوء سناه داجي الظلم(٥)

٢ ـ سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾(٦)، فقال: أجاءها: ألجأها. واستشهد ببيت حسان بن ثابت:

إذ شددنا شدة صادقة   فأجأناكم إلى سفح الجبل(٧)

٣ ـ سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾(٨)، فقال: لا تعرق من شدة الحر. واستشهد بقول عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) يوسف ٣٠.
(٢) عبس ٣١.
(٣) البرهان ١/٢٩٥.
(٤) النور ٤٣.
(٥) مسائل ابن الأزرق، ملحقة بكتاب الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطيء/ ٢٨٣.
(٦) مريم ٢٣.
(٧) مسائل ابن الأزرق/ ٢٨٩.
(٨) طه ١١٩.

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشيّ فيخصر[1]

٢ ـ لغات القبائل الواردة في القرآن:

لم ينزل القرآن بلغة (لهجة) واحدة من لغات العرب، وإنما نزل باللغة العربية الموحدة التي يمكن أن توصف «بأنها اللغة الأدبية الفصحى المختارة الألفاظ»[2]، التي تكونت قبل ظهور الإسلام، واستمدت معظم خصائصها من لهجة قريش، أو القبائل الحجازية بوجه عام، ولذا أطلق عليها تجوزاً «لغة قريش». وهي اللغة التي خطب بها الخطباء، وشعر بها الشعراء[3].

ومن الممكن أن نميز بين ثلاثة مستويات للتحليل اللغوي هي:

١ ـ مستوى النطق والأداء، وقد كان يغلب عليه الطابع القرشي. ولهذا كانت نصيحة عثمان لكتبة المصحف: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلغة قريش، فإنما نزل القرآن بلغتهم»[4]. قالوا: فاختلفوا في كتابة كلمة «التابوت» أبالتاء أم بالهاء، فكتبوها بالتاء تبعاً لنطق قريش. وبلغ عمر أن ابن مسعود كان يُقرىء الناس بلهجة هذيل: «عَتّى حين» بدلاً من «حَتّى حين» فأرسل إليه أن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرىء الناس بلغة قريش.

ولعل من أهم الخصائص الحجازية النطقية الأخرى ميل الحجازيين إلى

---

(١) مسائل ابن الأزرق/ ٢٩٥. وانظر من بلاغة القرآن لأحمد بدوي/ ٨٩ وما بعدها.

(٢) في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس/ ٤٠.

(٣) السابق/ ٤٣.

(٤) النشر ١/٧.

الفتح في مقابل ميل غيرهم إلى الإمالة (أي الميل بالفتح إلى الكسر)[1]، وميلهم إلى الإظهار في مقابل ميل غيرهم إلى الإدغام[2].

وربما كان الاستثناء الوحيد من النطق القرشي في القرآن هو نطق الهمزة. فقد ورد القرآن بتحقيقها موافقاً لنطق «تميم» وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، ومخالفا لنطق قريش والبيئة الحجازية التي تميل إلى التخلص منها، إما بحذفها، أو تسهيلها، أو إبدالها حرف مد[3].

٢ ـ مستوى النحو والتركيب. وقد جاء القرآن ـ فيما نقل فيه خلاف بين الحجازيين والتميميين ـ جاء بلغة الحجازيين غالباً. ولهذا يقول ابن مالك فيما نقل عنه الزركشي: «أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً، فإنه نزل بلغة التميميين. فمن القليل إدغام ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ في الحشر[4]، ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ في المائدة[5] في قراءة غير نافع وابن عامر. فإن الإدغام في المجزوم والاسم المضاعف لغة تميم، ولهذا قل. والفك لغة أهل الحجاز، ولهذا كثر نحو ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ في البقرة[6]، و﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ في البقرة[7]، و﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ في آل عمران[8]، ﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ في نوح[9]، و﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾ في

---

(١) السابق/ ٦٠.
(٢) السابق/ ٧٣.
(٣) السابق/ ٧٥ ـ ٧٦.
(٤) آية ٤.
(٥) آية ٥٤.
(٦) آية ٢١٧.
(٧) آية ٢٨٢.
(٨) آية ٣١.
(٩) آية ١٢.

النساء[1] والأنفال[2]، و﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ في التوبة[3].. وأجمع القراء على نصب ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ في النساء[4] لأن لغة الحجازيين التزام النصب في المنقطع، وإن كان بنو تميم يتبعون. كما أجمعوا على نصب ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ في يوسف[5] لأن القرآن نزل بلغة الحجازيين»[6]. ويمكن أن يضاف إلى أمثلة ابن مالك مثال آخر، وهو اتجاه القرآن إلى فتح حرف المضارعة للفعل الثلاثي موافقاً لغة الحجازيين، في مقابل الكسر، وهو لغة قيس، وتميم، وأسد، وربيعة، وعامة العرب[7].

٣ ـ مستوى المفردات ودلالات الألفاظ، وقد جاء القرآن بمعظم كلماته من اللهجة القرشية، ولكنه جاء كذلك مشتملاً على كلمات لا تنتمي إلى لهجة قريش. وقد اختلف في تحديد القبائل الأخرى التي انضمت إلى قريش، فقيل هي: سعد بن بكر، وهذيل، وثقيف، وخزاعة، وأسد، وضبّة وألفافهما، وتميم وقيس، ومن انضاف إليهم. وقيل: هذيل وتميم، والأزد وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر. وقيل: كنانة، وأسد ابن خزيمة، وهذيل، وتميم (أو تيم الرباب) وضبّة، وقيس[8].

---

(١) آية ١١٥.
(٢) آية ١٣.
(٣) آية ٦٣.
(٤) آية ١٥٧.
(٥) آية ٣١.
(٦) البرهان ١/٢٨٥، ٢٨٦.
(٧) في اللهجات العربية/ ١٣٩.
(٨) البرهان ١/٢١٩، ٢٢٠، والإتقان ١/٤٧ ـ ٤٩. وانظر ما سبق في مبحث «نزول القرآن على سبعة أحرف» ص ٥٦.

وذكر السيوطي في الإتقان قائمة طويلة لأسماء القبائل التي وردت مفردات لها في القرآن، منها: هوازن، والنخع، وعمان، وهذيل، وكنانة، وخثعم، والخزرج، وقيس عيلان، وجرهم، وأزد شنوءة، وكندة، وتميم، ولخم، وغسان، ومذحج... وذكر أن بعضهم أوصل عددها إلى الخمسين(١).

وبإحصاء أسماء القبائل الواردة في كتاب أبي عبيد المسمى «لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم» نجدها تقرب من الأربعين، إذا رتبناها ترتيباً تنازلياً نجد في أعلى القائمة الأسماء الخمسة التالية:

قريش	:	٩٠ مرة.
هذيل	:	٤٥ مرة.
كنانة	:	٣٢ مرة.
حمير	:	٢٦ مرة.
جرهم	:	٢٤ مرة.

ثم نجد ثماني قبائل تتراوح مرات ذكرها بين اثنتي عشرة مرة، وخمس مرات، وهي:

قيس عيلان	:	١٢ مرة
تميم	:	٨ مرات.
أزد شنوءة	:	٧ مرات.
خثعم	:	٧ مرات.
عمان	:	٦ مرات.

(١) الإتقان ١/١٣٣ - ١٣٥.

طيىء : ٥ مرات.
كندة : ٥ مرات.
مذحج : ٥ مرات.

وباقي القبائل تقل عن خمسة، مثل: هوازن، بنو حنيفة، ثقيف، بنوعبس، جذام، خزاعة، سعد العشيرة، سليم، غسان، لخم...

٣ ـ المعرّب في القرآن:

أثارت قضية«اللفظ المعرّب» في القرآن الكريم كثيراً من الجدل بين العلماء منذ وقت مبكر، ربما يعود إلى عصر الصحابة والتابعين. وقد تشعبت الآراء حول هذه القضية بعد أن أخذت اتجاهين:

الاتجاه الأول:

وهو ينكر وجود المعرّب أو الأعجمي في القرآن الكريم. ومن أشد المتحمسين له الإمام الشافعي (توفي ٢٠٤ هـ)، وأبو عبيدة (توفي ٢١٠ هـ)، والطبري (توفي ٣١٠ هـ). وقد ناقش الشافعي القضية في كتابه «الرسالة»، وبدأها بقوله: «من جماع علم كتاب الله، العلم بأن جميع كتاب الله إنما أنزل بلسان العرب»[1]. أما أبوعبيدة فقد ناقشها في كتابه «مجاز القرآن» الذي شدد فيه المعارضة، وأغلظ الكلام على القائلين بوجود المعرّب في القرآن، فهو يقول: «أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فمن زعم أن فيه غير

---

(١) الرسالة / ٢٦، مقتبس في: اللفظ المعرب في القرآن الكريم ليونس شنتات ٣١، والبرهان ٢٨٧/١.

العربية فقد أعظم القول. ومن زعم أن كذا بالنبطية، فقد أكبر القول..»[1]. وأما الطبري فقد ناقش القضية في مطلع كتابه المشهور في التفسير، ورد بعنف على من أثبت وجود المعرّب في القرآن بقوله: «غير جائز أن يُتوهم على ذي فطرة صحيحة مقرّ بكتاب الله، ممن قد قرأ القرآن، وعرف حدود الله ـ أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه نبطي لا عربي، وبعضه رومي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعدما أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه جعله قرآناً عربياً»[2].

وخلاصة أدلة هذا الرأي:

١ ـ أن الله جل ثناؤه نفى عن كتابه صفة العجمة، ودلت آيات عديدة على عروبة لغة القرآن، وألفاظه. فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة فيه كتاب الله. قال الله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[3].

٢ ـ أن الاعتراف بوقوع اللفظ الأعجمي في القرآن يعطي المشركين الذين تحداهم القرآن أن يحاكوه ـ العذر بأن كلماته أعجمية لا يعرفونها، فكيف يستطيعون إذن محاكاته؟ فالله تعالى جعل القرآن «معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته. فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة»[4].

---

(١) مجاز القرآن ١/١٧، مقتبس في: اللفظ المعرب في القرآن الكريم، والبرهان ١/٢٨٧.
(٢) تفسير الطبري ١/١٨، والبرهان ١/٢٨٧.
(٣) الرسالة /٢٨، مقتبس في: اللفظ المعرب في القرآن/ ٣٠.
(٤) البرهان /٢٨٧.

٣ ـ أنه إن كان هناك تشابه بين بعض ألفاظ القرآن، ولغات أجنبية، فهذا لا يعني أن هـذه الألفاظ مـأخوذة من تلك اللغـات. أمـا مـا ورد عن بعض الصحابة من مثل قولهم: «الكِفْـلان»: ضِعْفان من الأجـر بلسان الحبشـة[١]، و«أوّبى»: سبّحي بلسان الحبشـة[٢]، وقـولهم: «في القـرآن من كل لسان» فيحمل على اتفاق اللفظين في اللغتين بمعنى واحد.

وقـد تبنى الطبري وجهـة النظر هـذه، ودافع عنهـا بشـدة في مـدخـل تفسيره، فقال: «إن الذي قالوه من ذلك غير خارج عن معنى مـا قلنا ـ من أجل أنهم لم يقولوا: هذه الأحـرف وما أشبههـا لم تكن للعرب كـلاماً، ولا كان ذاك لها منطقاً قبـل نزول القـرآن. . . فيكون ذلـك قولاً لقـولنا خـلافاً (أي: مخالفاً). وإنما قال بعضهم: حـرف كذا بلسـان الحبشة معنـاه كذا. . ولم نستنكـر أن يكون من الكـلام ما يتفق فيـه ألفـاظ جميـع أجنـاس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟»[٣].

الاتجاه الثاني:

وهو يثبت وجود المعرّب في القرآن، وأشهر من نادوا به: ابن عباس، وبعض الصحـابـة، والتـابعـين، وبعض اللغـويـين مثـل أبي عبيـد (تـوفي ٢٢٤ هـ)، والجواليقي (توفي ٥٤٠ هـ)، والسيوطي (توفي ٩١١هـ)، والشهـاب الخفـاجي (توفي ١٠٦٩هـ). وللسيـوطي كتابـان في الموضـوع سمى أولهـما: «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرَّب»، رتب فيه الكلمات القرآنية المعـربة

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ (الحديـد ٢٨).
(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ (سبأ ١٠).
(٣) ١/١٤، ١٥.

على حروف المعجم. وسمى ثانيهما: «المتوكلي»، ورتب فيه الكلمات المعرَّبة حسب اللغات التي أخذت منها. كما لخص كتابه «المهذب» في مؤلفه المشهور «الإتقان في علوم القرآن»[(١)].

ومن الأمثلة ذات الأصول الأجنبية التي وردت في كتاب اللغات لابن عباس:

١ ـ الطور: الجبل. وافقت فيه لغة العرب لغة السريانية[(٢)].
٢ ـ غيض الماء: نقص. بلغة الحبشة[(٣)].
٣ ـ إصري: عهدي. وافقت لغة النبطية[(٤)].
٤ ـ سجِّيل: طين. وافقت لغة الفرس[(٥)].
٥ ـ هُدنا إليك: تبنا. وافقت لغة العبرانية[(٦)].
٦ ـ مُتْكاً: الأترج. بلغة توافق القبط[(٧)].
٧ ـ الرقيم: الكتاب. بلغة الروم[(٨)].

ويلاحظ أن مجموع ما ورد من كلمات من هذاالنوع يبلغ أربعاً وعشرين كلمة فقط، ورد بعضها بعبارة: وافق لغة كذا.. وبعضها بعبارة: بلغة كذا..

---

(١) اللفظ المعرّب/٣٠.
(٢) لغات القبائل/ ٤٨.
(٣) السابق/ ١٣٥.
(٤) السابق/ ٦٩.
(٥) السابق ١٣٩.
(٦) السابق ١٠٥.
(٧) السابق ١٤٦.
(٨) السابق/ ١٧٤.

أما مجموعة الألفاظ القرآنية التي أوردها الجواليقي في كتابه «المعرَّب» باعتبارها ذات أصول أعجمية فعددها أكبر من مجموعة ابن عباس، ومنها: إبريق، إبليس، إنجيل، تَنُّور، جَهَنَّم، دينار، درهم، رَبَّانِيّون، زَنْجَبيل، سُنْدُس، سِجِّيل، سِجِلّ، سَقَر، سرادق، غسّاق، فردوس، قسطاس، قنطار.. وغيرها[1]. وقد كان الجواليقي يشير أحياناً إلى أصول الكلمة الأعجمية، وأحياناً يناقش هذه الأصول، ويردها، مؤكداً الأصل العربي للكلمة[2].

وأما مجموعة السيوطي فتزيد على مائة وعشرين كلمة. وقد نُظم بعضها في أبيات منها:

ولِينة فومُها رَهْوٌ وأَخْلَدَ مُزْ ... جَاة وسيِّدها القَيُّوم موقور
وقُمّل ثم أسفارٌ عنى كُتُبا ... وسُجّدا ثم رِبِّيُّون تكثير[3]

ويلاحظ على السيوطي أنه كان يكتفي بذكر الألفاظ، وما قيل من آراء حول أصلها الأجنبي، ولكنه لم يحاول أن يناقش هذه الآراء، أو يرجح بعضها، على عكس ما كان يفعله الجواليقي.

وخلاصة أدلة الفريق المؤيد:

١ ـ أن الألفاظ اليسيرة في القرآن الكريم بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً، كما أن القصيدة الفارسية لا تخرج عن فارسيتها بوجود لفظة عربية فيها[4].

---

(١) السابق/ ٤٠.
(٢) السابق/ ٤٢.
(٣) السابق/ ٤٥.
(٤) الإتقان ١/١٣٦.

٢ ـ أن هذه الألفاظ أعجمية في أصولها البعيدة، ولكن العرب أدخلوا عليها تغييرات فصارت على غرار كلامهم. وقد تسربت هذه الكلمات إلى لغة العرب عن طريق مخالطة العرب «لسائر الألسن بتجارات، وبرحلتي قريش، وبسفر مسافرين؛ كسفر أبي عمرو إلى الشام،.. وعمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة.. والأعشى إلى الحيرة.. فعلِّقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيَّرَتْ بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن.. فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكنها استعملتها العرب، وعرَّبتها فهي عربية بهذا الوجه»[١].

وقريب من هذا ما استدل به أبو عبيد، وإن حاول أن يظهر بمظهر الموفِّق بين الفريقين. يقول أبو عبيد: «والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية. ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب. فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فهو صادق»[٢].

٣ ـ أن وقوع بعض الألفاظ الأعجمية في القرآن لا يعيبه، ولا يقلل من بلاغته. بل هو مظهر من مظاهر البلاغة القرآنية. يقول السيوطي: «وقد رأيت الجويني ذكر لوقوع المعرَّب في القرآن فائدة أخرى، فقال:

---

(١) البرهان ١/٢٨٩.، والإتقان ١/١٣٦، ١٣٧.

(٢) البرهان ١/٢٩٠.

إن قيل إن (إستبرق) ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظة تقوم مقامها من الفصاحة لعجزوا عنها»[1].

أما رأينا فيتلخص فيما يأتي:

١ ــ فكرة التوافق بين اللغات إن قبلت في بعض الألفاظ التي قيل إنها معربة مثل:

أ ــ كلمة «إستبرق» التي قال عنها الرازي في «الزينة» إنها من موافقة اللفظ من لغة للَّفظ من لغة أخرى، ومعناهما واحد.

ب ــ وكلمة «تَنُّور» التي قال عنها ابن جنى[2]: «ويقال إن التنور لفظة اشترك فيها جميع اللغات من العرب وغيرهم. فإن كان كذلك فهو طريف.. فإن جاز أن يكون مشتركاً في جميع اللغات ما عدا العربية ـ جاز أيضاً أن يكون وفاقاً وقع فيها.. وقد يكون وفاقاً بين لغتين أو ثلاث، ثم انتشر بالنقل في جميعها».

جـ ــ وكلمة «كنز» التي اعتبرها الثعالبي في «فقه اللغة» في لغة العرب والفرس على لفظ واحد...

فإنّ هذه الفكرة لا يمكن قبولها في كل الألفاظ، ولا يصح أن تصبح قاعدة عامة يحمل عليها كل ما قيل عنه إنه من الألفاظ المعرَّبة في القرآن، كما حاول الطبري أن يقول في كل موقع، وكما وضحه في مقدمة تفسيره قائلاً: «ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس

---

(١) المهذب للسيوطي/ ١٥، مقتبس في: اللفظ المعرَّب/ ٣١.

(٢) الخصائص ٣/ ٢٨٥، ٢٨٦.

الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟»[1]. والصواب عنده أن يقال عن هذه الألفاظ إنها «عربية أعجمية»، أو «حبشية عربية»؛ إذ كانت الأُمَّتان لها مستعملتين في بيانها ومنطقها[2].

فكلمة «مسك» مثلاً يرجح اللغويون أن تكون هندية الأصل، لأن بلاد الهند هي موطن المسك، ومنها نقلت إلى بلاد الفرس، فالعرب، ولا يوجد لهذه الكلمة أسرة اشتقاقية في العربية، وإنما معنى المادة فيها يدور حول التعلق والكف أو الامتناع[3].

٢ ــ قبول وجود المعرَّب في القرآن الكريم لا يعني التسليم بكل ما قيل إنه معرب في القرآن الكريم:

أ ــ فبعضه من قبيل توافق اللغات كما سبق.

ب ــ وبعضه موجود في الأخوات الساميات، فلا يقال بتعريبه، أو اقتراضه من لغة أخرى، مثل كلمة «بعير»، التي عُدَّت آرامية الأصل، مع أنها في الساميات جميعاً. فهي من المشترك وليس المقترض. ومثل كلمة «طُوبَى» التي توجد في اللغات السامية بصور مختلفة.

جـ ــ وبعضه تبدو عليه المسحة العربية، وله قرابة اشتقاقية أو دلالية في اللغة العربية، مما يرجح أن يكون عربياً مثل:

* كلمة «سراب» التي قيل إنها فارسية. ولكن مشتقات هذه الكلمة في العربية لا تبتعد عن معناها. وكلها تتضمن معنى الخفاء، والخداع مما يدل على عروبتها.

---

(١) تفسير الطبري ١/١٤، ١٥.

(٢) السابق ١/١٦.

(٣) انظر اللفظ المعرَّب/ ٨٥.

* كلمة «قسورة» التي قيل إنها حبشية، مع أن مادتها في اللغة العربية تدور حول الغلبة، والقهر، والعزة، والشجاعة، والشدة والضخامة، والعظم.

* كلمة «مائدة» التي قيل إنها حبشية، مع أنه في العربية يقال: مَادَهُمْ: تداركهم من ورطة. وماد أهله: مارهم. وماد: تَحَرَّك. وماده: أعطاه. ومادهم: زادهم. ولذا تقول المعاجم العربية إن «مائدة» مشتقة من معنى «الميرة»، أو «الزيادة»، أو «الحركة»(١).

* كلمة «أبّ» التي قيل إنها آرامية أو عبرية أو سريانية، مع أن دلالتها على معنى الكلأ والمرعى في العربية تدل على عروبتها. ولذا يقول الشدياق: الأب للكلأ من معنى القصد، أو من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق؛ إذ هو عند العرب من أعظم ما يُتشوق إليه(٢). وجعل ابن فارس «الأبّ» من معنى التهيؤ والقصد، أو معنى الرعي، وفسر الأب في الآية الكريمة بالمرعى أو الكلأ الذي تعتلفه الماشية(٣).

٣ ـ أن ظاهرة اختلاط الأصول اللغوية موجودة في كل اللغات، ولذا ينبغي التنبه إلى أن المادة الواحدة قد تحوي في داخلها فروعاً أجنبية، وأخرى عربية. ولا يصح خلط الفروع بعضها ببعض. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ كلمة «بعل» التي وردت في الآيات الآتية:

* ـ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾(٤)

---

(١) انظر لسان العرب، وأساس البلاغة.

(٢) سر الليال، في القلب والإبدال لأحمد فارس الشدياق/ ٣٢.

(٣) معجم المقاييس ١/ ٦. ويردّ الشدياق (سر الليال/ ٩٨) كلمة «الجِبْت» إلى الأصول العربية، ذاكراً أنها مأخوذة من معنى الكراهية.

(٤) الصافات ١٢٥.

* ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾[1].
* ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[2].

فقد تصادف اتفاق اللفظ العربي «بعل» بمعنى الزوج (أو المالك) مع اللفظ الأعجمي «بعل» اسم صنم كان لقوم إلياس[3].

ولا يصح خلط أصليهما، كما لا يصح دمجهما في المعاجم في مادة واحدة.

ب ـ كلمة «مرج» التي يدور معناها العربي حول القلق والاضطراب، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[4]. **أما معناها الفارسي فيدور حول الأرض الواسعة التربة المِعشاب. ولذا قيل «إن ألفاظ هذه الأسرة اللغوية بعضها يرجع إلى أم عربية، وبعضها إلى أم فارسية»، فلا ينبغي خلطهما**[5].

٤ ـ أنه يجب التحفظ قبل الحكم بتعريب أي كلمة، كما يجب الرجوع إلى الأصول الاشتقاقية، والعلاقات الدلالية، والحياة الاجتماعية قبل إصدار الحكم. ولذا يقول ابن السرَّاج: «مما ينبغي أن يحذر منه كل الحذر أن يُشتق في لغة العرب شيء من لغة العجم، فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت»[6]. ويقول أحمد فارس الشدياق: «إني لا أنكر أن يكون قد دخل في لغة العرب ألفاظ من لغة العجم، وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عندهم كلفظة الإستبرق مثلاً. إلا أنه ما كان

---

(١) النساء ١٢٨.
(٢) هود ٧٢.
(٣) سر الليال/ ٦٨.
(٤) سورة ق آية ٥.
(٥) أثر الدخيل على العربية الفصحى لمسعود بوبو/ ٢٥٤.
(٦) الجاسوس على القاموس لأحمد فارس الشدياق/ ٣١١.

بخلاف ذلك لا يصح أن يحمل عليه، فلا يصح أن يقال إن اللجام معرَّب؛ لأن العرب عرفت الخيل، وما يلزم لها قبل جميع الأمم»[1].

---

(١) منتخبات الجوائب/ ١٩٠.

الباب الثاني

الجانب الفني والبلاغي

(الفصل الأول)
أسرار التعبير القرآني

١ ـ مقدمـــة:

منذ نزل القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى، ولغته موضع احتفاء العلماء من ذوي التخصصات المختلفة، وبيانه محور لكثير من الدراسات والأبحاث المتطلعة إلى كشف غوامضه، واكتناه أسراره.

ولقد كان للقرآن فضل تجميع العرب على لغة واحدة، بما استجمع من المحاسن اللغوية، وما حوى من صور الكمال البياني. فلولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغة واحدة، ولتبدلت لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد، ثم كان مصيرها العفاء والاندثار لا محالة. إذ لا يخلفهم عليها أحد إلا من هو أشدّ منهم اختلاطاً، وأكثر فساداً. وذلك معنى من أبين معاني الإعجاز اللغوي، إذ لا تجده اتفق في لغة من اللغات غير العربية. وهو لم يتفق لها إلا بالقرآن.

ومع إيماننا بأن أسرار التعبير القرآني تفوت كل محاولة لتحديدها، وتجاوز كل طاقات النفس البشرية على مشارفة آفاقه الرحبة، وتسم بالعجز كل اجتهاد لاجتلائها ـ فإننا سنحاول أن نرصد بعض مقوماتها، وأن نلقي نظرة عجلى على أهم جوانبها وهي:

أ ـ جانب الصوت والأداء.

ب ــ المفردة القرآنية.
جـ ــ خصائص التركيب وتأليف الجمل.
د ــ مناسبة خواتم الآيات لمضمونها.

٢ ــ جانب الصوت والأداء:

يشمل هذا الجانب صوراً متعددة من الأداء سنشير من بينها إلى:
أ ــ خواص التلاوة.
ب ــ تلاؤم النسيج الصوتي.
جـ ــ الفاصلة القرآنية.

أما خواص التلاوة: فقد لخصها القسطلاني في «لطائف الإشارات» قائلاً عن التجويد: أن يأتي بالقراءة مجودة الألفاظ، وهو تقويم حروفها، وإعطاؤها حقها، وتوفيتها جانب مستحقها، من غير إفراط ولا تفريط،، ولا تكلف ولا تعسف ولا تخليط، سالمةً من تمضيغ اللسان، وتقعير الفم، وتعويج الفك، وتقطيع المدّ، وتطنين الغنّات.. إلى غير ذلك مما تنفر عنه الطباع، وتمجه القلوب والأسماع[1].

فإذا جمع القارىء إلى هذا حسن الصوت كان أفضل. وقد وردت في هذا أحاديث كثيرة، كقول الرسول ﷺ: «لَلَّهُ أشدُّ أَذَناً (ميلا بأذنه إلى جهة من يسمعه) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته»[2] كما روى البخاري في شأن ابن مسعود أنه كان يتفنن في تجويد

(١) لطائف الإشارات ١/٢٠٧.
(٢) السابق ١/٢١٣، ٢١٤.

القرآن وترتيله، وأن الرسول كانت تذرف عيناه حين يسمع القرآن بترتيل ابن مسعود[1].

بل ذكر القسطلاني أن التطريب بالقراءة مسموح به، لما له من أثر في رقة القلب وإجراء الدموع، وإثارة الخشية، وإقبال النفوس على استماعه، ولكن بشرط ألا يخل القارىء بشيء من الحروف عن مخرجه، وبشرط عدم الخروج عن حد القراءة بالتمطيط الذي يشوش النظم، أو يفرط في المد، أو في إشباع الحركات حتى تتولد ألف، أو واو، أو ياء، أو يدغم في غير موضع الإدغام[2].. إلخ.

وقد ذكر العلماء في معنى مدارسة جبريل للنبي ﷺ أن معناه «تعلّم مخارج الحروف، وكيفية النطق بها، ليكون سُنّة في حق الأمة، لتجويد التلامذة على الشيوخ قراءاتهم». ويعلّق القسطلاني قائلاً: «ولا مرية أنه كما يُتعبد بفهم معاني القرآن، وإقامة حدوده، يُتعبد بتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة عن أئمة القراء ومشايخ الإقراء»[3].

ويدخل في إجادة التلاوة معرفة أحكام الوقف، وكما يقول القسطلاني: «لـمّا كان من عوارض الإنسان التنفس، اضطر القارىء إلى الوقف، وكان للكلام بحسب المعنى اتصال يقبح معه الوقف، وانفصال يحسن معه القطع ـ احتيج إلى قانون يعرف به ما ينبغي من ذلك»[4].

وقد عرَّف العلماء الوقف بأنه قطع الصوت على الكلمة زمناً يُتنفس

---

(1) السابق ١/٢١٠.
(2) السابق ١/٢١٥، وما بعدها.
(3) السابق ١/٢٠٩.
(4) السابق ١/٢٤٧.

نيه عادة بنيَّة استئناف القراءة»، وفرقوا بينه وبين السكت الذي هو مجرد قطع الصوت زمناً دون زمن الوقف من غير تنفس، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ.. ﴾[1].

ولأهمية الوقف في التفريق بين المعاني قال أبو حاتم: «من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن». ومن أوضح الأمثلة على أهمية الوقف قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[2]. فلو لم يقف على: «قولهم» لأوهم أن الجملة التالية وهي: «إن العزة لله جميعاً» من قولهم[3].

وأما تلاؤم النسيج الصوتي في القرآن فقد عبر عنه الرافعي قائلاً: «هو تساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم؛ بالهمس، والجهر، والقلقلة، والصفير، والمد، والغنة، ونحوها»[4]. وذكر الرماني (من علماء القرن الرابع) في رسالته عن إعجاز القرآن ـ بعد أن قسم الكلام إلى متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا ـ ذكر ما نصه: «والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله.. والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف. فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً. وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد. وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد؛ لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان.. ومخارج الحروف مختلفة. فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك»[5].

---

(١) يس ٥٢. وانظر لطائف الإشارات ١/٢٤٨.

(٢) يونس ٦٥.

(٣) لطائف الإشارات ١/٢٥١.

(٤) إعجاز القرآن/ ٢١٨.

(٥) النكت في إعجاز القرآن/ **٨٧** ـ ٨٩.

أما ابن سنان الخفاجي فيرد التنافر إلى قرب المخرج وحده مستدلاً على ذلك بكلمة «ألم» غير المتنافرة، مع أنها مبنية من حروف متباعدة المخارج «لأن الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين، واللام متوسطة بينهما» ثم يقول: «ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجهاً في التنافر»(١).

بل قد تجاوز التلاؤم الصوتي في القرآن تركيب الكلمات، وتعديل أصواتها لتحقيق السهولة واليسر ـ تجاوز هذا إلى نوع من التوازن الصوتي في فواتح السور. ولذا يقول الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن»: «إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً(٢)، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة. وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره»(٣).

وقد قسموا هذه الحروف إلى أقسام، منها المهموسة والمجهورة.. وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان. ويضيف الباقلاني إلى ذلك أن نصف حروف الحلق (وهي العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين)، وهو العين والحاء والهاء قد ورد في هذه الفواتح. وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف حلق.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ ١٦٩.

(٢) عدد الحروف في الحقيقة ثمان وعشرون، لا تسعة وعشرون؛ لأن الألف لا تعد من الحروف التي بني عليها كلام العرب، فهي ترد دائماً إما إلى الواو أو الياء.

(٣) الحروف هي: همزة، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي.

كذلك يذكر أن نصف الحروف الشديدة (وهي مجموعة في: أجدت طبقك) وهو الطاء والقاف والكاف والهمزة مذكور في جملة تلك الحروف، وكذلك نصف الحروف المطبقة (وهي الصاد والضاد والطاء والظاء) وهو الطاء والصاد مذكور في الفواتح[1].

ألا يعد هذا التنصيف الدقيق إشارة واضحة، ودليلاً بيناً على إعجاز القرآن، وكونه من عزيز حميد، علام للغيوب؟.

وأما الفاصلة: فقد راعاها القرآن تحقيقاً لجمال النظم، ورعاية للجرس الصوتي والمشاكلة اللفظية[2]. والفاصلة هي كلمة آخر الآية، أو رأس الآية كما يسميها بعضهم. وهي تقابل القافية في الشعر، والسجعة في النثر[3].

ولمسايرة طبيعة العرب في الترنم والإنشاد ختمت كثير من الفواصل بالمد والنون. ولذا يقول سيبويه: «إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والواو

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني/ ٧٩، ٨٠. ونلفت النظر كذلك إلى بعض النتائج التي توصل إليها الدكتور رشاد خليفة باستخدام الكومبيوتر، ومنها تفوق حرف الصاد حسابياً في سورة ص، وحرف القاف في سورة ق، وحرف النون في سورة القلم التي تبدأ بالنون..

(٢) يتحرج كثير من العلماء من استعمال كلمة «سجع» مع القرآن حتى لا يوصف القرآن بما كان يوصف به سجع الكهان، ويفضلون عليها كلمة «فاصلة». وقد فرق بعضهم بين السجع والفاصلة من ناحية أن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ، أما الفاصلة فيتبع اللفظ فيها المعنى. ويرى ابن سنان في «سر الفصاحة» أنه لا فرق بين السجع والفاصلة، وأن الفيصل في القبول أو الرفض هو عدم التكلف. فإذا أتى التماثل أو التقارب الصوتي طوعاً سهلاً، وتابعاً للمعاني فهو المحمود سواء كان سجعاً أو فاصلة. ولم يأت في القرآن إلا ما هو من هذا الضرب لعلوه في الفصاحة (انظر: البرهان ٥٣/١، ٥٤، والإتقان ٩٦/٢ - ٩٨، والإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطىء/ ٢٣٥ وما بعدها، والفاصلة في القرآن لمحمد الحسناوي/ ٩٨ وما بعدها).

(٣) الفاصلة في القرآن/ ١٣، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٨.

والياء.. لأنهم أرادوا مد الصوت»[1]. ويمكن أن يضاف إلى النون الميم، فهما الصوتان الأنفيان الوحيدان في اللغة، مما يسمح بالتنغيم والترديد[2].

وقد تبين بالإحصاء الفعلي غلبة هذه الأصوات ومشابهاتها. فسورة البقرة تحتوي على مائتين وست وثمانين آية، خص النون منها مائة واثنتان وتسعون آية، والميم أربع وخمسون آية. وسورة النساء تحتوي على مائة وست وسبعين آية، خص الميم منها ست وخمسون آية، والراء ثلاث وثلاثون آية، واللام ثمان وعشرون آية، والنون سبع عشرة آية.

وتغلب النون في سورة آل عمران، يليها الميم، وكذلك الترتيب في حروف المائدة. وفي سورة الرحمن ثمان وسبعون آية، خص النون منها تسع وستون، والميم سبع آيات، والراء آيتان.

ومع القيمة الخاصة للنون والميم نجد القرآن يلوّن وينوّع أواخر الفواصل ليحدث تنوعاً في الإيقاع تبعاً لنوع الموضوع والتعبير، وإن كان الغالب الانتهاء بحروف المد واللين، وإلحاق النون.

وقد أدت مراعاة القرآن للفواصل إلى جملة تغييرات خرجت ببعض التراكيب عن النمط العادي، وقد شمل ذلك:

١ ــ التقديم والتأخير، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[3] لمراعاة الألف التي سادت السورة. وقارن هذا بقوله تعالى

---

(١) الكتاب ٢٩٨/٢، ٢٩٩، والبرهان ٦٨/١، والإتقان ١٠٥/٢.

(٢) جاء ترتيب شيوع الأصوات في الفواصل القرآنية على النحو التالي: النون= ٣١٥٢، والميم= ٧٤٢، والراء= ٧١٠، والدال= ٣٠٨، والياء= ٢٤٥، والباء= ٢٢١، واللام= ٢١١.. إلخ (انظر: الفاصلة في القرآن/ ٢٩٦).

(٣) طه ٧٠.

في سورة الشعراء:(١) ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾. فقد ختم بهارون مراعاة للفاصلة، حيث تسيطر النون المسبوقة بمد على سورة الشعراء. وقبل هاتين الآيتين: الغالبون - يأفكون - ساجدين.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ، وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾(٢)، حيث عدل البيان القرآني عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى على الآخرة، مراعاة للفواصل(٣).

٢ - زيادة حرف لأجلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾(٤)، لأن معظم الآيات ينتهي بألفات منقلبة عن تنوين وقفاً، فزيد على النون ألف لمناسبة نهايات الفواصل، وقبل هذه الآية: مسطورا، غليظا - أليما - بصيرا، وبعدها: شديدا - غرورا - فرارا. . إلخ.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾(٦) وكذلك إلحاق هاء السكت في قوله تعالى ﴿ماهيهْ﴾ لتحقق اتفاق الفواصل مع ما قبلها وما بعدها: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ. وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾(٧).

٣ - حذف ياء العلة مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾(٨)، بدلا من: «يسرى»، لوجودها مع: الفجر - عشر - الوتر. . إلخ.

---

(١) الشعراء ٤٧، ٤٨.

(٢) الليل ١٢، ١٣.

(٣) انظر البرهان ١/٦٢، والإتقان ٢/٩٩.

(٤) الأحزاب ١٠.

(٥) الأحزاب ٦٧.

(٦) الأحزاب ٦٦.

(٧) القارعة ٩ - ١١. وانظر البرهان ١/٦١، والإتقان ٢/١٠٠.

(٨) الفجر ٤، وانظر البرهان ١/٦٢، والإتقان ٢/ ٩٩.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[1] مع: بعاد - العماد - البلاد - الأوتاد.. إلخ.

٤ - صرف الممنوع من الصرف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾[2] وقبلها: سرورا - حريرا - زمهريرا - تذليلا، وبعدها: تقديرا - زنجبيلا - سلسبيلا.. إلخ.

قال الزمخشري: وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة.. أجرى الفواصل مجرى أبيات الشعر.

٥ - حذف كاف الضمير، كما في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ... أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ..﴾[3].

٦ - إفراد ما أصله الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾[4]، فالأصل: «وأنهار»، ووحد لمراعاة الفاصلة. وعكسه جمع ما أصله الإفراد، كقوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[5]، فالمراد: «ولا خلة» لكن جمعه لأجل مناسبة رءوس الآي[6].

٧ - العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال كقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ، وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[7]، حيث لم يقل «وفريقاً قتلتم»، كما سوى بينهما في

(١) الفجر ٩.
(٢) الإنسان ١٥، وانظر البرهان ١/٦٦، والإتقان ٢/٩٩، ١٠٠.
(٣) الضحى ١ - ٨، والتقدير: قلاك - فآواك - فهداك - فأغناك. وانظر الإتقان.
(٤) القمر ٥٤.
(٥) إبراهيم ٣١.
(٦) البرهان ١/٦٣، ٦٤، والإتقان ٢/١٠٠.
(٧) البقرة ٨٧.

آية أخرى وهي: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[1].

٨ ـ بل إننا نجد بعض القراء يختار إبدال حرف بآخر مراعاة للفاصلة. فقد قرأ الزهري، وأبو عبدالرحمن السُّلَمي، وأبو رجاء، والشعبي الآية: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيٓ﴾[2] - قرأوها: لذكرىٰ[3]. قال الطبري[4]: أراد بها الإضافة، وصيرها ألفا للتوفيق بينه وبين رءوس الآيات قبله وبعده. وقال الفراء: ياء إضافة حولت ألفاً لرءوس الآيات. وقال النحاس: فعل ذلك لتتفق رؤوس الآيات[5].

٩ ـ ونجد بعض القراء يفضل لفظاً على آخر بسبب ما يحققه من انسجام وتلاؤم في الفاصلة، مع ما قبلها وما بعدها. فقد قرأ حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم وغيرهم: «أإذا كنا عظاما ناخرة»، بدلاً من «نخرة»[6]. وقد فضل الفراء القراءة الأولى - وهي قراءة الأقلية - لأن الآيات الأخرى بالألف (الراجفة - الرادفة - واجفة - خاشعة - الحافرة - ناخرة - خاسرة - واحدة)[7].

ويلاحظ هنا عدة أمور:

١ ـ أن جميع الفواصل في القرآن لم تقتصر على مراعاة حسن النظم فقط،

---

(١) الأحزاب ٢٦، وانظر البرهان ١/٦٧، والإتقان ٢/١٠٠.
(٢) طه ١٤.
(٣) معجم القراءات ٤/٧٤.
١٦/١١٢.
(٥) إعراب القرآن ٢/٣٣٤.
(٦) النازعات ١١، وانظر معجم القراءات ٨/٥٦.
(٧) معاني القرآن ٣/٢٣١.

وإنما راعت مع ذلك ـ وقبله ـ جانب المعنى، فحققت بذلك إيقاعها الفريد، وبلاغتها العليا. ولذا يقول الرمّاني في رسالته «النكت في إعجاز القرآن»: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها»[1]. وعلى سبيل المثال:

أ ـ حذف كاف الضمير في سورة «الضحى» في «قلى»، «فآوى» «فهدى»، «فأغنى» ـ لم يراع الفاصلة وحدها، وإنما حقق حكمة بلاغية. فقد حذفت من «قلى» لتجنب خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك. لما في القلى من حسّ الطرد، والإبعاد، وشدة البغض.. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء. وحذفت كاف الخطاب في الفواصل بعدها لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها»[2].

ب ـ التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾[3] ليس لمراعاة الفاصلة وحدها، ولكن لمراعاة المعنى كذلك؛ حيث جاء الكلام «في سياق البشرى والوعيد، إذ الآخرة خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى، وبهذا الملحظ البياني قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى: وللآخرة خير لك من الأولى..»[4].

---

(١) ص ٩٠.
(٢) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء / ٢٥٠.
(٣) الليل ١٢ ١٣ .
(٤) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء/ ٢٥٨.

ومثـل هذا يقـال في الآية القـرآنية: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1]، التي جاءت ضمن عشر آيـات اقترن فيهـا مـوسى وهـارون، وكـانت الآيـة الـوحيـدة التي قـدم فيهـا هـارون عـلى موسى. فبالإضافة إلى ما يحققه هذا التقديم والتـأخير من مـراعاة النسق، فيـه فوائـد أخرى منهـا إعادة القصـة الـواحـدة بـألفـاظ مختلفة، ومنها التنويه بشأن هارون لأنه كان أفصح من موسى[2]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[3]. فقد حقق التقديم والتأخـير مراعـاة الفاصلة إلى جـانب ما حققـه من تشويق بتأخير الفاعل، وتطلع النفس إلى معرفته، فإذا جاء بعـد ذلك وقع بموقع[4].

جـ ـ تغيير نمط التعبير، كـما في قولـه تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[5].

حيث لم يقل ـ كما هو متوقع: «وإما أن نلقي».

فتغيـير النمط لم يحقق مـراعـاة النغم المـوسيقي فحسب، ولكنـه يكشـف عن رغبة القرآن في تصوير نفسيـة هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكـونوا يـوم تحـدوا مـوسى بسحـرهم خـائفـين أو شـاكّـين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مؤزر عاجل[6].

---

(١) طه ٧٠.

(٢) الفاصلة في القرآن / ١١٧ وما بعدها.

(٣) طه ٦٧.

(٤) البرهان ٦٢/١، والإتقان ٩٩/٢.

(٥) طه ٦٥.

(٦) من بلاغة القرآن / ٦٢.

٢ ـ أن الفواصل تبنى على الوقف، ولهذا شاع توارد الفواصل المختلفة في الحركة الإعرابية، كما في قوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، مع تقدم: ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ و﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(١). وكذلك: ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، مع تقدم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، و﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، و﴿فَانتَصِرْ﴾(٢).

٣ ـ وردت الفواصل القرآنية متماثلة في حروف مقاطعها، وتسمى المتجانسة أو ذات المناسبة التامة، مثل:

أ ـ ﴿وَالطُّورِ / وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ / فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ..﴾(٣).

ب ـ ﴿وَالْفَجْرِ / وَلَيَالٍ عَشْرٍ /وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ..﴾(٤).

كما وردت متقاربة في حروف مقاطعها، وتسمى ذات المناسبة غير التامة، مثل:

أ ـ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ / مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ..﴾(٥) (تقارب الميم والنون).

ب ـ ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ /.. هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(٦) (تقارب الدال والباء).

٤ ـ وردت الفواصل القرآنية بصور شتى، فقد جاءت:

أ ـ متوازية، تتفق فيها الكلمتان في الوزن وفي حرف الفاصلة، مثل: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ / وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾(٧).

---

(١) الصافات ٩ ـ ١١.

(٢) القمر ٨ ـ ١١، وانظر الفاصلة في القرآن / ١٣٦.

(٣) الطور ١ ـ ٣.

(٤) الفجر ١ ـ ٣.

(٥) الفاتحة ٣، ٤.

(٦) ق ١، ٢ وانظر البرهان ١/٧٢ ـ ٧٥، والإتقان ٢/١٠٤، والفاصلة في القرآن/ ١٤٥ وما بعدها.

(٧) الغاشية ١٣، ١٤.

ب ـ وغير متفقة في الوزن ولكن في الحروف فقط مثل:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا / وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾(1).

جـ ـ ومتوازنة، أي متفقة في الوزن دون الحروف مثل:

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ / وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(2).

د ـ كما جاءت محققة الاستلزام، وهو أن تلتزم حرفاً أو أكثر قبل حرف الفاصلة مثل:

* ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ / وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾(3). (الهاء قبل الرء).

* ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ / وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾(4). (الراء قبل الكاف).

* ﴿ وَٱلطُّورِ / وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾(5). (الطاء والواو قبل الراء).

* ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ / .. ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾(6). (الصاد والراء والواو قبل النون)(7).

5 ـ قد تنتهي السورة بفاصلة منفردة الإيقاع تكون كالمقطع الأخير المومىء إلى الانتهاء، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(8).

---

(1) نوح 13، 14.

(2) الصافات 117، 118.

(3) الضحى 9، 10.

(4) الشرح 1، 2.

(5) الطور 1، 2، وانظر البرهان 1/75، 76، والإتقان 2/104، 105، والتعبير الفني في القرآن/ 207، والفاصلة في القرآن/ 148 وما بعدها.

(6) الأعراف 202، 201.

(7) الفاصلة في القرآن/ 146.

(8) الضحى 9 ـ 11، وانظر التعبير الفني في القرآن/ 208، والفاصلة في القرآن / 148.

٣ ـ المفردة القرآنية:

لا تقف أسرار التعبير القرآني عند الأصوات والحروف، بل تمتد لتشمل المفردات والكلمات. وأنت تضع اللفظة القرآنية في تضاعيف الكلام ـ كما يقول الباقلاني ـ أو تقذف بها ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويُرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما تُقرن به، كالدُّرَّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد.

وللمفردة القرآنية خصائص كثيرة نذكر من أهمها:

١ ـ تلاؤم نسيجها الصوتي، وجمال وقعها في السمع، وخلوها من التنافر، كما سبق أن ذكرنا.

٢ ـ استغلالها الجرس الموسيقي للكلمة، وما تحويه من ظلال للمعاني في إثراء معنى الكلمة، والإيحاء بمضمونها قبل أن يوحي مدلولها اللغوي به. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(١). فالمتأمل في كلمتي «عسعس» و«تنفس» يشم رائحة المعنى قوية دون حاجة إلى الرجوع إلى معجم.

ب ـ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(٢). فقد اشتمل على أداء فني قام به اللفظ «اثّاقلتم» بكل مايتكون من حروف، وبصورة ترتيب

---

(١) التكوير ١٧، ١٨.

(٢) التوبة ٣٨.

هـذه الحروف، وحـركـة التشـديـد عـلى الحـرف اللثـوي الثـاء، والمدّ بعده، ثم مجيء القاف الذي هـو أحد حـروف القلقلة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخـرج صوتهـا من الأنف. . . . هـذا بالإضـافة إلى مـا يشعر بـه البطء في نطق الكلمة ذاتها من حركة بطيئة موجودة من المتثاقل.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[1] حيث تصـور «يُدَعُّون. دَعّا» مدلولها بجرسهـا وظلها جميعاً. والـدعُّ هو الـدفع في الظهر بعنف، وهو في كثير من الأحيـان يجعل المدفوع يُخـرج صـوتاً غـير إرادي فيه عـين ساكنـة، يكون في جـرسه أقـرب ما يكون إلى جرس الدّع[2].

د ـ قـولـه تعـالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[3]. فكلمـة منقعر تدل على أن النخيل قد انقلعت أصولها من باطن الأرض، ولم تعـد إلا عُمْـدانـا قـائمـة عـلى سـطحهـا، فكـأنها قلعت من قعرها[4].

٣ ـ اعتـدالهـا في الـتركيب والـوضـع حتى جـاءت في معـظمهـا من أعــدل التراكيب، وهو الثلاثي الذي يبدأ بحرف، وينتهي بحرف، ويتخذ من الحـرف الثالث وصلة بـين الحرفـين. ويقل كثـيراً في القرآن الـربـاعي،

---

(١) الطور ١٣.
(٢) التعبير الفني في القرآن/ ١٨١، ١٨٢.
(٣) القمر ١٩، ٢٠.
(٤) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٤١٣.

حيث لا يكاد يبلغ بضع عشرات من الكلمات، ويخلو تماماً من الخماسي إلا ما كان من لفظ عُرِّب[(١)].

٤ ـ خلوها من اللفظ الغريب المستنكر، أو الوحشيّ المستكره، مما جعلها قريبة إلى الأفهام، يبادر معناها لفظها إلى القلب، ويسابق المغزى منها عبارتها إلى النفس. وكما يقول الإمام عبدالقاهر الجرجاني: «وأنت تقرأ السورة من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئاً. وتتأمل ما جمعه العلماء في غريب القرآن فترى الغريب منه ـ إلا في القليل ـ إنما كان غريباً من أجل استعارة هي فيه مثل: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[(٢)]، ومثل﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[(٣)]، دون أن تكون اللفظة غريبة في نفسها»[(٤)] . وحين ترد في القرآن كلمة غريبة، أو لفظة شديدة فإنها تكون مطلوبة في محلها، محمودة لوقوعها موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله تعالى في وصف يوم القيامة: ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[(٥)]. فهي هنا محمودة في موقعها، مطلوبة في سياقها، لتبعث في النفس إيحاءات ممتزجة بالخوف والقلق والاضطراب. وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضِيزَى في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[(٦)] (أي جائرة ظالمة). ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه. ولو فتشت في مفردات اللغة عن كلمة تحل

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي/ ٢٢٩.

(٢) البقرة ٩٣.

(٣) الحجر ٩٤.

(٤) دلائل الإعجاز/ ٣٦٠.

(٥) الإنسان ١٠.

(٦) النجم ٢٢.

محلها ما وجدت. فإن السورة التي وردت فيها الكلمة، وهي سورة النجم مفصلة كلها على الألف: ﴿**والنجم إذا هوى / ما ضل صاحبكم وما غوى / وما ينطق عن الهوى..**﴾ الخ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل. ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام، وفي معرض الرد على المشركين الذين جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله، فقال تعالى: ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذن قسمة ضيزى**﴾. فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها»[1].

٥ ـ دقتها في الاستعمال، حتى تبدو بطريقة استعمالها، وبدقة دلالتها كأنها فوق اللغة. فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه مثل هذه الألفاظ إذا أرادها، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في مواقعها؛ لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع، وتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وتكوّن بتركيبها المعجز طبقة خاصة داخل طبقات اللغة. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[2]. فليست الإطاقة هي الاستطاعة، وإنما هي بذل أقصى الجهد، والوصول إلى نهاية الاحتمال، فحين جاوز احتمال الصوم الطاقة إلى ما لا يطاق سقط التكليف. وبهذا التفسير للإطاقة تنتفي الحاجة إلى تقدير حرف نفي محذوف كما قال بعض المفسرين الذين ساووا ـ خطأً ـ بين معنى الإطاقة ومعنى الاستطاعة[3].

كما تتمثل هذه الدقة أظهر ما تتمثل في لحظ الفروق الدقيقة بين

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي / ٢٣٠.
(٢) البقرة ١٨٤.
(٣) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء/ ١٨٣، ١٨٤.

الصفات، واختيار الصفة الملائمة، حتى تبدو كأنها الاختيار الوحيد من جملة اختيارات، كما في الأمثلة الآتية:

أ ـ قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾(١)، بعد قوله تعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾. فقد قصد هنا، بالتنويه بعظمة الأجر، التعويض عن ترك الانشغال بالأموال والأولاد. ولهذا فضّل القرآن كلمة «عظيم» على «كبير». والفرق بينهما أن العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكأن العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير.

ب ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾(٢). فقد يتراءى أن وصف الشقاق، وهو الخلاف، بالقوة أَوْلَى من وصفه بالبعد. ولكنّ التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء. ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن(٣).

جـ ـ ومثل هذا يقال في كلمة «عريض» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾(٤) بدلا من «واسع» أو «كثير». وكذلك كلمة «غليظ» في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾(٥).

كما تبدو الدقة في براعة التشبيه والتمثيل. فبدلا من أن يقول تعالى: « ولا يظلمون شيئاً »، أو «ما يملكون شيئاً » قال ﴿ وَلَا

---

(١) الأنفال ٢٨.
(٢) البقرة ١٧٦.
(٣) من بلاغة القرآن/ ٦٢، ٦٣.
(٤) فصلت ٥١.
(٥) النساء ٢١.

يظلمون فتيلا ﴾[1] (والفتيل ما كان في شق النواة، أوما يفتل بين الأصبعين من الوسخ)، كما قال: ﴿ ولا يظلمون نقيرا ﴾[2] (والنقير النكتة في ظهر النواة)، وقال أيضاً: ﴿ما يملكون من قطمير﴾[3] (والقطمير القشرة الرقيقة على النواة). وهي أشياء يضرب بها كلها المثل في التفاهة والحقارة والقلة.

ومن الدقة كذلك[4] اختيار الكلمة التي توحي بالمعنى فيما لا يحسن التصريح به. وهو ما يعرف باسم «التلطف في التعبير». وأوضح مثال لذلك ما أطلقه القرآن من ألفاظ كثيرة للتعبير عن العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة. وقد كان في كل مرة يختار اللفظ الذي يسهم في أداء المعنى مصحوباً بقوة جرسه ونوع صيغته، وما يملكه من إيحاء:

* ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[5].
* ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾[6].
* ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾[7].

---

(١) النساء ٤٩، والإسراء ٧١.

(٢) النساء ١٢٤.

(٣) فاطر ١٣.

(٤) لا تتمثل الدقة القرآنية في اختيار الكلمة فقط، ولكن في تجنبها كذلك. وحينئذ لا يملك المرء عند التأمل إلا أن يسلّم بلطف العبارة، ورقة التركيب وعذوبته. فالله تعالى يقول: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا﴾ (القصص ٣٨). وكان من الممكن أن يستعمل لفظة «آجر»، أو «قرميد»، ولكنه وضع مكانهما كلمة «الطين» التي تجمع إلى رقتها شيئاً من السخرية والتحقير لشأن فرعون الذي لم يجد وسيلة لبلوغ أسباب السموات ليطّلع إلى إله موسى إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين الذي يوحي بالتفاهة والحقارة (إعجاز القرآن للرافعي/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٥) البقرة ١٨٧.

(٦) النساء ٢١.

(٧) الأعراف ١٨٩.

* ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾(١).
* ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾(٢).
* ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٣).
* ﴿بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٤).
* ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾(٥).
* ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾(٦).

٦ ـ تلاؤم حركاتها في الوضع والتركيب، وجريها مجرى حروفها في أمر الفصاحة، وتهيئة بعضها لبعض، ومساندة بعضها بعضا. حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيا كان، أو ربما كانت غير مستساغة في الكلام، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد مهدت لها حتى جاءت متمكنة من موضعها،، وكانت في هذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة. ومن ذلك لفظة «النُّذُر» جمع نذير. فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلاً عن صعوبة الراء ونبوّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. ولكن هذه اللفظة جاءت في القرآن على العكس، وانتفى عنها نبوّها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾(٧). تأمل موضع القلقلة

(١) البقرة ٢٢٣.
(٢) البقرة ٢٣٧.
(٣) النساء ٢٤.
(٤) البقرة ١٨٧.
(٥) النساء ٤٣، والمائدة ٦.
(٦) النساء ٢٣. وانظر: من بلاغة القرآن/ ٥٧ وما بعدها.
(٧) القمر ٣٦.

في دال «لقد» وفي الطاء من «بطشتنا». وتأمل الفتحات المتوالية بعد الشين إلى ما بعد الراء، مع الفصل بالمد كأنه تثقيل لخفة تتابع الفتحات تمهيداً للانتقال إلى ثقل الضمة التي أصابت موضعها، وجاءت مساندة لراء «النذر»[1].

٧ ـ استخدام الكلمة القرآنية الواحدة في أكثر من معنى، وهو فن ألف فيه العلماء[2] تأليفاً مستقلاً تحت اسم «الوجوه والنظائر»[3] ومن أمثلته ما ورد في «إصلاح الوجوه والنظائر» للدامغاني (من علماء القرن الخامس الهجري):

الإثم: على أربعة وجوه:

أ ـ فوجه منها: الإثم يعني الشرك، فذلك قوله تعالى في سورة المائدة

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) ظهر أول هذه المؤلفات في أوائل القرن الثاني الهجري. وقد وصلنا كتاب لمقاتل بن سليمان البلخي (توفي ١٥٠ هـ) يحمل اسم «الوجوه والنظائر» وكتاب آخر لهارون بن موسى الأزدي (توفي ١٧٠ هـ) بنفس الاسم. ثم تتابعت المؤلفات بعد ذلك حتى بلغت القمة على يد السيوطي في كتابه «معترك الأقران في مشترك القرآن» (علم الدلالة لأحمد مختار/ ١٤٨).

(٣) يعرف اللغويون علم «الوجوه والنظائر» بأن تكون الكلمة الواحدة قد ذكرت في مواضع من القرآن الكريم أكثر من مرة، وأريد بها في كل مكان معنى غير الآخر. فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة نفسها المذكور في الموضع الآخر. فهذه هي النظائر. أما الوجوه فتعني تفسير كل كلمة بمعنى غير معني الأخرى. فالنظائر إذن تشير إلى الألفاظ، والوجوه تشير إلى المعاني.

وهناك تفسير آخر يفهم من كلام الزركشي والسيوطي، وهو أن المراد بالوجوه اللفظ المشترك، وبالنظائر الألفاظ المترادفة أو التي اختلف لفظها واتحد معناها. وذلك لأن كل مشترك لفظي يحمل في داخله ترادفاً. فإذا قلنا إن اللسان في القرآن يعني: اللغة والدعاء والعضو المعروف والثناء الحسن فمعنى هذا أن للسان أربعة وجوه أو أربعة معان، وهو في نفس الوقت يحمل عدة نظائر أو مترادفات. فاللسان مع اللغة ترادف، ومع الدعاء ترادف ثان، ومع الثناء الحسن ترادف ثالث.. وهكذا (انظر علم الدلالة/ ١٤٩).

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾[1]، يعني الشرك.

ب ـ والإثم يعني المعصية، فذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾[2]، أي غير متعمد لمعصية.

جـ ـ الثالث: الإثم: الذنب، قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[3]، يعني: فلا ذنب عليه، أي ذنبه مغفور.

د ـ الرابع: الإثم، يعني: الخطأ، قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾[4]، يعني: خطأ.

ومثال آخر، كلمة وليّ:

يقول الدامغاني: هي على عشرة أوجه:

أ ـ فوجه منها: الولي: الولد، قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾[5]، يعني: ولداً.

ب ـ الثاني: الصاحب من غير قرابة، قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[6]، يعني لم يكن له صاحب منتصر به في العمل.

---

(١) آية ٦٣.
(٢) آية ٣.
(٣) آية ٢٠٣.
(٤) آية ١٨٢.
(٥) آية ٥.
(٦) آية ١١١.

جـ ـ الثالث: الولي: القريب.. كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، يعني من أقرباء منفعة.

د ـ الرابع: الولي: الرب تعالى، قوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[2]، أي ربًا.. إلخ.

ومثل الزركشي في البرهان بأمثلة كثيرة نذكر منها قوله:

* كل ما في القرآن من ذكر البروج فإنه الكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[3]،إلا التي في سورة النساء: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[4] فإنها القصور الطوال المرتفعة في السماء الحصينة.

* كل ما في القرآن من ذكر البعل فهو الزوج كقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾[5]، إلا حرفاً واحداً في الصافات هو: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾[6]، فإنه أراد صنماً.

* كل شيء في القرآن من يأس فهو القنوط، إلا التي في الرعد: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[7]، فإنه بمعنى العلم.

وقد عد السيوطي في كتابه «معترك الأقران» ـ عد من إعجاز القرآن ألفاظه المشتركة، بل عدها من أعظم إعجازه «حيث كانت الكلمة

---

(١) الشورى ٤٦.
(٢) آية ١٤.
(٣) البروج ١.
(٤) الآية ٧٨.
(٥) البقرة ٢٢٨.
(٦) الآية ١٢٥.
(٧) الآية ٣١.

الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل. ولا يوجد ذلك في كلام البشر»(١).

٨ ـ ملاحظة الفروق الدلالية الطفيفة بين كلمات يستخدمها ابن اللغة العادي على أنها مترادفة أو متطابقة. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ كلمتا: الغيث والمطر. وقد وردت الأولى في آيات مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾(٢)، ومثل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾(٣). أما كلمة مطر فقد وردت في آيات منها: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾(٤)، ومنها: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾(٥)، ومنها: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٦).

وقد ذهب كثير من اللغويين إلى ترادف لفظي الغيث والمطر، وتطابقهما في المعنى. ولكن تتبع الاستعمال القرآني يدل على وجود صفة مميزة تفرق بينهما بعد اشتراكهما في أصل المعنى. وهذا يتمثل فيما نقله الثعالبي من أن المطر إذا جاء عقيب المحل أو عند الحاجة إليه فهو الغيث. وفيما قاله القرطبي: «والغيث: المطر. وسمي غيثاً لأنه يغيث الخلق.. وعن الأصمعي قال: مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا، فسألت عجوزاً منهم: أتاكم

(١) ١/ ٥١٤.
(٢) لقمان ٣٤.
(٣) الشورى ٢٨.
(٤) الفرقان ٤٠.
(٥) الشعراء ١٧٣ وغيرها.
(٦) الأعراف ٨٤.

المطر؟ فقالت: غثنا ما شئنا غيثاً». وقد عقب القرطبي نقلاً عن الماوردي قائلاً: «والغيث ما كان نافعاً في وقته. والمطر قد يكون نافعاً وضاراً، في وقته وغير وقته»[1] . ولاشك أن الاستعمال القرآني يؤيد هذه التفرقة الدقيقة في المعنى.

ب ـ كلمتا: الوالدة والأم.

وقد وردت كلمة «الوالدة» مفردة في ثلاث آيات هي:

* ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا ﴾[2].

* ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾[3].

* ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[4].

ووردت مجموعة في آية واحدة هي:

* ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[5].

والآيات الأربع ترتبط بصفة الوالدية، أو الحمل والولادة التي هي أعلى درجات القرابة وأوثقها، ولذا علقت بها أحكام خاصة مثل البر وأحقية الرضاعة.

أما كلمة «أم» فقد وردت في آيات كثيرة لتشير إلى قرابة النسب مثل:

* ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[6]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩/١٦.

(٢) البقرة ٢٣٣.

(٣) المائدة ١١٠.

(٤) مريم ٣٢.

(٥) البقرة ٢٣٣.

(٦) القصص ٧.

أو لتشير إلى صفة الأمومة التي تسبق مرحلة الولادة فلا تستحق الأم معها بعدُ أن تسمى والدة:

* ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾[1].

* ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾[2].

أو للإشارة إلى صلة الرضاع:

* ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾[3].

أو لوصف زوجات الرسول ﷺ على سبيل التشبيه:

* ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[4].

جـ ـ كلمتا الهمز واللمز:

وقد استعمل القرآن الكريم اللفظين في الآيات الآتية:

* ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[5].

* ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾[6].

* ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[7].

* ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[8].

* ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ ﴾[9].

* ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[10].

---

(١) لقمان ١٤.
(٢) النجم ٣٢.
(٣) النساء ٢٣.
(٤) الأحزاب ٦.
(٥) الهمزة ١.
(٦) القلم ١٠، ١١.
(٧) المؤمنون ٩٧.
(٨) الحجرات ١١.
(٩) التوبة ٥٨.
(١٠) التوبة ٧٩.

وعلى الرغم من قول بعضهم إن الهمز واللمز مترادفان، فإن الاستعمال القرآني يفرق بينهما. ولهذا يقول المبرد: الهمز: أن يهمز الإنسان بقول قبيح من حيث لا يسمع، أو يحثه على أمر قبيح يغريه به. واللمز: أجهر من الهمز. وفي القرآن: ﴿همزات الشياطين﴾ ولم يقل «لمزات الشياطين»؛ لأن مكايدة الشيطان خفية. ويقول ابن منظور في اللسان: وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾، أي: يحرّك شفتيه. ورجل لُمَزة: يعيبك في وجهك. ورجل هُمَزة: يعيبك بالغيب[1].

٩ ـ استخدام الحروف استخدامات خاصة، قد تخفي على الكثيرين فيضلون القول فيها. وقد اخترنا بعض حروف الجر والعطف لنبين أسرار خصوصيتها في القرآن الكريم.

أ ـ من ذلك تعدية القرآن بعض الأفعال بحروف جر[2] ليس من المعتاد تعدية هذه الأفعال بها، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[3]. فالمعتاد أن يقال: «من ريبهم»، أو «لريبهم». ولكن لما كان مناط التعبير القرآني الدلالة على الانغماس ناسبه التعبير بـ «في» الدالة على الظرفية.

---

(١) انظر السيوطي في الإتقان ١/١٩٤ ـ ١٩٦ لمعرفة الفروق الدقيقة بين كلمات يظن ترادفها في القرآن الكريم، مثل: الخوف والخشية، والتمام والكمال والإعطاء والإيتاء.. الخ. والإعجاز البياني لبنت الشاطيء/١٩٤ وما بعدها.

(٢) يتحدث النحاة عادة عن إمكانية تناوب حروف الجر وتبادلها مواقعها. ولكن المحققين من اللغويين ينكرون هذا القول، كما يقول أبو هلال العسكري لأن «في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها» (الفروق /١٦) وأقوى ما نجده من تأييد لكلام أبي هلال العسكري بعدم جواز هذا التعاقب الاستعمال القرآني لهذه الحروف.

(٣) التوبة ٤٥.

وكذلك قـولـه تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1].
فليس المـراد السهو في الصـلاة كما قـال بعضهم، لأن كل مسلم عرضة لـه، ومن أجله شرع سجود السهـو. وإنما المـراد: السهو عن الصلاة، والترك لها، أو الغفلة عن حكمة أدائهـا، مما يؤدي إلى تحول الصلاة إلى مجرد ركوع وسجود وطقوس شكليـة ونفاق.
ولذا ختمت السورة بقـوله تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[2]
وكـذلك قـوله تعـالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾[3]
فالفعل «خالف» يتعدى بنفسـه، فيقال: خـالف أمره. ولكن لما ضمَّنه معنى الخروج عداه بـ «عن».
وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[4]. فلما ضمَّن الأكل معنى الضم، عداه بـ «إلى».

ب ــ وكثيراً ما يشكِّل حرف الجر في القرآن الكريم تعبيراً خـاصاً مـع الفعل أو الوصف المرتبط به. ومن أمثلة ذلك:

* قـوله تعـالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[5]
فمعنى «أذِن له هنا: مال بأذنه إليه. أو سمعه سمع طاعة.
* وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى

---

(١) الماعون ٥.
(٢) الإتقان ١/١٤٥، والإعجاز البياني لبنت الشاطيء/١٨٩، ونظرية الحروف العاملة للهلالي/ ١٦٤.
(٣) النور ٦٣.
(٤) النساء ٢.
(٥) الانشقاق ١، ٢.

حَفِيًّا﴾[1]، مع قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[2] (السؤال في الآية عن القيامة).

فمعنى حفّي به: مبالغ في إكرامه، ومعنى حفيّ عنه: مبالغ في السؤال عنه والبحث في أمره[3].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[4]. فعداه بالباء ليصير معنى أمسك بالشيء: أخذ به وتعلق، مع قوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[5] فعداه بـ «على» ليصير معنى أمسكه على نفسه: حبسه.

جـ ـ وهناك نوع من حروف الجر سماه النحاة حرف جر زائداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[6]، وكقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[7]. وهم يعنون بزيادته زيادته في الإعراب لا في نظم الكلام، وإلا كان ذكره عبثاً تعالى الله عن ذلك. ودليل زيادته في الإعراب أننا نعرب ما بعد «من» في الآية الأولى فاعلاً، وكذلك في الآية الثانية. وحكمة زيادة «من» ها هنا إفادة الاستغراق. كما أن فائدة الحرف الزائد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم

---

(١) مريم ٤٧.
(٢) الأعراف ١٨٧.
(٣) انظر نظرية الحروف العاملة/١٨٧.
(٤) الممتحنة ١٠.
(٥) الأحزاب ٣٧.
(٦) الأنعام ٥٩.
(٧) المائدة ١٩.
(٨) النحل ٤٦.

بِمَجْنُونٍ﴾[1] هي التأكيد، وتقوية الجحد المدلول عليه بحرف الجر السابق[2] .

ولتجنب استعمال كلمة «زائد» مع القرآن الكريم استخدم بعضهم كلمة «صلة»، وهي أكثر تحرزاً في مجال الحديث عن القرآن[3] .

د ـ ولابد أثناء حديثنا عن حروف الجر أن نشير إلى حرف «الباء» الذي سبب الخلاف في معناه خلافاً في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، أدى إلى خلاف في الحكم الفقهي، أو الرأي الكلامي، ونكتفي من هذه الباء بالمثالين التاليين:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[4] .

فمن اعتبر من الفقهاء الباء مؤكدة زائدة أوجب مسح كل الرأس.

ومن اعتبرها للتبعيض قال إنه يكفي أقل ما يطلق عليه اسم المسح، ولو اقتصر ذلك على شعرة أو شعرتين.

---

(١) التكوير ٢٢.

(٢) وانظر من بلاغة القرآن/ ٩٥ وما بعدها، والنبأ العظيم/ ١٣٠ وما بعدها.

(٣) قد تأتي الزيادة في القرآن في غير حروف الجرّ، كما في قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ (آل عمران ١٥٩). ففي زيادة «ما» هنا لون من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته. فإن المراد من الآية تصوير لين النبيﷺ لقومه، وأن ذلك رحمة من الله. فجاء المد في «ما» وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه. وفوق ذلك فإن طريقة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق. ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ الرحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه.

(٤) المائدة ٦.

ومن اعتبرها للإلصاق، وأنها داخلة على محل المسح لا على آلته، كقوله: مسحْتُ برأس اليتيم، قال إن المسح لا يتناول المحل كله. ولذا يكفي مسح بعض الرأس. وقد بيّن الرسول ﷺ هذا البعض بمقدار الناصية، وهو ربع الرأس.

* قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

من قال إن الباء للمقابلة، وهي الداخلة على العِوَض تصور إمكانية إعطاء المقابل مجاناً على سبيل التفضل.

ومن قال إنها للسببية (وهم المعتزلة) منع إمكانية دخول الجنة تفضلا من الله دون عمل؛ لأن المسبَّب لا يوجد بدون السبب.

فإذا انتقلنا إلى حروف العطف نجد القرآن الكريم يستعمل كثيراً منها استعمالات خاصة، ومن ذلك:

أ ـ ما يعرف بواو الثمانية. وهي نوع من واو العطف تأتي بعد السبعة إيذاناً بتمام العدد. فإن السبعة عند العرب هي العَقْد التام كالعشرة عندنا. فيأتون بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[2] (لاحظ الواو قبل: ثامنهم). وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ، ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ، ٱلرَّٰكِعُونَ، ٱلسَّٰجِدُونَ، ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3]، حيث سبقت الصفة الثامنة بحرف العطف. ومثله قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ

(١) النحل ٣٢.

(٢) الكهف ٢٢.

(٣) التوبة ١١٢.

﴿سَٰئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾[1]. وحمل بعض اللغويين على ذلك قوله تعالى في أبواب النار: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[2] (بدون الواو) لأنها سبعة أبواب، كما في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾[3]، وقوله في أبواب الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[4] (بالواو)، لأن أبواب الجنة ثمانية كما جاء في الحديث النبوي: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[5].

ب ـ ومن ذلك أيضا الفاء التي تفيد التعقيب عند النحاة، وعليه قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾[6]. وقد استشكل معنى التعقيب في عدة آيات منها:

* ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾[7].

إذ البأس في الوجود قبل الهلاك. وأجيب بأن المراد: أردنا إهلاكها. أو لما كان الهلاك ومجيء البأس متقاربين في المعنى جاز تقديم أحدهما على الآخر.

---

(١) التحريم ٥.
(٢) الزمر ٧١.
(٣) الحجر ٤٤.
(٤) الزمر ٧٣.
(٥) انظر تفصيلات أخرى عن هذه الواو: تفسير القرطبي ٨/٢٧١، ٢٧٢، ١٠/٣٨٢، ٣٨٣، ١٥/٢٨٥، ٢٨٦، ومن أسرار التعبير القرآني لعبد الفتاح لاشين/ ٨٤ وما بعدها.
(٦) البقرة ٣٦.
(٧) الأعراف ٤.

* وحمل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(١)، أي فإذا أردت قراءة القرآن، فافعل ذلك.

* كما استشكلت الفاء في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)، مع قوله في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقد وجه المعنى بأن الحساب على دفعات، فتحمل «الفاء» على أول المحاسَبين، وهم أمة محمد ﷺ، و«ثم» التي تفيد التراخي على الباقين.

جـ ـ وقد أثارت «أو» في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾(٤) خلافاً بين النحاة حول معناها.

فمنهم من قال إنها بمعنى «بل».

والصحيح ـ كما قال ابن جني ـ أنها تأتي دائماً لأحد الشيئين أين كانت، وكيف تصرفت. وهي في الآية ـ كما في غيرها ـ تفيد الشك، وذلك أن هذا الكلام خرج حكاية من الله عز وجل لقول المخلوقين. وتأويله عند أهل النظر: وأرسلناه إلى جمع لو رأيتموه لقلتم أنتم فيهم: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون(٥).

١٠ ـ استخدام المفردات والجموع استخدامات خاصة تثبت أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة، ومن وراء الفكر، وخارج قدرة الإنسان:

---

(١) النحل ٩٨.
(٢) الزمر ٧.
(٣) الأنعام ٦٠.
(٤) الصافات ١٤٧.
(٥) الخصائص ٢/ ٤٦.

أ ـ فأنت ترى بعض الألفاظ لم يأت في القرآن إلا مجموعاً، ولم يستعمل منه صيغة المفرد. فإذا احتاج القرآن إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة «اللب» فإنها لم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢)، ونحوهما. وحين أراد القرآن المفرد لم يستعمل كلمة «لب» وإنما وضع مكانها كلمة «قلب» كقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾(٣). والسر في ذلك أن لفظ الباء شديد، وقد تلا حرفاً شديداً كذلك وهو اللام. فلما لم يكن هناك فصل بين الحرفين يتهيأ معه الانتقال، ويحسن معه النطق أسقطه القرآن من نظمه البتة(٤). وكذلك لفظة «الكوب» التي استعملها القرآن مجموعة ولم يأت بها مفردة؛ لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو الجمع»(٥).

وعكس هذا لفظة «الأرض». فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة حتى إذا ذكرت السماء مجموعة معها، وكان المقام يقتضي جمع «الأرض». وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(٦) ـ تجد الآية قد حوت سر الفصاحة وذهبت به، حيث لم تقل «سبع أرضين» لهذه الصعوبة النطقية

---

(١) إبراهيم ٥٢.
(٢) الزمر ٢١.
(٣) ق ٣٧.
(٤) الإتقان ١/١٩٣، وإعجاز القرآن للرافعي /٢٣٢.
(٥) الرافعي/ ٢٣٢.
(٦) الطلاق ١٢.

التي تدخل للفظ، وتخل بالنظم، وفضلت عليها: «ومن الأرض مثلهن» التي تخرج الكلمة من الجفاء إلى الروعة، وتتلاءم مع ما جاورها من فواصل حيث تلاها: «يتنزل الأمر بينهن».[1]

ب ـ وهناك ظاهرة أخرى تتعلق باستعمال بعض الجموع للمفرد الواحد، والتفريق الدقيق بينها في المعنى. وبتتبع هذه الجموع في القرآن الكريم يتبين عدم صحة ما يقوله النحاة عن تخصيص أوزان من الجمع للدلالة على القلة، وتخصيص أوزان أخرى للدلالة على الكثرة، كما يتبين عدم دقة المعجميين حين يخلطون الجموع بعضها ببعض، ولا يفرقون بينها في المعنى.

ومن أمثلة تعدد الجموع استعمال القرآن كلمتي «شِيَع» و«أشياع» جمعاً للمفرد شِيعة، ومن ذلك قوله تعالى:

* ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾[2].
* ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3].

فإذا علمنا أن المراد بالأشياع في الآية الثانية: أمثالهم من الأمم الماضية، ومن كان مذهبه مذهبهم ـ علمنا أن معنى القلة غير مراد هنا، بل المراد الكثرة، فكيف يقال إن وزن «أفعال» من جموع القلة؟.

كذلك إذا نظرنا إلى جانب المعنى، وجدنا أن «الأشياع» و«الشِّيَع» ليسا متطابقين في المعنى، وإن كان مفردهما واحدا،

---

(١) الإتقان ١/١٩٢، والرافعي/٢٣٣.
(٢) القصص ٤.
(٣) القمر ٥١.

وهو كلمة «شيعـة». فكلمة «شِيعـة» تعني: «فِرْقـة»، وهي تحمل في داخلهـا معنى الاتفاق والاختـلاف. فأفـراد الشِّيعة أو الفـرقـة متفقــون. ولكنهم كمجمـوعــة يختلفـون عن الشِّيــع أو الفـرق الأخرى. ولم يستعمل القرآن لفظ «شيع» إلا حينـما عنى الإشارة إلى الاختـلاف والتفرق. كـما لم يستعمل لفظ «أشيـاع» إلا حينما عنى الإشـارة إلى الاتفاق أو التجمـع. فـالأمـر إذن يـدور حـول هـذين الملمحين، ولا عـلاقة لـه بقلة أو كـثرة. وتـأملوا الآيـات القرآنية الآتية:

* ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾[1].
* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾[2].
* ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾[3].
* ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾[4].

تجدوهـا جميعاً تشير إلى التفرق والاختلاف.

ثم تـأملوا الآيتين الآتيتـين، وهمـا كـل مـا ورد من النـوع الآخر:

* ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[5].
* ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾[6].

---

(١) الحجر ١٠.
(٢) الأنعام ١٥٩.
(٣) القصص ٤.
(٤) الروم ٣٢.
(٥) القمر ٥١.
(٦) سبأ ٥٤.

تجدوهما تشيران إلى الاتفاق والتجمع.

ومثال ثان على قضية الجموع المتعددة: جمع «عين» في القرآن الكريم. فقد ورد المفرد في القرآن بمعنى آلة البصر، كقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ، وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ . . ﴾(١). وورد كذلك بمعنى عين الماء كما في قوله تعالى ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾(٣).

فإذا نظرنا إلى الجمع وجدناه قد ورد في القرآن بصيغتين هما: «أعين» و«عيون» ليس على حسب القلة والكثرة كما يدعي النحاة، ولكن حسب المعنى كما يبدو من تتبع الآيات القرآنية. فكيف يستساغ معنى القلة في آيات مثل:

* ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾(٤).
* ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾(٥).
* ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾(٦).

مع أن معنى الكثرة هو الأنسب والأكثر ملاءمة للسياق؟

إن معنى المفرد - في الحقيقة - هو الذي وجّه الجمع إلى «أَفْعُل»

---

(١) المائدة ٤٥.
(٢) الغاشية ١٢.
(٣) البقرة ٦٠.
(٤) الأعراف ١١٦.
(٥) الأعراف ١٧٩.
(٦) الزخرف ٧١.

تارة، وإلى «فُعول» تارة أخرى، فلم ترد «أعين» في القرآن الكريم إلا جمعاً للعين الباصرة، مثل:

* ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾[1].

* ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾[2].

* ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾[3].

كما لم ترد «عيون» في القرآن الكريم إلا جمعاً لعين الماء مثل:

* ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[4].

* ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[5].

* ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾[6].

* ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[7].

* ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴾[8].

ومثال ثالث كلمة «عبد» التي تعني في لغة العرب: الإنسان، حراً كان أو رقيقاً، كأنه يُذْهَب بذلك إلى أنه مربوب لخالقه. كما تعني في لغة العرب: المملوك، خلاف الحر.

---

(١) الأنفال ٤٤.

(٢) المائدة ٨٣.

(٣) يس ٦٦.

(٤) الذاريات ١٥.

(٥) الشعراء ٥٧.

(٦) يس ٣٤.

(٧) الدخان ٢٥، ٢٦.

(٨) المرسلات ٤١.

وقد ذكرت المعاجم لهذا المفرد عدة جموع للتكسير، ورد منها في القرآن الكريم جمعان هما: «عبيد»، و«عباد». وقد التزم القرآن استعمال «العباد» جمعاً لـ «عبد» بالمعنى الأول وهو مطلق الإنسان أو المخلوق، واستعمال «العبيد» جمعاً لـ «عبد» بالمعنى الثاني، وهو المملوك.

ولم يخرج القرآن عن ذلك إلا في حالات نادرة، ولأسباب بلاغية، فقد وردت «العباد» بمعنى «المخلوقين» في ست وتسعين آية، ووردت بمعنى «العبيد» والمملوكين في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[1] للإشارة إلى أنه يجب معاملتهم كبشر لهم كامل الحق في الحياة، وبخاصة لما يتميزون به من صلاح وطاعة لله. كما أن القرآن استعمل العبيد بمعنى «العباد» أو «المخلوقين» حين أراد نفي الظلم عنه تعالى، فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]، لأن نفي ظلم السيد لعبده نفي لصدور أقل ذرة من الظلم عنه، ونفي لصدور الظلم عنه لسائر الأجناس من باب أولى[3].

---

(١) النور ٣٢.

(٢) فصلت ٤٦.

(٣)وانظر الإتقان للسيوطي ١/١٩٢ ـ ١٩٦ ففيه حديث ممتع عن أسرار إفراد بعض الكلمات وجمع بعضها الآخر في القرآن مثل إفراد الريح أو جمعها، وإفراد النور وجمع الظلمات، وإفراد سبيل الحق وجمع سبل الباطل، وإفراد السمع وجمع البصر.. وكذلك بيانه الفرق بين بعض الجموع وبعض، مثل الفرق بين «أبرار» و«بررة»، وبين «إخوة» و«إخوان» وغيرها.

٤ ـ خصائص التركيب وتأليف الجمل:

إذا كنا قد كشفنا شيئاً من أسرار التعبير القرآني في جانب الصوت المفرد، أو الكلمة المؤلفة فإن الحاجة إلى كشف أسرار التركيب القرآني، ونظم كلماته أشد. فالقرآن ما صار معجزاً إلا «لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمّناً أصح المعاني»[١].

وقد جاءت أبرز جوانب الإعجاز اللغوي في القرآن من جهة نظمه أو تأليف جمله، ولذا يقول الباقلاني: «ليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها. . وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ووجود بعضها قبل بعض، ووجود بعضها بعد بعض»[٢]. وفصّل الباقلاني القول في بديع نظم القرآن وعجيب تأليفه، وذكر له أسباباً كثيرة منها:

١ ـ مباينة نظم القرآن للمعهود من نظام جميع كلام العرب. فليس القرآن شعراً ولا سجعاً ولا خطابة، وليس جارياً مجرى الرسائل.

٢ ـ تفرد القرآن ـ دون جميع أنواع الكلام ـ باحتوائه على هذا القدر الوافي من الفصاحة والإبداع بهذا الطول، وعلى هذا القدر.

٣ ـ تميز القرآن ـ على كثرته وطوله ـ بالفصاحة المطلقة، وبديع التأليف والنظم، دون وقوع أي خلل أو تفاوت أو تباين فيه مهما اختلفت الأغراض وتصرفت الوجوه[٣].

---

(١) القرآن ـ إعجازه وبلاغته لعبدالقادر حسين /١٠٨.

(٢) السابق/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) إعجاز القرآن له/ ٦٦ ـ ٧٠.

وتساءل عبدالقاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» عن أوجه الإعجاز اللغوي في القرآن، وعن الشيء الجديد الذى أتى به القرآن للأسلوب العربي، وهل هو حروفه، أو ألفاظه، أو دلالات ألفاظه، أو تركيب حركاتها وسكناتها، أو غرابة بعض ألفاظه... ثم انتهى إلى تقديم نظريته التي تقوم على عنصرين لغويين، وهما الاختيار والتأليف. أما الاختيار فيتم على مستوى الأصوات وتناسقها، وعلى مستوى الأدوات والكلمات، واستغلال الفروق الدقيقة بينها، وعلى مستوى المعاني النحوية التي يفرق بينها بالتقديم أو التأخير، وبالتعريف أو التنكير، وباختيار نوع معين من المعرفة، وبالحذف أو الذكر.. وغير ذلك. وأما التأليف فيتعلق بوضع الكلمة في مكانها المناسب من العبارة، وقوة الإحكام والتماسك، وتناسقها مع ما قبلها وما بعدها، «وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن يُنظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن...، وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها؟.. وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة.. إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما..؟»[1].

ويلح السيوطي على نفس الفكرة، فينفي أن تكون فصاحة القرآن في ألفاظه لأن ألفاظه هي ألفاظ العرب، أو في معانيه لأن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة. ثم يلخص موطن الخلاف، أو موضع الإعجاز اللغوي في القرآن في قوله: إن «الإعجاز المختص بالقرآن إنما يتعلق بالنظم

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٩٠، ٩١. وانظر ٩٥ وما بعدها.

المخصوص، وحسن التأليف، والتئام الكلمات»[1].

ويؤكد الرافعي على نفس الفكرة فيقول إن إعجاز القرآن قد جاء «من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته»[2]. ويقول عن أسلوب القرآن إنه «مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم، وتنزيل كلامهم. على أنه يؤاتي بعضه بعضاً، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى في النظم والطريقة، على اختلاف المعاني وتباين الأغراض»[3].

فماذا في القرآن من جمال النظم، وبديع التركيب، وتناسق الأجزاء؟ تعالوا نستعرض بعض النماذج القرآنية - على سبيل المثال لا الحصر - لنستجلي سر عظمتها:

١ - قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾[4].

حين أتى بأغرب ألفاظ القسم، وهو التاء، فإنها أقل استعمالاً، وأبعد من أفهام العامة بالنسبة للباء والواو - أتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء، وتنصب الأخبار («ماتزال» أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالا). كما أتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحَرَض.

فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة لفظة من جنسها في الغرابة توخياً لحسن الجوار.

وحين أراد غير ذلك قال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾[5]، فأتى

(١) القرآن - إعجازه وبلاغته/ ١٣.
(٢) إعجاز القرآن له/ ١٨٩.
(٣) السابق/ ٢٠١.
(٤) يوسف ٨٥.
(٥) النور ٥٣.

بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

يقول الجرجاني: لقد نادى الله سبحانه وتعالى الأرض بحرف النداء «يا» لأنه نزلها منزلة الكائن الحي العاقل. ولهذا معنى نفسي: لأنه يشير إلى تجسيد الأرض وإعطائها صفة الكائن العاقل، وكونها ممن يسمع ويعي. وذلك التجسيد يشير إلى أن كل الكائنات أمام الله سواء؛ فهو خالقها، وهو الذي يستطيع أن يوجه إليها الخطاب فتسمع وتطيع. ثم جاء العنصر التالي للنداء، وهو الأمر في «ابلعي». وبالإضافة إلى ما فيه من معان يحملها توجيه الأمر إلى الأرض فإن فيه تناسقاً على مستوى التأليف، حيث يعد النداء ممهداً للأمر وتنبيهاً للنفس إلى ما سيلقى عليها.

ويأتي في النداء عنصر آخر وهو اختيار حرف النداء «يا» دون «أيْ» أو «أيتها». كما يأتي في الأمر عنصر آخر، وهو الاختيار اللفظي لمادة «بلع» دون مادة «شرب» مثلا. فلهذا الاختيار دلالة خاصة؛ لأن مادة البلع تدل على سعة الحلق، وسرعة الالتهام، وهما مقصودان هنا للدلالة على سرعة عودة الحياة على الأرض إلى وضعها الطبيعي..

ثم أضيف الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء. وفي أثناء ذلك وجه الأمر إلى الأرض بما هو من شأنها، وهو بلع الماء، وإلى السماء بما يخصها، وهو الكف عن إنزال المطر. واختير الفعل المبني للمجهول

---

(١) الإتقان ٢/٨٨، وإعجاز القرآن البياني لحفني شرف/ ٢٢١، ومعترك الأقران ١/٢٨٩.

(٢) هود ٤٤.

«غيض» للدلالة على أن هذا لم يتم إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، وأتبع ذلك بجملة تأكيدية تقريرية هي «قضي الأمر»، ذكرت بعدها الفائدة من كل هذه الأمور، والغاية منها وهي «استوت على الجودي». وأضمر السفينة ولم يصرح بها تفخيماً لها، ودلالة على عظم شأنها. وأخيراً قوبلت «قيل» في الخاتمة، بـ«قيل» في الفاتحة[1].

وسمى السيوطي ما في هذه الآية من بيان «حسن النسق» وشرحه بقوله: «وهو أن يتكلم المتكلم بكلمات متواليات معطوفات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً بحيث إذا أفردت كل جملة منها قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها»[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[3].

قد يتساءل متسائل عن سر نظم الآية، ولماذا جاء قوله تعالى: ﴿ومخرج الميت من الحي﴾، بصيغة اسم الفاعل مخالفاً لما جاء عليه أمثاله في سورة «آل عمران» مثلا حيث يقول سبحانه ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[4]، وفي سورة «يونس»[5]، وسورة الروم[6]؟ فلماذا جاء في هذا الموضع من سورة الأنعام على ما جاء عليه مخالفاً لأمثاله؟.

(١) دلائل الإعجاز/ ٩١، ٩٢.
(٢) معترك الأقران ١/٤٠٤، ٤٠٥. وانظر من بلاغة القرآن/٥٥، وفصل «بدائع القرآن»، ص ٢٥٢.
(٣) الأنعام ٩٥.
(٤) آية ٢٧.
(٥) آية ٣١.
(٦) آية ١٩.

يجيب ابن أبي الإصبع بقوله: إنما جاء كذلك توخياً لحسن الجوار، ليأتي نظم الجملة الثانية على ما أتى عليه نظم الجملة الأولى: «إن الله فالق الحب والنوى».. لتتعادل ألفاظ النظم عند التركيب. ولو جاء هذا اللفظ في سورة الأنعام كما جاء أمثاله في «آل عمران» وغيرها لخرج نظم الآية عن الاعتدال. ذلك أن استخدام اسم الفاعل في سورة الأنعام يتلاءم مع ما جاوره من أسماء الفاعلين، كما أن استخدام صيغة الفعل في بقية السور يتلاءم مع ما جاوره من صيغ الأفعال في السور الأخرى.

وقد أوجبت البلاغة أن يأتي خبر «إن» في الجملة الأولى بصيغة اسم الفاعل: «إن الله فالق..» للدلالة على المضي، في حين أن المضارع يدل على الحال أو الاستقبال. ولما كانت الآية مسوقة للتمدح بالقدرة المطلقة كان التمدح بها مع الإتيان بصيغة اسم الفاعل أبلغ؛ لأنه يدل على قدم القدرة، ويلزم من قدمها قدم الموصوف بها.

ولما كان التمدح بمجرد خلق الحب والنوى في باطن الأرض هو تمدح بما لايراه الناس ولا ينتفعون به أخبر بأنه يخرج نباتاً من باطن الأرض (حياً من ميت) ليتم التمدح. ووجب أن يكون الإخبار هنا بصيغة المضارع ليقع الإخبار على ترتيب الوقوع في الوجود، لا يتقدم منه ما يجب تأخيره، ولا يتأخر ما يجب تقديمه؛ إذ كان انفلاق الحب والنوى في باطن الأرض مقدماً على خروج النبات إلى ظهر الأرض.. فكان مقتضى النظم الإتيان بصيغة المضارع الدالة على الحال والاستقبال بعد اسم الفاعل الدال على المضي..

واقتضى حسن النظم كذلك تقديم ذكر الحب على النوى لكون الحب قوت المخاطب وقوت دوابه. وأردف الحب بالنوى لأن في النوى إشارة

إلى ما يعتد به على المخاطب أيضاً من الثمرات التي يتفكه بها، وتتنوع له الملاذ بسببها[1]..

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[2].

النظرة السطحية تفهم من نسق الآية أن القمر نور، والشمس نور، ولكن اختلف اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ.

ولكن من يعلو عن هذه المنزلة يفهم أن القمر أضعف نوراً من الشمس؛ لأن هذه عبرعنها بالسراج، ولفظ السراج يحضر في النفس شعاعاً متقداً، فكأنه نور منبعث من نار.

ومن يدقق أكثر يرى أن الغرض هو التعبير عن الشمس بأنها تجمع بين النور والحرارة، ولذلك فائدة في الحياة. والنور نفسه لا تكاد تحس فيه حرارة ـ وهو ما ينطبق على حال القمر ـ وإنما الحرارة تحس في السراج ووهجه، وهو ما ينطبق على حال الشمس[3].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ. ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

لم تنس الآية في معمعة براهينها وأحكامها حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب. لذا بدأت بالنداء: «يأيها

---

(١) إعجاز القرآن البياني لحفني شرف/ ٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) نوح ١٥، ١٦.

(٣) إعجاز القرآن للرافعي/ ٢٠٧.

(٤) البقرة ١٧٨.

الذين آمنوا»، للاستدراج إلى الطاعة. واستخدمت لفظ «أخيه» لترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين. ثم أضافت إليه لفظي «معروف»، و«إحسان» لزيادة الترقيق. وتلت ذلك بذكر فضل الله عليهم في هذا التخفيف، والامتنان بهذا التيسير: «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة». وانتهت الآية بالتهديد والوعيد لمن يقابل كل هذا الإحسان بالإساءة، وكل هذا التسامح بالاعتداء(1).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ، قَالُوا: سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ﴾(2).

اشتملت الآية على درجة عالية من البلاغة حين اختارت الجملة الخاصة للمعنى الخاص. لقد حيت الملائكة إبراهيم بجملة فعلية هي: «سلاماً»، التي تقديرها: نسلم عليك سلاماً. فردّ إبراهيم التحية بأحسن منها حين عبر بالجملة الاسمية، وهي: «سلام»، التي تقديرها: سلام عليكم.

والفرق بين الجملتين أن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، أما الاسمية فتفيد الثبوت والاستقرار(3).

٧ ـ قوله تعالى في وصف خمور الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾(4)، جاء بتقديم الجار والمجرور. أما قوله تعالى في وصف القرآن فقد جاء بتأخير الجار والمجرور: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(5).

---

(1) النبأ العظيم لعبدالله دراز/ ١١٦.

(2) هود ٦٩.

(3) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٨٩.

(4) الصافات ٤٧.

(5) البقرة ٢.

لماذا؟ . .

لأن القرآن أراد بتقديمه الجار والمجرور في الآية الأولى أن يفيد قصر عدم وجود الغول (الذي يغتال العقول) على خمور الجنة، ليفيد في الوقت ذاته أن سائر الخمور وهي خمور الدنيا فيها الغَوْل والإسكار وتخريب العقول.

أما تأخير الجار والمجرور في الآية الثانية فلأنه لم يرد القصر. وإنما أراد فقط أن ينفي الريب عن القرآن دون أن يتعرض للكتب السماوية بمدح أو قدح. ولو عكس الترتيب وقال «لا فيه ريب» لأدى إلى نفي الريب عن القرآن، وإثباته ـ في الوقت ذاته ـ لغيره من الكتب، وهذا غير مراد(١).

٨ ـ وقد وردت في القرآن آيتان متشابهتان كل التشابه، ولم يكن الفرق بينهما إلا بتقديم ضمير، وتأخير آخر. وبهذا التقديم والتأخير اختلف المعنى اختلافاً تاماً، واختلف نوع المخاطب باختلاف الضمير.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(٢). وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾(٣).

في الآية الأولى: «من إملاق»، وفي الثانية «خشية إملاق».

في الآية الأولى: «نحن نرزقكم وإياهم»، وفي الثانية «نحن نرزقهم وإياكم».

الآية الأولى خطاب للفقراء الذين يعيشون فعلاً في فقر شديد،

---

(١) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٨٩.

(٢) الأنعام ١٥١.

(٣) الإسراء ٣١.

ويقتلون أولادهم لأنهم لا يجدون هم ما يأكلون فضلاً عن أولادهم.

والآية الثانية خطاب للأغنياء الذين يعيشون يومهم في بحبوحة وغنى، ويخشون أن يأتي يوم يصابون فيه بفقر، أو يخشون إن كثر عدد أولادهم ألا يرثوا المال الكثير، فتقل سعادتهم، ويتضاءل فرحهم ونعيمهم، ولذلك فهم يلجأون إلى قتل أولادهم بطريقة من الطرق.

فعبارة الآية الأولى تضمنت «من» التي تفيد السببية والتعليل. وقدم فيها ضمير المخاطب «نرزقكم» على ضمير الغائب «وإياهم» لأن حاجة الفقير إلى أن يأكل هو ألزم من حاجة ابنه الذي ولد أو لـمَّا يولد.. لأن الصغير لا يأكل إلا إذا كان أبوه قد عمل وربح وجاء له بطعام. أما إذا كان الأب جائعاً، أو غير قادر على العمل فإنه يموت أولاً، ومن ثم يموت أبناؤه بموته.

أما الثانية التي هي خطاب الأغنياء، فقد استخدمت الكلمة «خشية» التي توحي الخوف الآتي عبر المستقبل، لا الخوف الآني. وقدم فيها ضمير الغائب العائد على الأولاد؛ لأنه هو الأهم والمقدم[1].

٥ ـ مناسبة خواتم الآيات لمضمونها:

جاءت خواتم الآيات متسقة متناسبة كل التناسب مع معاني الآيات وموضوعاتها وسياقاتها التي ترد فيها، وأغراضها التي جاءت من أجلها. وهذا الاتساق والتناسب واضح جلي في بعض الآيات لا يحتاج إلى كثير فكر، أو كبير عناء، مثل:

---

(١) التعبير الفني للقرآن لبكري أمين/ ١٩٠. وانظر تحليلاً دقيقاً لآيات البقرة: ﴿ومن الناس من يقول آمنا﴾ إلى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾(آيات ٨ ـ ٢٠): من بلاغة القرآن/ ٢٨ وما بعدها. وسيأتي مزيد بيان لأسرار التعبير القرآني في المبحث الخاص بالإعجاز البلاغي للقرآن، والفصل الخاص ببدائع القرآن.

* ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾[1].
* ﴿وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾[2].
* ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾[3].
* ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾[4].
* ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾[5].
* ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[6].

ولكنه في بعضها الآخر يحتاج إلى تمعن وتأمل وتدبر، مما حدا بدائرة المعارف البريطانية إلى القول بأن هذه الخواتم قد سيقت بطريقة اعتباطية وأن القرآن يعطي القارىء انطباعاً بأنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية؛ بدليل ختمه آيات بأن الله عليم، وأخرى بأن الله حكيم، وثالثة بأن الله يعلم مالا تعلمون. وكثير من هذه الخواتم لا علاقة لها بما قبلها، وإنما وضعت فقط لتتميم السجع[7].

---

(١) النساء ١٦٦.
(٢) آل عمران ٨.
(٣) الإسراء ٢١.
(٤) القصص ٧٦.
(٥) القصص ٧٧.
(٦) المؤمنون ١٤.
ومن المدهش أن يرد في الأثر أن الرسول حينما كان يملي زيد بن ثابت هذه الآية نهض معاذ بن جبل فقال قبل أن يتمها الرسول: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، فضحك الرسول وقال له: بها ختمت (من بلاغة القرآن/٧٦، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٠٥).
(٧) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٨٢.

ويكفي للرد على هذه المزاعم الباطلة أن نستعرض بعضاً من هذه الآيات التي انغلقت مفاتيحها أمام بعضهم وغمض مقصدها عليهم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[١].

مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

هل جاء ختام الآيتين عشوائياً؟.

لا. وإنما جاء لملاءمة معنى الآية التي ختمها. فلما كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض بأعمال يُشعر بها، وتلك قضية تتعلق بالحواس الظاهرة ختمت بقوله تعالى: ﴿**ولكن لا يشعرون**﴾؛ لأن المشاعر هي الحواس. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[٣].؛ لأن الرؤية إحدى الحواس. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٤]، لأن العذاب مما يشعر به ويحس[٥]. ولكن لما كانت الآية الثانية تتعلق بالسفه، وهو الجهل، وهو أمر يتعلق بالتفكير والعقل ناسب أن تختم بنفي العلم[٦].

٢ ـ في سورة الأنعام[٧] وردت الآيات الثلاث:

---

(١) البقرة ١١، ١٢.
(٢) البقرة ١٣.
(٣) البقرة ١٥٤.
(٤) الزمر ٥٥.
(٥) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٨٤.
(٦) من بلاغة القرآن/ ٣١، وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/٨٨.
(٧) الآيات ٩٧ ـ ٩٩.

أ ــ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

ب ــ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

جـ ــ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

لماذا هذه المخالفة في ختام الآيات؟.

للأسباب الآتية:

أ ــ لما كانت قضية النجوم مما يعلمه العرب، ويمكن أن تعرفه الأمم الساذجة ختمت الآية الأولى بـ «يعلمون».

ب ــ ولما كانت قضية النفوس دقيقة لا يطلع عليها إلا الخاصة، ختمت الآية الثانية بـ «يفقهون». لأن الفقه أخص من العلم، فهو العلم بدقائق الأمور.

جـ ــ ولما كانت الآية الثالثة تظهر فيها دلائل القدرة الإلهية كإنزال المطر وإخراج النبات ختمت بـ «يؤمنون»[1].

٣ ــ في سورة القصص[2] وردت الآيتان:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

---

(١) من بلاغة القرآن/٨٣، وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٨٩.

(٢) الآيتان ٧١، ٧٢.

لماذا اختلف ختام الآيتين؟

لقد ختمت آية الليل بالسمع؛ لأن دوام الليل فيه إعمال لحاسة السمع وتعطيل لحاسة البصر.

وختمت آية النهار بالبصر؛ لأن دوام النهار ـ وهو ظرف لأعمال الناس وتصرفاتهم ـ يناسبه البصر[1].

٤ ـ في سورة الجاثية[2]:

أ ـ ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ب ـ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

جـ ـ ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أ ـ جاءت فاصلة الآية الأولى: «للمؤمنين» دون غيرها لأن الله سبحانه ذكر العالم جملة في قوله: ﴿السموات والأرض﴾. ومعرفة ما في العالم من الآيات الدالة على أن مخترعه حكيم قادر مختار، فرع عن التصديق بوجود صانع على هذه الصفات، والتصديق يناسب الإيمان.

ب ـ أما فاصلة الآية الثانية فجاءت بعد الدعوة إلى التأمل في خلق الإنسان، وتدبير خلق الحيوان. وهذا يزيد الإيمان قوة ويقينا.

جـ ـ أما فاصلة الآية الثالثة فجاءت بعد معرفة جزئيات العالم، واختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح، ونزول المطر، وإنبات النبات الذي به يعمر الكون.. وهي أمور يقتضي

---

(١) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٨٩.

(٢) الآيات ٣ ـ ٥.

تدبرها رجاحة عقل، ورصانة تأمل بعد أن يدرك الشخص أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع الكليات. فناسب هذا أن يأتي الختام بالعقل؛ لأن مضمون الآية يحتاج إلى تدبر وإعمال فكر ورجاحة عقل(١).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾(٢).

لم يقل: «مؤدون»، أو «معطون»، أو «مؤتون» أو نحوها لأن هذه العبارات لا تستوي في مراد الآية. إن هذه الكلمات تفيد حصول الاسم فقط، ولا تزيد على مجرد الإخبار عن أدائها. ولكن المراد هنا المبالغة في أدائها، والمواظبة على إخراجها حتى أصبح صفة لازمة لهم، وصار أداء الزكاة فعلاً لهم مضافاً إليهم يُعرفون به، فهم له فاعلون(٣).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٤).

لم تنته الآية بـ: «فإنك أنت الغفور الرحيم» مع أن المقام مقام صفح وغفران لحكمة تظهر بالتأمل.

إذا أمعن الإنسان النظر وجد أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمه، وكانت سلطته أعلى السلطات، وقوته أعظم القوى، وعزته فوق كل عزة. ومن كان كذلك يجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي تضع الشيء في محله. فحين جاءت

---

(١) إعجاز القرآن البياني لحفني شرف/ ٢٢٢.
(٢) المؤمنون ٤.
(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي/ ٤١.
(٤) المائدة ١١٨.

الفاصلة بالعزة، للإشارة إلى أن القادر على العقاب عزيز دائماً، وهو قادر على المغفرة، كما هو قادر على العقاب ـ لم يكن كافياً أن يقتصر على وصف العزة؛ لأنه ليس كل قادر عادلاً أو حكيماً، فقرنت العزة بالحكمة(١).

والمعنى: إن تغفر لهم، وهم مستحقون للعذاب، فلا اعتراض عليك من أحد في ذلك، والحكمة متحققة فيما فعلته(٢).

٧ ـ ختمت كثير من الفواصل بأسماء الله تبارك وتعالى، إلا أن هذه الأسماء قُدّم بعضها تارة، وأخر أخرى. والعادة إذا اجتمعت الرحمة والمغفرة أن تتقدم المغفرة فيقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣)، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥). وهذا شيء طبيعي؛ لأن المغفرة ستر الذنب، والرحمة تفضّل وإنعام. وستر الذنب مقدم؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، كما يقولون.

ولكن آية واحدة في القرآن قدمت فيها الرحمة على المغفرة، وهي قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾(٦).

---

(١) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/٢٠٤، وأصله في الإتقان للسيوطي (النوع التاسع والخمسون: في فواصل الآى). ونظير ذلك قوله تعالى في سورة التوبة ٧١: **﴿أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾**، وفي سورة الممتحنة ٥: **﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾**، وغيرهما.

(٢) الإتقان ٢/١٠٣، ومن بلاغة القرآن/ ٧٧.

(٣) البقرة ١٨٢.

(٤) البقرة ٢١٨.

(٥) يوسف ٩٨.

(٦) سبأ ٢.

فما السبب؟

سياق الآيات يحتم ذلك. فالفواصل الأولى كلها كان يتقدمها ما يشعر بالذنب والخطأ أو التقصير، لذا كانت المغفرة أولا. ولكن هذه الآية لم يتقدم فيها شيء من هذا، وإنما كل الذي ذكر هو حمد الله الذي له ما في السموات والأرض، ويعلم ما في باطن الأرض، وما يخرج منها، وداخلها وخارجها، وما ينزل من السماء، وما يصعد إليها. ففي هذا من مصالح الناس الكثير، وهو لا يعدو أن يكون رحمة من الله تبارك وتعالى، لذلك قدمت الرحمة على المغفرة(1).

٨ ـ جاءت بعض الآيات في القرآن مختلفة الفواصل مع أن المتحدث عنه فيها واحد ومن ذلك:

أ ـ ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(2).

ب ـ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(3).

ذلك أن القرآن قد راعى في الآية الأولى موقف الإنسان من نعم الله فهو ظلوم كفار، فختمت الآية بما يناسب ذلك. وراعى في الآية الثانية مقابلة الله نكران الجميل، وكفران النعم بالغفران والرحمة، فختمت الآية بما يناسب الحديث عن الله جل وعلا(4).

(1) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية/ ٩٣. وانظر كذلك من بلاغة القرآن/ ٧٦ وما بعدها. وانظر في تقديم المغفرة على الحلم في البقرة (٢٢٥) والحلم على المغفرة في فاطر (٤١) والإسراء (٢٥): قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ٩٤، ٩٥.

(2) إبراهيم ٣٤.

(3) النحل ١٧، ١٨.

(4) من بلاغة القرآن/ ٨٤، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٠٥.

٩ ــ وقد يكون اختلاف الفواصل مع تماثل ما سبقها بقصد تعديد الأوصاف وإثباتها حتى تستقر في النفس مثل:

* ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١).
* ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢).
* ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣).

فالآيات تريد أن تشير إلى أن من لم يحكم بما أنزل الله ساتر لما أنزل الله، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر. أو تريد أن تقول إن من لم يحكم بشرع الله فقد كفر به، وظلم نفسه وغيره، وخرج عن حدود الاستقامة والعدالة(٤).

١٠ ــ وأخيراً نقول: جاء في الآثار أن عربياً سمع قارئاً أخطأ فقرأ: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم»، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا. إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه. ثم رجع إلى القرآن فوجد القارىء قد أخطأ، ووجد صواب الآية كما توقع، وهو: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٥).

---

(١) المائدة ٤٤.
(٢) المائدة ٤٥.
(٣) المائدة ٤٧.
(٤) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين /٢٠٦.
(٥) البقرة ٢٠٩. وانظر: المعجزة الكبرى لأبو زهرة/١٣٤، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/٢٠٥.

(الفصل الثاني)
إعجاز القرآن

١ ـ إعجاز القرآن وبداية التأليف فيه:

الإعجاز لغة مصدر «أعجز»، يقال: أعجزت فلاناً: إذا جعلته عاجزاً. واصطلاحاً اتصاف الشيء بأنه أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة(١).

أما المعجزة فهي اسم فاعل من أعجز، لحقته تاء التأنيث، ثم صارت تطلق على ما يأتي به النبي من فعل خارق للعادة يؤيد به نبوته(٢).

والمراد بإعجاز القرآن كونه أمراً خارقاً للعادة، لم يستطع أحد معارضته برغم تحديه لهم، وتصديهم لمعارضته.

وقد ظلت قضية الإعجاز القرآني مطروحة على الأجيال، يتناولها علماء الكلام والتفسير حتى استقلت بتأليفات مفردة منذ القرن الثالث الهجري.

وقدّم القرن الرابع رصيده المتمثل في:

١ ـ النكت في إعجاز القرآن للرماني (توفي ٣٨٤هـ).

٢ ـ بيان إعجاز القرآن للخطابي (توفي ٣٨٦هـ).

---

(١) فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي/ ٧.

(٢) السابق/ ٩، وانظر مناهل العرفان ١/ ٦٦.

٣ ــ إعجاز القرآن للباقلاني (توفي ٤٠٣هـ).

ثم جاء القرن الخامس فبرز فيه عبدالقاهر الجرجاني الذي قدم عملين حول إعجاز القرآن هما:

١ ــ دلائل الإعجاز.

٢ ــ الرسالة الشافية (في إعجاز القرآن)(١).

وتوالت المؤلفات ـ بعد ذلك ـ وامتد التأليف في إعجاز القرآن حتى العصر الحديث. وهذا وجه آخر من أوجه الإعجاز القرآني «أن يظل معروضاً على الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، وهو رحب المدى، سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغاً امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، وفوق كل طاقة»(٢).

٢ ــ التحدي وآيات المعاجزة:

إذا كان القرآن قد جاء شاهداً واضحاً، ودليلاً قاطعاً على نبوة هذا البشر الرسول، فقد أثار المشركون حوله شبهات كثيرة.

وإذا كان القرآن قد فرض إعجازه البياني من أول المبعث على هؤلاء الذين سبقوا للإيمان، فهو قد فرضه كذلك على من ظلوا في سفههم وشركهم. وكان هذا سبب تخبطهم فيما خلعوه عليه من صفات بقصد الانتقاص منه، وتنفير الناس من سماعه، كقولهم إنه أساطير الأولين، أو إنه يعلّمه بشر، أو وصفهم إياه بأنه إفك، أو افتراء، أو أضغاث أحلام.

---

(١) انظر فكرة إعجاز القرآن للحمصي، في أماكن متعددة، وبنت الشاطيء في مدخل كتابها: الإعجاز البياني للقرآن.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطيء/ ٢٨.

ومنهم من كان أقل سفاهة فوصفه بأنه شعر، أو أنه كهانة، أو أنه سحر. وقد صدقوا في وصفهم القرآن بالسحر ـ لا بالمعنى الذي أراده أبو جهل بن هشام[1]، ولكن باعتبار ما يحويه من سحر البيان، وما يتمتع به من قوة التأثير[2].

ومن أجل هذا العناد والتحدي منهم، كان لابد للقرآن أن يتحداهم علانية وبقوة، ليبين أنه معجزة النبي إليهم، يتحدى العرب والإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بجزء منه.

والمراد بالتحدي الإتيان بما هو مثل القرآن في كل شيء، كما يستفاد من لفظ المماثلة. ويشمل ما في القرآن من بيان رفيع، وأسلوب معجز، ونظم فريد، وعاطفة متأججة، وجمع بين الفكر والخيال، وحسن معرفة في مخاطبة النفس.. وما فيه من علم، وإخبار عن الماضي والمستقبل. وهذا كله مما تعجز مؤهلاتهم وثقافتهم عن مثله[3].

وآيات التحدي في القرآن متعددة. فقد وردت في خمس سور هي: البقرة ويونس وهود والإسراء والطور، ونصها:

١ ـ آية البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

---

(١) وهو قوله: إن محمداً جاء بكلام هوالسحر، يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.
(٢) انظر: الإعجاز البياني لبنت الشاطيء/ ٣٤ ـ ٤١.
(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٢٤.
(٤) آية ٢٣.

٢ ـ آية يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

٣ ـ آية هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

٤ ـ آية الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣].

٥ ـ آية الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[٤].

وقد اختلف العلماء في ترتيب مراحل التحدي ودرجاته:

١ ـ فالسيوطي يذكر أن القرآن تحداهم أولاً بأن يأتوا بمثله، وأمهلهم سنين طوالا فلم يقدروا (آية الطور). ثم تحداهم بعشر سور منه (آية هود). ثم تحداهم بسورة، وكرر هذا التحدي (البقرة ـ يونس). فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه حكم عليهم القرآن بالعجز (آية الإسراء)[٥].

٢ ـ ويخالف الشيخ محمد رشيد رضا الرأي السابق، لأنه من غير الممكن أن تكون آية من سورة متأخرة، قد نزلت قبل سورة متقدمة. ويرى أن

---

(١) آية ٣٨.
(٢) آية ١٣.
(٣) آية ٨٨.
(٤) الآيتان ٣٣، ٣٤.
(٥) الإتقان ٢/١١٧، وانظر: فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٢١.

القرآن في تحديه كان حريصاً على أن يفند التهم المختلفة. ولهذا عبر عن المعنى الواحد بالعبارات المختلفة، دون تناقض بينها، أو في شيء منها.

فالتحدي بالسور العشر يفنّد تهمتين وجههما الكفار للنبي هما: افتراء القرآن، وافتراء أخباره وقصصه. فكان التحدي بالعشر حتى يتسع القدر للأخبار والقصص. أما التحدي بالسورة فكان مطلقاً. وبهذا اختلف موضوع التحدي في كل.

وترتيب آيات التحدي عنده ـ حسب تاريخ النزول:

أ ـ الإسراء، وفيها ذكر للقرآن كله (وإن لم يكن بصورة التحدي في نظره).

ب ـ يونس، وكان التحدي فيها بسورة.

جـ ـ هود، وكان التحدي فيها بعشر سور.

د ـ الطور، وكان التحدي فيها بجملة القرآن.

هـ ـ البقرة، وكان التحدي فيها بسورة.

بل وأكثر من هذا يحدد الشيخ رضا السور العشر التي رأى أن القرآن عناها بما جاء به التحدي في سورة هود وهي: الأعراف ـ يونس ـ هود ـ مريم ـ طه ـ الشعراء ـ النمل ـ القصص ـ ص ـ القمر. وهي السور التي جمعت بين القصص وقوة التعبير وجماله[1].

ولا تخرج الدكتورة بنت الشاطيء في ترتيبها لآيات التحدي أو المعاجزة ـ كما سمتها ـ عما قاله الشيخ رضا، وإن كانت قد أضافت بعض إيضاحات بتعليقاتها على هذه الآيات.

وبهذا صار الترتيب عندها:

---

(١) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٢٢ ـ ٣٢٦.

أ ـ آية الإسراء المكية. وفيها إقرار ببشرية الرسول، وتحد جهير لأولئك الذين أبوا إلا نفوراً واستكباراً.

ب ـ وبعدها نزلت آية يونس تتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فحسب مثل القرآن.

جـ ـ بل لماذا لا يأتون بعشر سور مثله مفتريات، وقد زعموا أن محمداً افتراه؟ بهذا تحدتهم آية هود التي نزلت بعد سورة يونس مباشرة.

د ـ بل لماذا لا يأتون ـ واللغة لغتهم، والبيان طوع ألسنتهم ـ بحديث مثله؟ كما تحدتهم آية الطور.

هـ ـ وبعدها في مستهل العهد المدني نزلت آية البقرة أولى السور المدنيات، والتحدي فيها بسورة من مثله، إنهاء لهذا الجدل الذي طال[1].

٣ ـ ويرى سيد قطب أن فكرة التسلسل في التحدي من الكل إلى الجزء فكرة غير صائبة. وهو يرى أن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين، وظروف القول. لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعية محددة. فأتى بالتحدي دون مراعاة التدريج في الكم؛ لأن التحدي كان بنوع القرآن لا بمقداره. وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة، ولا يلزم الترتيب. وإنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة. فهو الذي يجعل من المناسب أن يكون التحدي بسورة، أو بعشر سور، أو بمثل هذا القرآن[2].

---

(١) الإعجاز البياني لبنت الشاطيء/ ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٥٧.

ولكن.. إلى من اتجه هذا التحدي؟.

لابد أولاً من التفرقة بين إدراك المعجزة وبين المعاجزة. فإدراك المعجزة ميسر لكل العرب في عصر المبعث، لا ينفرد به بلغاؤهم دون عامتهم. أما المعاجزة فتحمل التحدي للإنس والجن جميعاً، لكن الخطاب فيها موجه إلى المشركين العرب الذين جادلوا في المعجزة. والمقام يقتضي أن من يتصدون، للتحدي، إن استطاعوا، هم أعلى البلغاء مرتبة، وأقدرهم على البيان، إذ تفرض طبيعة الموقف ألا ينتظر من عامة مشركي العرب التعرض لهذا التحدي. وإنما يندب له بطبيعة الحال من يتوهم في طاقته القدرة عليه. ومعنى هذا أن المعاجزة تمت في مواجهة أمراء البيان، وإن أطلق التحدي عاماً للناس جميعاً[1].

وسؤال آخر: هل كان التحدي موجهاً إلى العرب في عصر المبعث؟ أو أنه قائم أبدا على امتداد الزمان؟.

وللإجابة عن السؤال لا بد أولاً من التفرقة بين الإعجاز والتحدي. فالإعجاز قائم في كل العصور، باق على مر الدهور لا يختص به أهل زمان دون زمان. أما التحدي فكان للعرب في عصر المبعث؛ لتميزهم على غيرهم بما أوتوا من لسان عربي يدركون أسرار بيانه. فمناط التحدي إذن هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث عن معارضة القرآن دون أن يفهم من هذا أن حجة إعجازه خاصة بعصر دون عصر أو على العرب دون العجم. وما من شك في أن عجز البلغاء من العصر الأول عن معارضة القرآن، وفيهم أصل الفصاحة برهان فاصل في قضية التحدي التي حُسمت في عصر المبعث[2].

---

(١) الإعجاز البياني لبنت الشاطيء/ ٦١.

(٢) السابق/ ٦٥ ـ ٦٨.

وسؤال أخير: بماذا كان التحدي؟

قيل بأن يأتوا بمثل القرآن في كل شيء. وقيل بمثله بياناً ولغة وأسلوباً. واختار الثاني الأستاذ محمود شاكر فقال: «إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، لا بشيء خارج عن ذلك. فما هو بتحد بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان»[1].

ويكرر نفس المعنى في مكان آخر فيقول: «ما في القرآن من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لا يعرفه البشر من أسرار الكون.. كل ذلك بمعزل عما طولبوا به، وهو أن يستبينوا في لفظه وبيانه انفكاكه عن نظم البشر وبيانهم، وأنه كلام رب العالمين»[2].

وهو في هذا لا يختلف كثيراً عما قرره الشهاب الخفاجي من قبل حينما رأى أن المثل المتحدى به هو المماثل في البلاغة، والأسلوب المعجز، وحسن النظم، وغرابة البيان[3].

ولم يذكر التاريخ أن أحداً قد أجاب على هذا التحدي، وإنما ذكر نماذج من محاولات ساذجة تمت على أيدي بعض المتنبئين أو الأدعياء، وئدت في مهدها؛ لأنها معارضات لم تساو القرآن أو تقاربه، وإلا لاشتهر أمرها، ولقضت على سلطانه.

---

(١) مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية/ ١٧، ١٨.
(٢) السابق/ ٢٢.
(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ١٧٩.

وهكذا ظل تحدي القرآن للكافة دون تعقيب. وثبت أن إعجازه الأدبي قد أفحم فعلاً عبقريات ذلك العصر .

٣ ــ قدر المعجز من القرآن:

تعددت الآراء حول هذه القضية:

١ ــ فقيل هو جميع القرآن. قال السيوطي: والآيات القرآنية ترده[٢].

٢ ــ وقيل هو مقدار ما يؤدي فكرة كاملة. فربما نقص عن مقدار سورة الكوثر كآية: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[٣]. وربما زاد عليها كثيراً، أو كان آية واحدة كآية المداينة[٤].
وأصحاب هذا الرأي يقولون إن التحدي لم يقع بمطلق سورة، بل بسورة تبلغ مبلغاً يتبين فيه رُتَب ذوي البلاغة[٥].

٣ ــ ويرى ابن قيّم الجوزية أن أي سورة في القرآن معجزة؛ لأنها تحتوي على وجوه الإعجاز كلها، يتساوى في ذلك أطول سورة كالبقرة، وأقصر سورة كالكوثر. ثم أخذ يعدد أوجه الإعجاز في هذه السورة بعد أن أجملها في واحد وعشرين وجهاً[٦]. ومن هذا الرأي ابن كثير الذي صرح بأن «كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها،

---

(١) السابق/ ٢٥ ـ ٢٧، والظاهرة القرآنية/ ٢٣٠، ٢٣١، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٧٦.
(٢) الإتقان ٢/١٢٣.
(٣) البقرة ١٧٩.
(٤) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٢٤.
(٥) السابق/ ٣٧٧.
(٦) السابق/ ١٤٤.

طويلة كانت أوقصيرة»[1]. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في تأييد هذا الرأي: «وإذا قيل إن التنكير في قوله: بسورة، يصدق على أصغر سورة وهي سورة الكوثر، وسلمنا أنه لا يظهر فيها اعجاز النظم والأسلوب، قلنا إنها معجزة بما فيها من الإيجاز، وخَبَرَي الغيب في أولها وآخرها»[2].

٤ ـ ويرى الفخر الرازي أن السور القصار ليست معجزة، وأن القول إن الإتيان بمثل سورة الكوثر، أو سورة العصر، أو قل يأيها الكافرون ـ خارج عن مقدار البشر يعد مكابرة[3]. ولكنه أخرج نفسه من شبهة وصف بعض القرآن بعدم الإعجاز بقوله: «فإن بلغت السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود. وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً». وبذا جمع الرازي بين القول بالبلاغة، والقول بالصرفة.

٥ ـ أما ابن حزم الأندلسي فيرى أن أي مقدار من القرآن معجز، يتساوى في ذلك قليله وكثيره. وهو يرد على من قال بأن أقل المعجز مقدار أصغر سورة احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[4]. بما يأتي:

أ ـ لم تقل الآية إن ما هو أقل من سورة ليس بمعجز.

ب ـ ما هو المقصود بالسورة؟ أهو عدد آياتها؟ أم عدد كلماتها؟ أم عدد حروفها؟ فإذا كان المعجز سورة كاملة كانت سورة البقرة

---

(١) السابق/ ١٥٠، والإتقان ٢/ ١٢٣.
(٢) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٢٠.
(٣) السابق/ ١٥٠، ١٥١.
(٤) البقرة ٢٣.

إلا آية منها غير معجزة. وإذا كان المعجز مقدار السورة آيات، وأقلها ثلاث، كانت آية المداينة غير معجزة، وكان ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾[1] معجزا مثل سورة البقرة.. وذلك يبطل إعجاز: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[2]. وهو نقض لقولهم إنه في أعلى درجات البلاغة، وإذا كان المعجز مقدار السورة كلمات أو حروفاً، فذلك مردود عليه بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[3] لأنهم جعلوا معجزاً ما ليس بسورة، ولم يقل تعالى: مقدار سورة[4].

٤ ـ الإعجاز البلاغي للقرآن:

رغم تعدد أوجه الإعجاز في القرآن يظل إعجازه البلاغي أو البياني أهم جانب من جوانب إعجازه[5]. لأنه الواضح بالنسبة للعرب، ولأنه هو الذي شده به العرب عند أول نزوله فحيرهم، وهم المدركون لأساليبه، العارفون لمناهجه[6] ومن أجل هذا جاءت المصنفات الأولى في الإعجاز أشبه بمباحث بلاغية تتناول أبواباً قدّروا أن إعجاز القرآن يعرف بها[7].

---

(١) الفجر ١ ـ ٣.
(٢) البقرة ١٧٩.
(٣) البقرة ٢٣.
(٤) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٨٢، ٨٣.
(٥) ولهذا يقول ابن الأثير: إن الإعجاز سيبقى في البيان دون غيره، وإن ثبت أن هناك إشارات علمية أو عددية معجزة. (انظر: من أساليب البيان في القرآن لأبو حمدة/٤).
(٦) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/٩٧.
(٧) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء/٦٩، ٧٢.

ويتفرع عن هذا الوجه من الإعجاز وجه آخر - اعتبره الخطابي وجهاً مستقلا من وجوه الإعجاز، وهو «صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس». فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثورا إذا قرع السمع خلص إلى القلب، وأنشأ فيه الروعة والمهابة، واستبشرت به النفوس، وانشرحت الصدور. وكم عدو للرسول أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً(١).

والأخبار كثيرة ومستفيضة عن دهشة العرب أمام القرآن، وعن الأثر الفعّال الذي كان يتركه سماع القرآن عليهم، كافرهم قبل مسلمهم:

١ - وقصة إسلام عمر نفسه قصة تهز النفوس. فقد أسلم بعد أن سمع القرآن لأول مرة، فرقّ قلبه، ودخل في دين الله. لقد«خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه.. فلقيه نُعيم بن عبدالله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.. فقال نعيم:.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد - والله - أسلما.. ورجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خبّاب.. وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى والله. ولقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه

---

(١) بيان إعجاز القرآن /٦٤. ويقول الخطابي: وفي إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب... الخ.

عن زوجها، فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وقرأ من سورة طه: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. حتى بلغ ﴿له الأسماء الحسنى﴾[1]، فقال عمر: ما أحسن هذا الكلام وأروعه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه من مكمنه فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأحد العمرين (يعني بالآخر: عمرو بن هشام المعروف بأبي الحكم وبأبي جهل).. فقال له عند ذلك عمر: دلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم..» وذهب إلى الرسول ﷺ وأسلم[2].

٢ ــ وإنه لخبر مشهور كذلك خبر تحير النفر من قريش على رأسهم الوليد بن المغيرة في أمر القرآن وماذا يقولون فيه. لقد ائتمرت قريش يومئذ حين حضر الموسم لكي يقولوا في هذا الذي يتلى عليهم وعلى الناس قولاً واحداً لا يختلفون فيه.. فلما آل الأمر إلى الوليد بن المغيرة رد كل أقوالهم بالحجة عليهم قائلا: «والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعِذْق، وإن فرعه لَجَنَاة[3]. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً (أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أو ساحر) إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ما قاله أبو جهل بن هشام إنه ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء

(١) طه ١ ـ ٨.
(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي/ ٦٤، ٦٥، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٥ ـ ٦.
(٣) وفي رواية: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمعرق، وإن أعلاه لمثمر (انظر البرهان الكاشف لابن الزملكاني / ٥٦).

وعشيرته»[1].

٣ ـ وهذا مصعب بن عمير يُسمع أُسيد بن حُضير (وهو أحد كبيري حي بني عبدالأشهل بيثرب) بعض القرآن فيعلن إسلامه من فوره. وما زال أسيد بسعد بن مُعاذ (أحد كبيري الحي نفسه) حتى صحبه إلى أسعد بن زُرارة (الأنصاري الخزرجي). . وحين طلب منه أن يسمع القرآن من مصعب، وتلا مصعب بعض الآيات نفذت إلى قلب ابن معاذ فمزقت عنه حجب الغفلة وغشاوة الضلال وأعلن إسلامه. وعاد إلى قومه يبلغهم بإسلامه «فوالله ما أمسى في حي بني عبدالأشهل رجل أو امرأة إلا مسلما ومسلمة».

٤ ـ وفي حديث العقبة نجد أن وفد الخزرج قد أسلم بمجرد أن تلا عليهم النبي آيات من القرآن. ثم لما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن، حتى لقد قيل: «فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن»[2].

٥ ـ وبعث الملأ من قريش عُتْبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليعرض عليه أموراً أرسلوه بها، فقرأ عليه الرسول آيات من سورة فُصِّلَتْ، فعاد عتبة بعدها إلى قريش مأخوذاً. فلما أقبل عتبة وأبصره قومه صاحوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[3].

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ

---

(١) الإعجاز البياني لبنت الشاطىء/٤١ عن السيرة لابن هشام، والظاهرة القرآنية/ ٢٣، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٤٦.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي/ ٦٤، ٦٥، والإعجاز البياني لبنت الشاطىء/ ٣٥، ٣٦.

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي/ ٦٤، ٦٥، والإعجاز البياني لبنت الشاطىء/ ٤١. وانظر: المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٧٠ ـ ٧٣، ومن أساليب البيان في القرآن لأبو حمدة/٨.

خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(1)، وفي قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(2)، وفي قوله: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(3).

فماذا في القرآن من أوجه البلاغة التي فاق بها سائر البلاغات؟ وما مظاهر إعجازه البياني؟ وما المعنى الذي يتميز به لفظه عن سائر أنواع الكلام؟.

لقد حار العلماء في الإجابة عن هذه الأسئلة، حتى اكتفى بعضهم بالقول «قد يوجد للكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس دون أن يوقف لذلك على علة» وعقب الخطابي على ذلك بقوله: «وهذا لا يقنع ولا يشفي. وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام»(4). ومع ذلك فإن من اجتهد منهم اعترف بعجزه وقصوره، ولم يدّع أنه اهتدى إلى أسرار الإعجاز القرآني، أو أحاط بجوانب الموضوع علماً.

ومن مجموع ما قيل يمكن استخلاص الأوجه الآتية على سبيل الإجمال:

١ ـ نظم حروفه، والتئام كلماته، وعجيب تأليفه، ووضع كل لفظ موضعه على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وتعليق هذه الألفاظ بعضها

---

(١) الحشر ٢١.
(٢) الزمر ٢٣.
(٣) الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩.
(٤) بيان إعجاز القرآن للخطابي/٢٢.

ببعض، وبناء بعضها على بعض، وجعل هذه بسبب من تلك[1]، ومراعاة التلاؤم بين معاني الكلمات المفردة، واجتماعها منظومة لتؤدي معنى شاملاً.

وصدق الرافعي حين وصف نظم القرآن فذكر أن فيه عزة وغرابة جعلتاه فوق محاولة تقليده: غريب تأليفه في بنيته، ونظامه الفريد الذي اتخذه في رصف حروفه، وكلماته وجمله وآياته قد خرجت به عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه[2].

٢ ـ خروجه عن المعهود من نظام كلام العرب وأوجه خطابهم، واختصاصه بأسلوبه المتميز. واختلافه في تصرفه عن طرق كلامهم المعتاد، فهو ليس بشعر، ولا بكلام موزون غير مقفى، ولا بكلام مسجوع، ولا مرسل إرسالاً. ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون من تتابع آياته.. وتجد في تركيب حروفه تناسقاً عجيباً.. بحيث يؤلف اجتماعها بعضها إلى بعض لحناً يفرض نفسه على صوت القارىء..

وإذا كانت كل شطرة من شطرات الشعر لا تتصف بجمال النظم وحسن النسق إذا فصلت عن أختها، أو عما يتبعها ويسبقها من شعر، فهو عكس ماهو مشاهد في القرآن من أن كل آية ذات نسق كامل، وبلاغة لا مثيل لها، ومعان ساحرة لا يختلف في ذلك وجيزها وطويلها[3].

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي/ ٢٠٩ وما بعدها، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر/٩٨، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/٩٠، وفكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٨٩، ٣٧٦.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي/٢٠٩ وما بعدها.

(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٢٣٠، ٣٠٣، ٤٠٤، وإعجاز القرآن للباقلاني ٦٦، ٦٧، ومن بلاغة القرآن/٥١، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٩٠، ٩١، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٥٣.

ويعبر مالك بن نبى عن هذه الفكرة بأسلوبه الخاص فيقول: «تتميز اللغة الجاهلية بالتعبير الموسيقي الموزون في شكل أبيات من شعر، وبالتعبيرات المجازية التي تستعير عناصرها من سماء بلا سحاب، وصحراء بلا حدود. . وقد جاء القرآن فطوى بعبقريته الخاصة هذه اللغة كيما يعبّر عن فكرة عالمية، واختار القرآن للتعبير عن هذه النكرة صورة جديدة هي الجملة. فالآية القرآنية قد أقصت شعر البادية جانباً، وإن ظل نسقه باقياً؛ إذ هي تحررت من الوزن فحسب، فاتسع مجالها»(١).

٣ ـ مادة صوته وائتلاف حركاته وسكناته، وما يحويه من إيقاع موسيقي، ولحن عجيب لا يوجد في أي كلام آخر. وفي هذا اللحن اتساق وائتلاف يشبه أثر الموسيقى والشعر، ويزيد عليهما أنه دائماً في لحن متنوع متجدد يطرد الملالة مهما تكررت التلاوة. وقد كان هذا هو أول شيء أحسته الأذن العربية من يوم نزل القرآن، حتى خيل إليهم أنه شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، أخذتهم منها هزة(٢).

٤ ـ التحام أجزائه بعضها ببعض، سواء على مستوى السورة كلها، أو على مستوى الآية مع الآية التي تسبقها أو تتبعها. وهذا الالتحام متوفر على السواء في السور التي أنزلت آياتها متفرقة، أو نزلت آياتها دفعة واحدة. ومما يثير الدهشة حقاً أنه رغم نزول القرآن منجّماً بحسب الحوادث، وكان النجم منها يوضع في مكان كذا من سورة كذا، ولا يراعى فيه التتالي التاريخي للنزول، فقد يوضع نجم متأخر قبل نجم

---

(١) الظاهرة القرآنية/ ٢٣١.

(٢) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ١٠١، والتعبير الفني لبكري أمين/ ١٨٦، وفكرة إعجاز القرآن للحمصي/٣٣٢، ٣٦٥، ٣٧٦.

متقدم ـ رغم هذا فقد تكوّن من هذا المجموع على هذه الصورة سور متكاملة في المعاني منسجمة في المباني، دون أن يكون فيها أدنى خلل.

وقد اختار الدكتور عبدالله دراز سورة البقرة ـ على طولها وكثرة نجومها وبعد الفترات بينها، وعدم توالي هذه النجوم في النزول بحسب ترتيب الآيات في السورة ـ ليجعلها شاهداً على حسن الانسجام والارتباط. وقد أبدع الدكتور دراز في بيانه نظام عقد المعاني في السورة، وترابط آيات كل قسم، وترابط كل قسم مع ما قبله وبعده[1]. وختم دراسته بقوله: «لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»[2].

وقد تحدث العلماء كذلك عن وحدة السورة وتلاحم أجزائها مهما تعددت أغراضها، وكثر تصريف الحديث، أو تلوين الخطاب فيها، ومهما تنقلت بين الموضوعات المختلفة، من تشريع وقصص ومواعظ وحجاج ووعد ووعيد. فكأن السورة في ائتلافها، وتناسق أجزائها بناء هندسي قد أحكم فنه، وزاد إتقانه، حتى صار كلا لا يتجزأ[3].

كما تحدثوا عن التلاحم، وعلو الأسلوب، وعدم التناقض الموجود في أوجه القراءات المختلفة. واعتبروا من الإعجاز تعدد القراءات والحروف مع وحدة الأسلوب[4].

---

(١) النبأ العظيم/ ١٦٣ وما بعدها.
(٢) السابق/ ٢١١. وانظر: فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ١٦٥، ٣٨٢، ٣٨٣، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٢٦٥.
(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٤٠٤، ٤٠٥، ٤١٢، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٢٦٣، ومن بلاغة القرآن/ ٥٢.
(٤) مناهل العرفان ١٤٢/١.

٥ ــ دقة تعبيره. وسلامة ألفاظه مما يشين اللفظ، واختيار كلماته بحيث لا يمكن إبدال كلمة من القرآن بأخرى تنوب عنها تماماً. فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى ليصور به ما حدث أو سيحدث أحسن تصوير وأبلغه. وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾(١) فاختيار الفعل «ذبح» مع تضعيف عينه للدلالة على كثرة القتلى، ووحشية الصورة التي تم بها القتل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾(٢). فقد جاءت كلمة «العبوس» وصفاً لليوم للكشف عن نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، وأنهم يجدونه عابساً مكفهراً شديد السواد بعد فقدهم الأمل فيه. كما جاءت كلمة «قمطرير» بجوارها لتزيد بثقلها الإحساس بثقل هذا اليوم. وجاءت كلمتا «نضرة» و«سرور» في المقابل لتعبرا بكل دقة عن المظهر الحسي لهؤلاء المؤمنين وما يبدو على وجوههم من إشراق، وما يملأ نفوسهم من بهجة(٣).

وسبب هذه المزية التي ينفرد بها القرآن أن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض. وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر. ولا بد من استحضار معاني الجمل، أو استحضار جميع ما يلائمها من الفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها. واستحضار هذا متعذر على البشر، وهو

---

(١) إبراهيم ٦.

(٢) الإنسان ١٠، ١١.

(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٣٠، ٣٦٤، ٣٦٥، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٩، ٤١١، والإتقان للسيوطي ١٢٥/٢. وانظر ما سبق في فصل «أسرار التعبير القرآني».

حاضر وحاصل في علم الله.. ولذا كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه. يقول الخطابي: «إن علم البشر لا يحيط بجميع الأسماء والألفاظ التي هي ظروف المعاني وحواملها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله»[1].

٦ ـ تنوع موضوعاته، رغم ما قد يبدو في بعضها من تكرار. وأكثر ما يظهر ذلك في القصص القرآني الذي وإن بدا مكررا، فإنه لم ينشىء في الحقيقة أي نوع من التكرار نظراً لتقديمه في صور مختلفة، وبأساليب متنوعة. فكل مشهد في القصة يختلف عن سابقه في كلياته أو جزئياته. وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق ملايين الناس. كلهم ناس، ولكن لكل سحنته وسمته في هذا المتحف الإلهي العجيب.

والحكمة من تكرار القصص القرآني تثبيت بعض المعاني في الأذهان بأشكال متعددة. وكذلك التفنن في القول ليتجلى إعجاز القرآن، وقصور الطاقة البشرية عن تقليده. ومن أجل هذا لا تعثر في القرآن على معنى يتكرر حرفياً، وبأسلوب واحد. ويلاحظ ـ مع تغير الأسلوب اللفظي ـ تغير طريقة التصوير والعرض. وخذ مثلاً على ذلك قصة نوح عليه السلام، واختلاف أسلوبها بين سورة هود[2]، والقمر[3] ونوح[4].

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي/ ٢٤. وانظر معترك الأقران للسيوطي ٢٨/١.

(٢) انظر من قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا﴾ ـ الآية ٢٥ وما بعدها.

(٣) انظر الآيات ٩ ـ ١٥.

(٤) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٤٧، ٤٠٦، ٤٠٧.

٧ ـ تصويره الفني، مع الإبداع في العرض، والجمال في التنسيق، والقوة في الأداء. وقد كان هذا هو الملمح الثاني ـ إلى جانب الإيقاع الموسيقي ـ الذي لفت نظر العرب منذ اللحظة الأولى. ومما يدل على ذلك أنهم سحروا به منذ أول نزوله، ودون أن يظهر إعجازه التشريعي، وصلاحيته لكل زمان ومكان، ودون احتواء على أخبار الغيب، أو العلوم الكونية في خلق الإنسان والكون. ولهذا يقول سيد قطب: «كانت السمة الأولى للتعبير القرآني اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وإبرازها في صورة حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية والحوادث الماضية والقصص المروية والأمثال القصصية ومشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب والنماذج الإنسانية... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخيل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة»(١).

وقد ظهر بالإحصاء أن أكثر من ثلاثة أرباع القرآن يستخدم طريقة التصوير في التعبير. ولا يستثنى من هذا إلا مواضع التشريع، وبعض مواضع الجدل، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي التقرير الذهني المجرد(٢).

ويعبر عبدالقاهر الجرجاني عن هذه الفكرة حين يذكر أن القرآن يتميز بالصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير، والجمال في الأداء(٣).

---

(١) السابق /٣٤٦.
(٢) السابق/ ٣٤٧. وانظر إعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٤٧، ٣٤٨، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة ١٤٢.
(٣) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٨٦، ٨٧.

٨ ـ في القرآن ما هو أروع وأبدع من التآلف اللفظي، وهو النظر إلى دلالة الألفاظ من حيث هي أداة لتصوير المعاني، ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس السامع، وهي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي. فاللغات تتفاضل من حيث هي بيان أكثر مما هي أجراس وأنغام. وقد صيغت معاني القرآن بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم. فالآية تعطي كلا منهم من معناها بقدر ما يفهم، وما يفهم المتأخرون من معانيه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[1]. فالعربي العادي يفهم منها معنى الانبساط والاتساع. والمثقف يفهم منها معنى التكوير والاستدارة، وكلاهما موجود في اللغة[2].

٩ ـ طوّر القرآن ألفاظ اللغة فنقلها من قابلية التعبير عن الحياة البسيطة الخارجية والداخلية لبدوي إلى قابلية التعبير عن الثقافة الجديدة، والحياة الوليدة. فانتقلت اللغة العربية ـ في شكل طفرة ـ من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنياً. وبهذا أوجد القرآن ظاهرة فريدة في تاريخ اللغات. إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي، بل شيء يشبه الانفجار الثوري المباغت[3].

١٠ ـ اشتمل القرآن على صور من البديع لا تجتمع في عمل أدبي واحد، على نحو ما سنفصل القول في الفصل الخاص ببدائع القرآن.

---

(١) النازعات ٣٠.
(٢) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٣٧٧، ٤٠٥.
(٣) الظاهرة القرآنية/ ٢٣١ ـ ٢٣٣.

ولله در الزركشي الذي قدم في كتابه البرهان صورة فنية في وصف القرآن جاء فيها أنه «سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره. بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه»[1].

وصدق ابن حزم حين رفض عقد أي مقارنة بين بلاغة القرآن وبلاغة أي مخلوق على وجه الأرض؛ لأن «القرآن في أعلى درجات البلاغة من حيث إن الله قد بلغ به ما أراد. فهو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها. وليس هو أعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين؛ لأنه ليس من نوع كلامهم، لا من أعلاه، ولا من أدناه، ولا من متوسطه»[2].

---

(١) البرهان ١/٣، ٤.

(٢) فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٨٢.

(الفصـل الثـالث)
بـدائـع القـرآن

١ ـ مقدمـة:

يعنى ببدائع القرآن ما فيه من ألوان البـديع، وفنـون البيان، ووجـوه تحسـين الكـلام. وأشهـر من كتب فيهـا ابن أبي الإصبـع المصري (تـوفي ٦٥٤هـ) الـذي ألف كتاباً أسـماه «بـديـع القـرآن» لإثبـات إعجـاز القـرآن البياني(١).

وليست بدائع القرآن حلية تقتسر، ولا زينة يستغنى عنها الكلام، ولا زخـرفة يـأتي دورها بعـد استيفاء المعنى. وإنمـا هي سمات تـبرز إلى الوجـود ـ داخل نظم خاص به ـ الصور البيانية والمحسنات البديعية دفعـة واحدة. فكأنما هذا المحسن البديعي جاء في مكانه ليقوم بنصيبه في أداء المعنى أولاً. أما ما فيه من جمال لفظي، فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات يتـطلبها المعنى، ويقتضي المجيء بها(٢).

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد سُبق ببعض البلاغيين الذين استشهـدوا ببعض آيـات من القرآن عـلى بعض الألوان البـديعيـة، كـابن المعـتز، وأبي

---

(١) معترك الأقران للسيوطي ١/٣٧٣.

(٢) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي/ ١٨١.

هلال العسكري والرماني ـ فإن ذلك لم يكن على سبيل الحصر لهذه الأنواع، كما هو الحال لديه[1]. وإذا كان كتاب الرماني (توفي ٣٨٦هـ) «النكت في إعجاز القرآن» قد حوى عشرة فنون اعتبرها أقسام البلاغة، فقد حوى كتاب ابن أبي الإصبع نحواً من مائة فن بديعي، لا تقتصر فقط على تلك الفنون التي ضمها فيما بعد «علم البديع»، وإنما تضم كذلك فنوناً من التعبير صنفت فيما بعد تحت «علم المعاني»، أو «علم البيان»، كالمجاز والاستعارة والكناية والتمثيل والتشبيه والإيجاز والإطناب[2]. بل ذكر السيوطي أن من العلماء من أوصل بدائع القرآن البليغة إلى مائتي نوع[3].

وإذا كان قد وجد من بين الباحثين في إعجاز القرآن من أخرج الألوان البديعية من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن[4]ـ فقد وجد من بينهم الفريق المقابل الذي حصر إعجاز القرآن في أدائه البياني، وفنه البديعي. ولكن معظمهم وقف موقفاً وسطاً، لا يستبعد فيه فنون البديع، ولكن ـ في نفس الوقت ـ لا يحصر مظاهر الإعجاز فيها.

ومن هؤلاء أبو بكر الباقلاني الذي بعد أن عرض لأوجه البلاغة عنده (هي هي أوجه البلاغة عند الرماني) أخذ يضرب أمثلة لها من القرآن والشعر والنثر. وربما بدأ بتقديم هذه الشواهد من كلام البشر ثم عقب عليها بقوله: «ونظير ذلك في القرآن»، أو «ومثله في القرآن»، مما يدل على أنه لا يمنع وجود المثل أو النظير للقرآن في هذه الفنون[5]. كذلك يصرح

---

(١) إعجاز القرآن البياني لحفني/ ١٢٦، ١٢٧.
(٢) انظر الإتقان للسيوطي ٢/٨٣.
(٣) معترك الأقران ١/٣٧٣.
(٤) إعجاز القرآن البياني لحفني/ ١٢٧.
(٥) الإعجاز البياني لبنت الشاطيء/ ١٠٠، ١٠١.

الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» بأن «كل ما يمكن تعلمه، ويتهيأ تلقنه، ويمكن تحصيله.. فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به»[1]. ويستنكر الباقلاني على بعض الناس أن «يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة.. التي تسمى البديع»[2]، أو أن يقول «إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضي إليه، مثلما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة نفسها معجزة»[3]. ويخص الباقلاني التشبيه بالذكر فيقول: «أما الآية التي فيها ذكر التشبيه فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها فإني لا أدفع ذلك، وأصححه. ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه»[4].

ونستعرض الآن عدداً من هذه البدائع التي اشتمل عليها القرآن، والتي عاد جانب من إعجازه إليها، لنرى مالها من قيمة فنية، وما احتوته من مظاهر الإعجاز البياني.

٢ ـ التشبيه:

يكثر التشبيه في القرآن الكريم، وهو يكثر كذلك في لغة العرب. يقول المبرد: «لو قال قائل هو أكثر كلام العرب لم يبعد». وقد أفرد تشبيهات القرآن بالتصنيف أبو القاسم عبدالله بن محمد بن الحسين (توفي ٤٨٥هـ) في كتاب أسماه «الجمان، في تشبيهات القرآن».

---

(١) ص ٣٥٤.
(٢) ص ٣٤٣.
(٣) ص ٣٤٤.
(٤) ص ٣٤٤.

وقد قال ابن أبي الإصبع في تعريف التشبيه: «هو إخراج الأغمض إلى الأظهر»، والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جلي، ومن بعيد إلى قريب[1].

وفي القرآن من روائع التشبيه الكثير، وهو يحقق إلى جانب الإيضاح، والانتقال من المجهول إلى المعلوم ميزات أخرى، مثل الاقتصاد في التعبير، والتأثير العاطفي، وإظهار شعور المتكلم نحو شيء ما.

وللتشبيه القرآني خصائص كثيرة أهمها:

١ ـ استمداد عناصره، وانتزاع أجزائه من الطبيعة (حيوان ـ نبات ـ جماد) لتقريب الصورة وشدة إيضاحها، وتيسير إدراك جمالها على كل شخص. ومن ذلك تشبيهاته بالعرجون[2]، وبأعجاز النخل[3]، وبالعصف المأكول[4]، وبالشجرة الطيبة[5]، وبالحبة أنبتت سبع سنابل[6] (نبات)، وتشبيهاته بالعنكبوت[7]، وبالحمار[8]، والكلب[9]، والفراش[10]،

---

(١) معترك الأقران للسيوطي ١/٢٦٩، والإتقان له ٢/٤٢، وبديع القرآن لابن أبي الإصبع/ ٥٨.

(٢) قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ (يس ٣٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ (القمر ٢٠).

(٤) قوله تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ (الفيل ٥).

(٥) قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾ (إبراهيم ٢٤).

(٦) قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ (البقرة ٢٦١).

(٧) قوله تعالى: ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتا﴾ (العنكبوت ٤١).

(٨) قوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ (الجمعة ٥).

(٩) قوله تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (الأعراف ١٧٦).

(١٠) قوله تعالى: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ (القارعة ٤).

والجمال[1]، والأنعام [2] (حيوان)، وتشبيهاته بالعهن المنفوش [3]، والجبال [4]، والحجارة [5]، والخشب [6] (جماد) [7].

٢ ـ أنه ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه. وهو ضروري في الجملة، ومطلوب للمعنى ليصبح قوياً.

٣ ـ دقته المتناهية. فالقرآن يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة أخاذة واضحة. فهو لم يكتف في تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن، بل وصفه بالمنفوش.

٤ ـ ما يتصف به من دقة فائقة في اختيار الألفاظ المصورة الموحية. ومن ذلك تفضيل القرآن لكلمة «بنيان» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[8]، لما تثيره الكلمة في النفس من معاني الالتحام، والاتصال، والاجتماع القوي، مما لا يثار في النفس عند سماع كلمة «حائط»، أو «جدار» مثلاً[9]

٥ ـ تعديد المشبه به في بعض الأحيان مع وحدة المشبه، لمحاً لصلة تربط

---

(١) قوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر﴾ (المرسلات ٣٢، ٣٣).

(٢) قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ (الأعراف ١٧٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ (القارعة ٥).

(٤) قوله تعالى: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ (هود ٤٢).

(٥) قوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾(البقرة ٧٤).

(٦) قوله تعالى: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ (المنافقون ٤).

(٧) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٤، وإعجاز القرآن البياني لحفني شرف ٣٢٣، ٣٢٤، ومن بلاغة القرآن لأحمد بدوي/ ١٩٠، ١٩٦ وما بعدها.

(٨) الصف ٤.

(٩) الحاشية قبل السابقة. وانظر الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي/ ٣٤٩، ٣٥٠.

بين هذا الأمر وما يشبهه، من أجل تثبيت الفكرة في النفس، أو تسجيلها من عدة زوايا. ومن ذلك تصوير حيرة المنافقين واضطراب أمرهم، فإن هذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس إذا هي استحضرت صورة الساري قد أوقد ناراً تضيء طريقه، فعرف أين يمشي. ثم لم يلبث أن ذهب الضوء، وشمل المكانَ ظلامٌ دامس.. أو إذا استحضرت صورة هذا السائر تحت صيب من المطر، قد صحبه ظلمات ورعد وبرق.. وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ.. أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ.. ﴾[1].

وأهم ما يهدف إليه التشبيه القرآني التصوير والتأثير في العاطفة، فترغب أو ترهب. ولذلك كان للكافرين والمنافقين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ﴾[2]، وقوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3].

وحين أراد أن يبين قدرة الله تعالى على أن يأتي بيوم القيامة بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى أسرع ما يرى الرائي فاتخذه مثلاً يؤدي إلى الهدف المراد: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[4].

---

(١) البقرة ١٧ ـ ١٩. وانظر من بلاغة القرآن/ ٢٠٢.

(٢) الأنعام ١٢٥.

(٣) الأعراف ١٧٩.

(٤) النحل ٧٧.

وحين يجيء يوم القيامة يستيقظ الناس دون أن يشعروا بأنهم قد مضى عليهم حين طويل من الدهر منذ فارقوا حياتهم. ويورد القرآن من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية فيقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[1]، ويقول: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[2]. وحين يبعث الناس يخرجون من أجداثهم في كثرة لا تعرف النفس مداها، فيرسم القرآن الصورة التي تدل على الغزارة والحركة والانبعاث في تشبيه بديع: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[3]. وحينما يريد تصوير ضعفهم وتهافتهم يجد في الفراش صورتهم فيقول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾[4]. وحين يريد تصوير ما سيلقاه المجرمون من ذلة وخزي وهوان يجعل طعامهم من شجر الزقوم يتناولونه فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم، فكأنما طعموا نحاساً ذائباً، أو زيتاً ملتهباً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ . وحين يشتد بهم الظمأ، ويستغيثون يغاثون بماء كالنحاس الذائب، أو الزيت الملتهب يشوي وجوههم ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾[6]. حقاً إنه تشبيه يثير في النفس الخوف والانزعاج.

وهكذا نرى أن من طبيعة التشبيه في القرآن تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً، وتقريب البعيد النائي حتى يصير قريباً دانياً[7].

---

(١) يونس ٤٥.

(٢) النازعات ٤٦.

(٣) القمر ٧.

(٤) القارعة ٤.

(٥) الدخان ٤٣ - ٤٦.

(٦) الكهف ٢٩.

(٧) من بلاغة القرآن/ ٢٠٤ وما بعدها، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٦، ١٩٧.

وفي القرآن من أنواع التشبيه الكثير:

أ ـ ففيه من التشبيه البليغ، الذي حذفت منه أداته للمبالغة، كقوله تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾(١)، وقوله: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(٢).

ب ـ وفيه من التشبيه المقلوب، الذي تدخل فيه الأداة على المشبه لا المشبه به قصداً للمبالغة، فيجعل المشبه أصلاً، والمشبه به فرعاً، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾(٣). إذ الأصل: «إنما الربا مثل البيع» لأن الكلام في الربا لا في البيع. فعدلوا عن ذلك، وجعلوا الربا أصلاً ملحقاً به البيع في الجواز، وأنه الخليق بالحِلّ(٤). ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(٥). فالمراد: «أفمن لا يخلق كمن يخلق»؛ لأن الخطاب لعبدة الأوثان، فخولف في خطابهم لأنهم بالغوا في عبادتهم وغلوا حتى صارت عبادة الأوثان عندهم أصلاً في العبادة، فجاء الرد على وفق ذلك(٦).

جـ ـ وفيه من تشبيه التمثيل الذي يبرز قوة التشبيه البيانية، ويعطي الفكرة عن طريق الصورة التمثيلية المركبة الأجزاء، مما يتيح لها حرية الحركة، في حين لا يعدو التشبيه المفرد أن يكون صورة ساكنة لمنظر واحد. هذا بالإضافة إلى ما يحققه عرض الصورة التمثيلية عقب الفكرة التي يراد توضيحها وتمكينها في ذهن السامع ـ ما يحققه من تقديم الفكرة مصحوبة بالدليل، والدعوى متبوعة بالحجة.

---

(١) الأحزاب ٦.

(٢) النمل ٨٨. وانظر الجمان/ ١٦٠.

(٣) البقرة ٢٧٥.

(٤) معترك الأقران ١/ ٢٧٤، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٣٠.

(٥) النحل ١٧.

(٦) الحاشية قبل السابقة.

* تأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[1].

فقد يتوهم متوهم أن المعنى يفهم لو اقتصر في التشبيه على «مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل». ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً حين يقرن بقية أجزائها إليها، من حمل الأسفار، وعدم الفقه بما فيها، واعتقاد أنها كبقية الأحمال تثقل الكاهل، وتجهد القوى. وذلك في جميع أبعاده يطابق حال اليهود، وقد منحوا التوراة لتكون لهم نبعاً يستقون منه الحكمة والهداية. ولكنهم حملوها، واكتفوا بإثقال سواعدهم بها دون أن يتدبروها. فتمام الصورة لا يحصل إلا بتجميع هذه الأجزاء، وإلحاق تلك القيود. ومن هنا تبرز الصورة قوية في التعبير، صادقة في الأداء.

* ومثله قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾[2]، تصويراً لنفرة الكفار من الدعوة الإسلامية. فلا يكفي في تصوير حالتهم وصفهم بالحمر. فهم يتصفون بصفة أخرى، وهي البعد عن الاسترشاد، ورفض الهداية، والابتعاد بسرعة عن الداعي كأن شيئاً يحثهم على الهرب. فهذه الحالة لا يكفي لتصويرها تشبيههم بالحمر، ولذا جاء بلفظ «مستنفرة» للإشارة إلى اندفاعها، سواء بنفسها أو غيرها. وزاد الصورة وضوحاً وتمكيناً في النفس حينما ألحق بها جزئية الفرار من أسد هصور يطلبها طعاماً لأنيابه ومخالبه فنجدها تتفرق في كل مكان، هائمة على وجهها، والخوف الشديد يملأ صدرها[3].

---

(١) الجمعة ٥.

(٢) المدثر ٥٠، ٥١.

(٣) النكت للرماني/ ٧٨، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٣٩، ومن أساليب البيان لأبو حمدة/ ٧٦، ١٠٠، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٦٩ وما بعدها.

* ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾(1). ففيه عشر جمل، وقد وقع التركيب من مجموعها، بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه. إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب، وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة. حتى إذا طمع أهلها فيها، وظنوا أنها مسلَّمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة فكأنها لم تكن بالأمس.

وموضع الجمال الحقيقي في هذا المشهد - مشهد الحياة القصيرة التي توشك أن تزول - هو في تناسق هذه الجمل العشر، والصور التي تطويها كل جملة منها في أوقات يتفاوت عرضها الخيالي طولاً وقصراً. فهناك مراحل أبطأ فيها التصوير وتمهل، ومنها ما اندفع فيها وأسرع حتى تم لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالألفاظ الجامدة ما لا يتم للفنان من الإبداع بالريشة والألوان.

لقد استخدمت في هذا المشهد الوسائل المقصّرة لعرض مراحل النبات، وهي إلغاء التعقيبية التي تطوي المشاهد بسرعة عظيمة. ما كاد الماء ينزل من السماء حتى اختلط به نبات الأرض مباشرة، وأصبح فجأة في متناول الناس يأكلونه، والأنعام تتمتع به.

ولكن أهل الأرض المتمتعين بنباتها البهيج يمتد بهم الغرور، ويلجون في اللهو، كأنهم يعيشون أبدا.. غارقين في متعها، متقلبين

---

(1) يونس ٢٤.

في نعمائها، مسحورين بزخرفها، فاستخدمت «حتى» الدالة على امتداد الصورة امتداداً يعرف أوله ويجهل منتهاه.

وقد شخصت الأرض مرتين، وقامت بحركتين، إذ أخذت زخرفها، وازّينت، كما تفعل العروس في يوم جلوتها. وهي قد تطلبت الزينة تطلباً، وسعت إليها سعياً، فلم تُزَيَّن، وإنما ازّيّنت.

ومع ازدياد غرور الناس، وإيقانهم الكاذب بقدراتهم الخارقة على كل شيء، وتطاولهم.. صورت الآماد الطويلة كأنها ومضات خيالية تتلاشى كما تتلاشى الأطياف، ففي لحظة من ليل أو نهار يأتي تلك الأرض أمر الله، فيطوي تلك الأخيلة الكواذب.. في وقت كلمح البصر.. فصار النبات حصيداً هشيماً تذروه الرياح[1].

* ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[2]. فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وجمع بينهما: بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة.. ولو قيل: «يحسبه الرائي ماء» ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً. وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأن الظمآن أشد حرصاً على الماء، وتعلق قلب به. وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة؟.

* وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ

---

(١) النكت للرماني/ ٧٦، ٧٧ والإتقان لسيوطي ٤٢/٢، ٧٠، ومن أساليب البيان لأبو حمدة/ ٧٠، ٩١، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

(٢) النور ٣٩.

ٱلرِّيحُ فِى يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىۡءٍ﴾[1]. وهو تشبيه قد أخرج ما لاتقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه. واجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك، وعدم الانتفاع، والعجز عن الاستدراك لما فات. وفي ذلك الحسرة العظيمة، والموعظة البليغة.

* وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ، وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ، كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[2]. فقد أخرج فيه ما لم تَجْرِ به عادة إلى ما قد جرت به. وقد اجتمعا في شدة الإعجاب، ثم في التغيير بالانقلاب. وفي ذلك احتقار للدنيا، وتحذير من الاغترار بها، والسكون إليها[3].

وأسرار خلود تشبيهات القرآن كثيرة، منها:

١ ـ أنها تشتمل على عناصر قوية تمكنها من البقاء والاستمرار، وتمدها بمدد من الحيوية لا ينفد. فقد استمد القرآن عناصر هذه التشبيهات من الطبيعة نفسها، كما سبق أن ذكرنا، كما أن تماسك الصور التشبيهية في القرآن، هذا التماسك الشديد جعلها بحيث لو حاولنا فصل أحد أجزائها، لانفرط عقد الصورة وانتثرت معالم الجمال فيها[4].

---

(١) إبراهيم ١٨.

(٢) الحديد ٢٠.

(٣) النكت للرماني/ ٧٥ ـ ٧٧، ومن أساليب البيان لأبو حمدة/ ٥٧ وما بعدها و٧٤ وما بعدها، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٦٢ وما بعدها.

(٤) إعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٣٦، ٣٣٧.

٢ ـ أنها تعبر عن الإحساس والشعور النفسي معاً، وترسم الصورة كما تحس بها النفس، وليس في شكلها الجامد الخارجي، ويتضح هذا مثلاً في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾(١). فالعرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين وتحس به النفس. فالقمر بعد تنقله في منازله يصبح دقيقاً نحيلاً محدودباً كأنه كوكب تائه لا أهمية له. فالوصف بالقديم يصور هيئة الهلال آخر الشهر، ويحمل إلى نفوسنا ضآلة حجمه وتقوسه. ومثله قوله تعالى متحدثا عن سفينة نوح: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾(٢). فالجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة التي تبرز ما يحس بها ركاب السفينة من فزع. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾(٣).فليس اللؤلؤ المكنون لوناً فحسب، وإنما هو لون صافٍ حي فيه نقاء وهدوء. وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها. وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من هذه الحجارة زينة لهن. فقربت بذلك الصلة، واشتد الارتباط. فليس الحسن وحده هو الجامع والرابط، ولكنْ للنفس نصيب أيضاً(٤).

٣ ـ أنها تحوي كثيراً من اللقطات الفنية التي تعزز المعاني والمقاصد، وتوظفها في خدمة النص. وهكذا تقوم القناطر باستمرار ما بين المعاني والنصوص من جهة، وعناصر البيئة المحلية من جهة أخرى.

---

(١) يس ٣٩.
(٢) هود ٤٢.
(٣) الواقعة ٢٢، ٢٣.
(٤) من بلاغة القرآن/ ١٩٢ وما بعدها، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٣، ١٩٤، والجمان/ ٢١٥.

انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ .. ﴾(١).
فنحن أمام توظيف جديد لعناصر البيئة الإنسانية، وفتح باب ننتقل فيه من المعلوم إلى المجهول. إن نفسية الكافر وما يدور فيها من تهويمات، وما يعتمل فيها من أفكار أمر يجهله المسلم لأنه لا يعلم مافي الصدور. ولكن المسلم يعلم أن الكلب يلهث إن حمل عليه، ويلهث إن ترك، واللهاث دليل ضعف وعجز.

وإذن فقد قامت قنطرة بين أمر كان مجهولا، وهو أمر معنوي، وأمر محسوس معلوم. وبذا غدا التشبيه تقريباً إلى المسلم وشرحاً وإيضاحاً وقوة برهان. ثم إن المعلوم أمر محسوس موجود في كل زمان ومكان. كان موجوداً زمن الرسول، وهو قائم اليوم، وسيظل قائماً(٢).

٤ ـ أنها تهدف من إلباس الأمر المعنوي ثوب الأمر المحسوس ـ وهو من أكثر التشبيهات وروداً في القرآن ـ جعل الصورة ظاهرة واضحة للعيان. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾(٣).
فالذين يعبدون غير الله تعالى، ويتعلقون بأوهام الاستجابة وتلبية

---

(١) الأعراف ١٧٦.
واللهث أن يخرج الحيوان لسانه مرطبا بلعابه في حال عطشه أو جوعه أو إعيائه، أو إهاجته وذعره. ويقولون إن أخس أحوال الكلب أن يكون منه اللهث في كل أحواله. ولذا شبه القرآن حال من ينسلخ من الهداية إلى الغواية، وما يصبح فيه من حال هياج مستمر، بحال الكلب في أخس أحواله وأذلها. (انظر المعجزة الكبرى لأبو زهرة/١٢٢). وهناك تفسير آخر للهث بأنه التنفس الشديد الذي يلحق الحيوان من شدة الإعياء (انظر: الجمان/٥٠).
(٢) من أساليب البيان لأبو حمدة/٦٦، ٦٧.
(٣) الرعد ١٤.

الرغبات ـ وهو أمر يتصل بالمعتقدات الذاتية لكل إنسان، وهو أمر نفسي معنوي لا يقف على دخيلته إلا رب العالمين ـ تشبه حالهم حال من يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، وهو أمر محسوس موجود في كل بيئة وكل زمان. وهكذا يكتسب المجهول لدى المسلم قوة الوضوح، من خلال المعلوم المحسوس الذي له قوة التجربة العلمية في التحقق والتثبت والمعاينة. ويقول سيد قطب: «وهي صورة تلح على الحس والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة. وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ»[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ، تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[2]. فلما كان إهلاك الله قوم عاد بالريح التي تقلع الناس وتقتلهم من المشاهد الرهيبة التي طواها الزمن السحيق، ولم يعد يحيط به خبرا إلا رب العالمين، فإن قنطرة المشابهة قامت بنقل مدينة الأشباح وآثار القوم إلينا عبر صورة حسية مألوفة ومعلومة تجري العادة بمثلها وتتوفر في كل زمان ومكان ينبت فيه النخل. وهكذا نقلت أسرار الماضي عبر صورة حسية لها قوة التجربة. ومع ذلك زخرت الصورة بعدد من الإيحاءات النفسية. ففي اختيار النخل إيحاء بطول أجسام القوم، كما جاء في مكان آخر من القرآن ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[3]. كما أن قوله تعالى: ﴿تنزع الناس﴾ مليء بالإيحاء أيضا؛ إذ لم تجر العادة بأن تصل الريح إلى داخل البيوت وأن ترفع أهلها

---

(١) من أساليب البيان لأبو حمدة/٦٨، ٦٩، وانظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب/٣٥، والجمان/٩٦.
(٢) القمر ١٩، ٢٠.
(٣) الأعراف ٦٩.

وتحملهم بقوة، ثم تلقيهم على الأرض جثثاً هامدة. كما أن في التعبير بـ «تنزع» إيحاء آخر بما كان لقوم عاد من استقرار ورسوخ وتمكن في الأرض(١).

٣ ـ الاستعارة:

تلجأ اللغة إلى الاستعارة لتحقيق مبدأ اقتصادي. فبدلاً من وضع لفظ جديد لكل معنى جديد ـ وهو ما لا سبيل إليه ـ تلجأ اللغة إلى الاستعارة، فتنقل اللفظ من معناه الذي وضع له في أصل اللغة إلى معنى آخر له صلة وثيقة بالمعنى الأول(٢).

وتتجاوز استعارات القرآن هذا الهدف القريب، فلا تجد استعارة فيه إلا وهي مستخدمة استخداماً فنياً يجعلها جزءاً متلاحماً مع سائر أجزاء البناء الذي وردت فيه؛ ولهذا قيل إن سر جمال الاستعارة القرآنية يتمثل في حسن تصويرها، وإيضاحها للمعنى، وإيجازها في أدائه، واختيار ألفاظها، ليأتلف بعضها مع بعض من ناحية، ولتأتلف مع معانيها من ناحية أخرى، ومراعاة حسن تشبيهها الذي بنيت عليه، ووضع الأمور المعنوية في صورة حسية(٣).

وتعد الاستعارة لوناً من ألوان التصوير القرآني الشائعة فيه، وأداة من

---

(١) من أساليب البيان لأبو حمدة/ ٧٠ ـ ٧٢. وهناك استيحاءات أخرى يمكن الشعور بها من خلال كلمة «منقعر»، وتنكير كلمة «نخل» (السابق/٧٣).
وانظر أمثلة أخرى في: المعجزة الكبرى لأبو زهرة، فصل «التشبيه في القرآن» ص ٢٦٠ وما بعدها، ومن أساليب البيان لأبو حمدة، تحت عنوان «تشبيه التمثيل في القرآن الكريم» ص ٩١ وما بعدها.
(٢) من أساليب البيان لأبو حمدة/ ١٢٨.
(٣) إعجاز القرآن البياني لحفني/ ٢٤٢، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٩، ٢٠٠.

الأدوات المفضلة لديه، من خلالها يعبر عن المعقول والمعنوي بأمر محسوس، فيصبح كأنه ملموس مرئي. فضلاً عما تتحمله الكلمة من إيحاءات عاطفية إضافية. وقد يتجه القرآن إلى التعبير بصورة استعارية أدخل في مفهوم الحسية وأوغل في باب التخييل فيستخدم التشخيص حين يخلع على المعنويات أو الجمادات صفات الكائن الحي.

وحسبنا أن نقف عند بعض الاستعارات القرآنية لنكتشف ملامح جمالها، ونتبين أسرار تفضيلها على مقابلاتها من الحقيقة:

* قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(1)، مراداً بهما الكفر والإيمان. وجمع الظلمات يصور لنا إلى أي مدى ينبهم الطريق أمام الضال فلا يهتدي إلى الحق وسط هذا الظلام المتراكم. فتأمل قوة التعبير بالظلمات والنور.

* وقال: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾(2). تأمل الفعل «أفرغ» وما يثيره في النفس من الطمأنينة التي يحس بها من هدأ جسمه بما يلقى عليه. وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ينالها من منح هبة الصبر الجميل. بالإضافة إلى أن «أفرغ» توحي باللين والرفق بخلاف ما استعمله مع العذاب مثل كلمة «صب»(3) التي هي مؤذنة بالشدة والقوة معاً(4).

* وقال: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾(5). فأصل الموج حركة الماء، فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة، لاشتراك الحركتين في

---

(1) إبراهيم ١.
(2) الأعراف ١٢٦.
(3) كقوله تعالى: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ (الفجر ١٣).
(4) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٨، ١٩٩.
(5) الكهف ٩٩.

سرعة الاضطراب والتتابع في كثرة[1]. هذا بالإضافة إلى أن تصوير الجمع المحتشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه في صورة الموج المتلاطم تضع النفس في مواجهة البحر الذي ترى العين منه ما ترى من حركة وتموج واضطراب لكن دون أن تحيط بأبعاده أو تبصر نهايته.

* وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[2]. فكلمة «اشتعل» لا تقف عند معنى الانتشار فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار. حتى إذا ما تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب حتى لا يذر شيئا إلا التهمه وأتى عليه[3]. هذا بالإضافة إلى ما يدل عليه من انتشار لا يمكن تلافيه كاشتعال النار.

* وقال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[4]. حقيقته: علا. والاستعارة أبلغ لأن «طغى»: علا قاهرا. وهو مبالغة في عظم الحال.

* وقال: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾[5]. حقيقته: انتفى الغضب. والاستعارة أبلغ لأنه انتفى انتفاء مراصد بالعودة. فهو كالسكوت على مراصدة الكلام، بما توجبه الحكمة في الحال[6]. ويجتمع مع الاستعارة التجسيم، فكأن الغضب إنسان يدفع موسى إلى الثورة والانفعال ثم يكف.

---

(١) الإتقان ٢/٤٤، ومن بلاغة القرآن/٢١٨.

(٢) مريم ٤.

(٣) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٨.

(٤) الحاقة ١١.

(٥) الأعراف ١٥٤.

(٦) النكت للرماني/ ٨٠ ـ ٨٢، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٨٠، ٢٨١.

ويحقق تجسيم المعنى، وخلع العقل والحياة على الجماد زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس، وإبراز المعقول في صورة المحسوس. ومن ذلك أيضاً:

* قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(١). فإلى جانب ما فيه من استعارة خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً ـ فيه تشخيص خلع الحياة على الصبح، حتى لقد صار كائناً حياً يتنفس، بل إنساناً ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقة من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة(٢).

* وقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾(٣). ففضلاً عما في الآية من تشخيص فإن الاستعارة تحقق المبالغة من جانب أن «القذف» أبلغ من «الإيراد» لأن فيه شدة الوقع. وفي شدة الوقع بيان القهر. وهو هاهنا إزالة الباطل على جهة الحجة، لا على جهة الشك والارتياب. و«الدمغ» أبلغ من «الإذهاب» وأشد، لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الإذهاب(٤). هذا بالإضافة إلى ما في «الدمغ» من معنى إصابة الدماغ، وتحطيم الرأس، مما يوحي بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل، وينتصر فيها الحق(٥).

* وقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ..﴾(٦). ففي هذا تعقيل للجماد بقصد الإشعار بشدة ما جناه

---

(١) التكوير ١٨.

(٢) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ٢٦٦.

(٣) الأنبياء ١٨.

(٤) التعبير الفني لبكري أمين/ ١٩٨، ١٩٩، ومن أساليب البيان لأبو حمدة/ ١٤١.

(٥) من بلاغة القرآن/ ٢١٩، وفكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٤١٥.

(٦) الملك ٧، ٨.

أولئك الكفرة، حتى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الذي لا يحس[1].

٤ ـ الكناية والتعريض:

الكناية لفظ أريد به لازم معناه. وليس هناك ما يمنع من أن يراد به - إلى جانب ذلك ـ معناه الحقيقي.

أما التعريض فهو لفظ استعمل في معناه للتلويح بغيره[2].

وتقوم الكناية في القرآن بنصيبها كاملاً في أداء المعاني خير أداء، وتصويرها أفضل تصوير. وهي حيناً راسمة مصورة موحية، وحيناً مؤدبة مهذبة تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً في لفظ قليل. ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعاني كما تؤديها الكناية في المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم[3].

وقد أجمع البلاغيون ـ كما يقول عبدالقاهر ـ على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح. وهما ـ مع ذلك ـ مما يجري فيه التفاضل، ويقع التفاوت[4]. وقد حفل القرآن الكريم بضروب شتى من الكناية والتعريض، وهما دائماً في المرتبة العليا من البيان، والمكانة العظمى من التصوير.

فمما جاء من الكنايات في القرآن مصوراً موحياً:

---

(١) من بلاغة القرآن/ ٢٢١، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ١٩٩، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٧٧ وما بعدها.

(٢) معترك الأقران ٢٩٢/١، والإتقان ٤٧/٢، ٤٨.

(٣) من بلاغة القرآن/ ٢٢٦، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٠٢.

(٤) معترك الأقران ٢٨٦/١، ومن أساليب البيان لأبو حمدة/ ١٥٥.

* قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1]. فالتعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفرة، فهي يد لا تستطيع أن تمتد بإنفاق أو عطية. كما أن التعبير بالبسط يصور هذا المبذر الذي لا يبقي من ماله على شيء، كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء.

* وكذلك تمثيل الآية: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[2] الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت. إنه ليس أي إنسان، إنه أخ. وأنت حين تغتاب تأكل لحم أخيك، وإنه ليس أي لحم، إنه لحم ميت متفسخ منتن. فمن يستطيع أكل لحم أخ ميت متفسخ؟[3].

ومما جاء منها مؤدباً مهذباً مستخدماً الرمز والإيماء، ومتجنبا ما ينبو عن الأذن سماعه:

* قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[4]. **إن الكناية في قوله : ﴿كانا يأكلان الطعام﴾**. فهو لم يرد المعنى الذي يتبادر إلى الذهن أولا، وإنما أراد ما وراء الأكل وتلك هي الكناية. لقد وصف الله المسيح عليه السلام بصفات البشر فعبر عن ذلك بأكل الطعام، وفي ذلك أدب رفيع، وذوق عال، ورقة ما بعدها مزيد. فأكل الطعام يحتاج إلى هضم. والمهضوم يسري إلى الجسد منه شيء، ويزيد منه شيء. وهذا المتبقي يخرج من سبيله المعلوم.

---

(١) الإسراء ٢٩.

(٢) الحجرات ١٢.

(٣) من بلاغة القرآن/ ٢٢٦، ٢٢٧، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٠٢.

(٤) المائدة ٧٥.

* ومن هذا النوع كذلك ما اتبعه القرآن حين أراد التعبير عن الغاية من المعاشرة الزوجية وهي التناسل، فقد رمز إلى ذلك «بالحرث»: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾[1]. ويكمل وصف تلك العلاقة بما فيها من مخالطة وملابسة بأنها لباس ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[2]. ومن هذا الباب: الإيماء اللطيف الذي يعلّمنا أدب التعبير في ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[3]، ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[4]، ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾[5]. ومن أجمل الكنايات في هذا المعنى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾[6]، ﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾[7].. لأن المراد بالفروج هنا فروج القمصان والثياب. فما تنفرج ثياب المؤمنين عن ريبة، ولا تنكشف دروع المؤمنات عن منكر[8]..

* ومنه التكنية عن المرأة بالنعجة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾[9]. فعادة العرب ـ وبخاصة الملوك والأشراف منهم ـ ألا يصرحوا بذكر النساء، ولا يبتذلوا أسماءهم. ولذا تعددت الكنايات عن الزوجة في لغة العرب[10].

---

(١) البقرة ٢٢٣.
(٢) البقرة ١٨٧.
(٣) النساء ٤٣.
(٤) البقرة ١٨٧.
(٥) الأعراف ١٨٩.
(٦) المؤمنون ٥.
(٧) الأحزاب ٣٥.
(٨) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ٢٧٥، والإتقان ٢/٤٧، ومن بلاغة القرآن /٢٢٧.
(٩) ص ٢٣.
(١٠) الإتقان ٢/٤٧.

ومما جاء لاختصار المقدمات التي لا أهمية لها، بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] ، فهذه كناية عن أنه جهنمي، وأن مصيره إلى اللهب. وقوله: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[2] . فهذه التي تسعى بالنميمة مصيرها أن تكون حطباً لجهنم، وأن تكون مغلولة اليد[3] . ومن الكناية الموجزة كذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[4]، أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله...[5].

وقد جاءت كنايات القرآن من أجل تحسين اللفظ، كما في قوله تعالى كناية عن حرائر النساء: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[6]، أو من أجل المبالغة، كقوله تعالى كناية عن النساء: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[7]. فقد كانت نساء العرب ينشأن في ترفه وتزين شاغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني. وفي هذا من المبالغة والبلاغة مالا يظهر في لفظ النساء[8].

أما التعريض فقد جاء أكثر ما جاء في القرآن بقصد الذم أو التهكم، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ

---

(١) المسد ١.
(٢) المسد ٤، ٥.
(٣) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح/ ٢٧٦.
(٤) البقرة ٢٤.
(٥) من بلاغة القرآن / ٢٢٨.
(٦) الصافات ٤٩. وانظر إعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٤٩.
(٧) الزخرف ١٨.
(٨) الإتقان ٢/٤٧، وإعجاز القرآن لحفني/ ٣٤٩، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٩٢ وما بعدها.

﴿ يَنطِقُونَ ﴾(1). ففي نسبة الفعل إلى كبير الأصنام تعريض بأن الصغار لا تصلح أن تكون آلهة لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وبأن الكبير لا يصلح أن يكون إلها لعجزه أن ينهض بمثل هذا العمل. وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(2)، فهو تعريض بذم الكفار بأنهم كالبهائم الذين لا يتذكرون. وفي هذا دفع للسامع إلى التفكير العميق حتى لا يكون ممن لا يتذكر(3).

وجاء التعريض كذلك للتلطف وترك المخاشنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾(4)، أي: ومالكم لا تعبدون.. وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾(5). ووجه حسنه إسماع من يُقصد خطابه الحقَّ على وجه يمنع غضبه، إذ لم يصرح بنسبته للباطل، وكذلك إعانته على قبوله، إذ لم يُرد له إلا ما أراده لنفسه(6).

٥ ـ المثـل:

المثل قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله. وفائدته أنه يبرز المعقول في صورة المحسوس، ويكشف عن الحقائق، ويقرب المعاني إلى الأفهام، ويعرض الغائب في صورة الحاضر، ويجمع المعنى الرائع في العبارة الموجزة السهلة، ويثبت المعنى في

---

(1) الأنبياء ٦٣.
(٢) الرعد ١٩.
(٣) معترك الأقران ١/٢٨٧، والإتقان ٢/٤٨، ٤٩، ومن بلاغة القرآن/ ٢٢٨.
(٤) يس ٢٢.
(٥) يس ٢٣.
(٦) معترك الأقران ١/٢٩٢.

الذهن، ويسهل طريق الوعظ والتأسي، ويدفع إلى الاقتناع بأوجز سبيل[1].

وقد يطلق المثل كذلك على كل حكمة سائرة، أو كل ما يحسن من الكلام أن يتمثل به. كما أنه قد يطلق على الصورة البيانية المستخدمة لتوضيح فكرة ما، سواء كانت تشبيها أو استعارة[2].

وقد أفرد أمثالَ القرآن بالتصنيف كثيرون منهم نِفْطَوَيْه (توفي ٣٢٣هـ)، وعلي بن محمد الماوردي(توفي ٤٥٠هـ)، وابن قيّم الجوزية (توفي ٧٥١هـ)[3].

وقد جاء كثير من أمثال القرآن في شكل لوحة فنية تصور مشاهد الطبيعة، وقد تأخذ طابع القصة بما فيها من تفصيل وبسط للصورة على غير عادة العرب. فالعرب مثلاً يضربون المثل للأمل الخادع بالسراب. ولكن القرآن يفصّل الصورة فيقول ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾[4].

وقد اتخذ القرآن الأمثال وسيلة من وسائل الوعظ والهداية، كما يبدو من الآيات التالية:

* ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ

(١) معترك الأقران ١/٤٦٥، والتعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٣١.
(٢) الأمثال في القرآن لابن قيم الجوزية/ ١٨ - ٢٠.
(٣) معترك الأقران ١/٤٦٤، والأمثال في القرآن/ ٢٣.
(٤) النور ٣٩. وانظر فكرة إعجاز القرآن للحمصي/ ٤١٨.

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[1].

والغرض من هذا المثل تصوير حادثة من الحوادث بقصد التأديب أو التحذير أو تبيان طريقة السلوك. وهو كلام مطنب بالنسبة للمثل السائر. وهو يجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير. . إنه قصة بأكملها جاءت في صورة مثل، وقصد بها التأديب والإرشاد.

* ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[2].

فقد شبه الله حال اليهود وقد حملوا التوراة وقرأوها وحفظوا ما فيها، ثم لم يعملوا بما جاء فيها بحال حمار يحمل أسفاراً من الكتب النافعة، وهو جاهل بمضمونها. ووجه الشبه بين الطرفين: شقاء كل باستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة من غير أن يحصل على شيء منها. وغرض التشبيه أو التمثيل: ذم اليهود بتلك الحال وتقبيح أمرهم.

* ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

وقد جاءت أمثال القرآن على أنواع:

١ ـ فمنها المصرح به أو الواضح، وهو ما تخلله لفظ «المثل» كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ

(١) يس ١٣ ـ ١٩.
(٢) الجمعة ٥. وانظر ص ٢١٧.
(٣) البقرة ١٩ ـ ٢٠.

ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

قال ابن قيم الجوزية: ضرب الله للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً نارياً، ومثلاً مائياً، فهم بدخولهم الإسلام قد استضاءوا. ولكن لما لم يكن في قلوبهم شيء من نور الإسلام أذهب الله من قلوبهم ما في النار من إضاءة، وترك فيها ما في النار من إحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون. فهذه حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل الإسلام ثم فارقه. ثم ذكر ابن قيم الجوزية حالهم بالنسبة للمثل المائي فشبههم بأصحاب صيب، وهو المطر الذي ينزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق. فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه حتى صارت كالصواعق لهم، فوضعوا أصابعهم في آذانهم وأغمضوا أعينهم..[2].

٢ ـ ومنها الكامن أو الخفي، وهو مالم يصرح القرآن بأنه مثلٌ ضُرب لحادثة معينة وإنما دل مضمونه على معنى يشبه مثلاً من أمثال العرب. أي أنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها. ومن ذلك استخلاص العلماء المثل: «خير الأمور أوساطها»، من قوله تعالى: ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[3]، أو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[4]. واستخلاصهم المثل: «احذر شر من أحسنت إليه»، من قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[5]. والمثل: «كما

---

(١) البقرة ١٧ ـ ١٩. وانظر معترك الأقران ١/٤٦٦.

(٢) الأمثال في القرآن/ ١٧٤ وما بعدها، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٢٧٢.

(٣) البقرة ٦٨.

(٤) الإسراء ١١٠.

(٥) التوبة ٧٤.

تدين تدان»، من قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1]. والمثل: لا تلد الحية إلا الحية»، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[2].

٣ ـ ومنها ما أرسل إرسالا، واكتسب صفة الشيوع لإيجاز لفظه، وإصابة معناه، وما تضمنه من حكمة أو مبدأ خلقي أو ديني[3]. قال السيوطي: «وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل»[4]، وذكر منه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[5]، ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[6]، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[7]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[8]، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[9]، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[10]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[11]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[12]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[13]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[14]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا

---

(١) النساء ١٢٣.

(٢) نوح ٢٧. وانظر معترك الأقران ١/٤٦٨، ٤٦٩.

(٣) التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٣٤.

(٤) معترك الأقران ١/٤٧٠. وانظر التعبير الفني في القرآن لبكري أمين/ ٢٣٥.

(٥) النجم ٥٨.

(٦) آل عمران ٩٢.

(٧) يوسف ٥١.

(٨) الحج ١٠.

(٩) هود ٨١.

(١٠) الأنعام ٦٧.

(١١) فاطر ٤٣.

(١٢) الإسراء ٨٤.

(١٣) البقرة ٢١٦.

(١٤) المدثر ٣٨.

ٱلْبَلَٰغُ﴾[1] ، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[2] ، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[3] ، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4] .

٦ ـ الإيجاز والإطناب:

اعتبر الرماني إيجاز القرآن أول أوجه بلاغته وإعجازه[5]، كما اعتبره كل من ابن أبي الإصبع في بديع القرآن، وقدامة في نقد الشعر من ألوان البديع في القرآن[6].

وقد عرّف البلاغيون الإيجاز بأنه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، أو بِنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى، أو تضمن الألفاظ القليلة المعاني الكثيرة[7].

وقد قسم البلاغيون الإيجاز إلى نوعين هما: إيجاز القِصَر، وإيجاز الحذف، وقد ورد كلاهما في القرآن الكريم.

أما **إيجاز القصر** فيتحقق بأداء المعنى الوافر باللفظ القاصد، وذلك عن طريق استخدام إيحاءات الألفاظ فتتسع دلالتها، وتنوب الواحدة عن كلمات أو جمل، ومن أمثلته في القرآن:

---

(١) المائدة ٩٩.
(٢) الرحمن ٦٠.
(٣) الحشر ١٤.
(٤) البقرة ٢٨٦.
(٥) النكت/ ٧١.
(٦) معترك الأقران ١/٣٠٤، والإتقان ٢/٨٣.
(٧) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٢٨.

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[(1)]. وقد كان الناس يستحسنون قول العرب: «القتل أنفى للقتل» فجاءت الجملة القرآنية فبزتها في البلاغة، وفاقتها في الإيجاز، وذلك من أربعة وجوه:

أ ـ كثرة الفائدة. ففيها ما في قولهم: «القتل أنفى القتل» وزيادة معان حسنة، منها: إبانة العدل، بذكر القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه، بذكر الحياة.

ب ـ إيجاز العبارة، لأن الآية عشرة أحرف، والمثل أربعة عشر حرفاً.

جـ ـ البعد عن الكلفة، بعدم تكرير الجملة.

د ـ حسن التأليف بالحروف المتلائمة[(2)].

وقد نقل السيوطي عن بعض البلاغيين تفضيلهم الآية على المثل بعشرين وجها أو أكثر، منها ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ ما في تنكير لفظ «حياة» من التعظيم. وما في الآية من اطراد بخلاف المثل، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلماً، بخلاف القصاص الذي ينفي القتل عن طريق الزجر. والطباق بين القصاص والحياة. وإشعار لفظ القصاص بالمساواة والعدل، بخلاف مطلق القتل[(3)]. وزاد بعضهم أن كلمة «القتل» في المثل محددة المعنى في حين أن «القصاص» يشمل القتل، ويشمل الاعتداء على الأطراف والجروح وغيرها[(4)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[(5)].

فهو جامع لمكارم الأخلاق، لأن في أخذ العفو التساهل، والتسامح في

---

(١) البقرة ١٧٩ .

(٢) النكت/ ٧١، ٧٢.

(٣) معترك الأقران ١/ ٣٠٠ وما بعدها، والإتقان ١/ ٥٥، ٥٦.

(٤) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤٨.

(٥) الأعراف ١٩٩.

الحقوق، واللين، والرفق في الدعاء إلى الدين. وفي الأمر بالمعروف كف الأذى وغض البصر وماشاكلها من المحرمات. وفي الإعراض الصبر والحلم والتؤدة[١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[٢]. حيث دل بكلمتين اثنتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام، من العشب والشجر والحب والثمر والعصف والحطب واللباس والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء .

٤ ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[٤]. فقد جمع عيوب الخمر من الصداع، وعدم العقل، وذهاب المال، ونفاد الشراب[٥].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[٦]. فقد جمع الله الحكمة في شطر آية[٧].

ومثل هذا النوع كثير في القرآن. وقد سماه السيوطي «بالإيجاز الجامع»[٨]. وسماه الشيخ أبو زهرة «المثل الكامل لجوامع الكلم»[٩]، وذكر أنه لا تكاد تخلو منه سورة، بل جزء من السورة، بل صفحة من صفحات القرآن النورانية. وذكر

---

(١) معترك الأقران ١/٢٩٧، ٢٩٨.
(٢) النازعات ٣١.
(٣) معترك الأقران ١/٢٩٨.
(٤) الواقعة ١٩.
(٥) معترك الأقران ١/٢٩٨.
(٦) الأعراف ٣١.
(٧) معترك الأقران ١/٢٩٩.
(٨) معترك الأقران ١/٢٩٦. وانظر أمثلة أخرى ١/٢٩٦ وما بعدها، والإتقان ٢/٥٤ ـ ٥٦، والنكت للرماني/ ٧١، ٧٢، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤٤ وما بعدها.
(٩) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤٢.

الرماني فضله، وهو علوه على غيره من سائر الكلام، وأنواع البيان، واعتبره تهذيباً للكلام بما يحسن به البيان، وتصفية للألفاظ من الكدر، وتخليصاً لها من الدرن[1].

وأما إيجاز الحذف فيكون بإسقاط جزء من الكلام للاجتزاء عنه بدلالة غيره، من الحال، أو فحوى الكلام[2]. ويشمل ذلك حذف كلمة[3]، أو جزء من جملة، أو جملة فأكثر. وأمثلة ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[4] «فناقة الله» تحذير بتقدير: «ذروا»، و«سقياها» إغراء بتقدير «الزموا». وفي الإيجاز تنبيه إلى أن الزمن يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال به يفضي إلى تفويت المهم[5].

٢ ـ قوله تعالى في وصف الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا..﴾[6]. فحذف الجواب تفخيماً وإعظاماً وإثارة للخيال وتركاً للنفوس تقدر ما شاءت دون أن تبلغ كنه ما هنالك[7].

---

(١) النكت للرماني/ ٧٣، ٧٤، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤٩.
(٢) النكت للرماني/ ٧٠.
(٣) جعل بعضهم منه كذلك حذف بعض أحرف الكلمة، وسماه الاقتطاع، ومثل له بفواتح السور على القول بأن كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه تعالى. ومنه الترخيم في قراءة بعضهم: «**ونادوا ياmal ليقض علينا ربك**» (الزخرف ٧٧) وحذف نون كان في مثل ﴿**ولم أك بغيا**﴾ (مريم ٢٠) ـ (معترك الأقران ١/٣١٩).
(٤) الشمس ١٣.
(٥) معترك الأقران ١/٣٠٥.
(٦) الزمر ٧٣.
(٧) معترك الأقران ١/٣٠٦، والنكت/ ٧٠، والمعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤٠.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾(١). فالتقدير: لرأيت أمراً فظيعاً لا تكاد تحيط به العبارة. وفيه من الحكمة ما في سابقه.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾(٢). التقدير: أرني ذاتك.. وفي حذف المفعول صيانة عن ذكره تعالى تشريفاً وتعظيماً وتفخيماً(٣).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾(٤). التقدير: والبرد. وخصص الحر بالذكر لأن الخطاب للعرب، وبلادهم حارة. والوقاية من الحر أهم عندهم. وبهذا اكتفت الآية بذكر أحد المتلازمين(٥).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾(٦). أي: والشر. وإنما خص الخير بالذكر تأدباً، أو لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم(٧).

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ.. ﴾(٨). فقد حذف من الكلام جمل كثيرة؛ إذ التقدير: فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، ففعلوا، فأتاه، فقال له: يايوسف..(٩).

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾(١٠). وفيه إشارة إلى شيوع القول فيها،

---

(١) الأنعام ٢٧.
(٢) الأعراف ١٤٣.
(٣) معترك الأقران ١/٣٠٧.
(٤) النحل ٨١.
(٥) معترك الأقران ١/٣٢٠.
(٦) آل عمران ٢٦.
(٧) معترك الأقران ١/٣٢٠.
(٨) يوسف ٤٥، ٤٦.
(٩) معترك الأقران ١/٣٣٢.
(١٠) يوسف ٨٢.

وأن القرية كلها قد تكلمت حتى الجهاد فيها[١].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٢]. وفيه تزكية للمتقين بجعلهم البر ذاته، وأن نفوسهم علت، وقلوبهم زكت، حتى صارت هي هو[٣].

١٠ ـ ومنه نوع سمي بالاحتباك، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، كقوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾[٤] فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت[٥].

أما الإطناب فقد عرفه البلاغيون بأنه التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ كثيرة دون وجود حشو أو فضول فيها[٦]. وفرقوا بين الإطناب والتطويل الذي يعد عيباً للجوئه إلى الكثير فيما يكفي فيه القليل. فكان مستخدمه كالسالك طريقاً بعيداً، جهلاً منه بالطريق القريب. أما الإطناب فليس كذلك، لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة. فيحصل في الطريق إلى غرضه من الفائدة مثل ما يحصل له بالغرض المطلوب[٧].

---

(١) المعجزة الكبرى لأبو زهرة / ٣٤١.
(٢) البقرة ١٨٩.
(٣) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٤١.
(٤) آل عمران ١٣.
(٥) معترك الأقران ١/٣٢٠. وانظر أمثلة أخرى ١/٣٠٥ ـ ٣٣٣، ومن بلاغة القرآن/ ١٢٠ ـ ١٢٧.
(٦) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٢٨.
(٧) النكت للرماني/ ٧٣.

وإطناب القرآن كله من قبيل زيادة المعاني التي تبعتها زيادة في الألفاظ إذ إن زيادة اللفظ لا تعد من البلاغة المستحسنة ما لم تكن للتعبير عن زيادة معنى.

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1]. ففي قوله: «يؤمنون به» إطناب؛ لأن إيمان حملة العرش معلوم. وحسّنه إظهار شرف الإيمان ترغيباً فيه[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]. فليس بين المشركين مُزَكٍّ. ونكتته حث المؤمنين على أدائها، وتحذيرهم من منعها حيث جعله الله من أوصاف المشركين[4].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ . قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[5]. ففي الآية إطناب حلو تترطب به الألسنة والأسماع، إذ فيها تصريح بما يفهم ضمناً، وبما يعلمه الله من غير بيان، بقصد التعبير عن محبة موسى لربه، ورغبته في إطالة المحادثة معه[6].

٤ ـ ومن الإطناب نوع يسمى بالتفسير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ

---

(١) غافر ٧.

(٢) الإتقان ٢/٦٤، ومعترك الأقران ١/٣٣٣.

(٣) فصلت ٦، ٧.

(٤) الإتقان ٢/٦٤، ومعترك الأقران ١/٣٣٤.

(٥) طه ١٧ ـ ١٨.

(٦) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٢٩، ومن بلاغة القرآن/ ١١٨.

هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[1]. فقوله: «إذا مسه..» إطناب قصد به تفسير الهلوع. ومثله قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾[2]. فيذبحون وما بعده تفسير للسوم[3].

٥ ـ ويدخل في الإطناب كذلك ما يسمى بالاستقصاء، وهو استيفاء جميع أجزاء الشيء وعوارضه ولوازمه بعد استقصاء جميع أوصافه الذاتية، كقوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ، لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ، وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ، وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ، فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾[4]. فقد أتبع الجنة بالنخيل والأعناب حتى يكون مصاب صاحبها بها أعظم. وزاد جري الأنهار، ووجود كل الثمرات ليشتد الأسف على إفسادها. ثم وصف صاحبها بالكبر، وذريته بالضعف. وأتبعه باستئصال الجنة التي ليس لصاحبها غيرها بالهلاك في أسرع وقت. ونص على احتراق الجنة لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفي باحتراقها.. فهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله[5].

وقد أنكر بعضهم وجود الإطناب في القرآن الكريم، إما ضمناً كما فعل الرماني حينما اعتبر الإيجاز أول أقسام البلاغة[6] (وتجاهل الإطناب)، وتبعه في هذا الباقلاني[7]. وإما صراحة، على اعتبار أن ألفاظ القرآن

(١) المعارج ١٩ ـ ٢١.
(٢) البقرة ٤٩.
(٣) معترك الأقران ١/٣٦١.
(٤) البقرة ٢٦٦.
(٥) معترك الأقران ١/٣٧٠.
(٦) النكت/ ٧١.
(٧) إعجاز القرآن/ ٣٣٢.

جاءت على قدر معانيها دون زيادة، ودون إمكانية الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضها الآخر. وعلى هذا فإن كل ما في القرآن يعد من باب الإيجاز.

وأشهر من دافع عن هذا الرأي الدكتور محمد عبدالله دراز، ويتلخص رأيه في النقاط التالية:

١ ـ القرآن يستثمر دائما أقل ما يمكن من اللفظ لأكثر ما يمكن من المعاني. يستوي في ذلك مواضع إجماله التي يسميها الناس الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها الإطناب. ولذلك يجب أن يسمى المقامان إيجازاً؛ لأنه لا يجاوز في أيهما القصد، ولا يميل إلى الإسراف، ولا يمكن تأدية مراميه في أي منهما بأقل من ألفاظه، ولا بما يساويها.

٢ ـ ما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن. فالذي يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفاً مخلاً. والذي يبطىء حيث تمكن السرعة لا يكون إلا مسرفاً مملاً. فهي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام.

٣ ـ الكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضع، ولا يسهل أداء الغرض بأقل منه كان هو عين الإيجاز. وإن أمكن أداء الغرض كاملاً بحذف شيء منه، أو بإبداله بعبارة أخصر منه كان حشواً أو تطويلاً معيباً. فليس الإيجاز إذن مقصوراً على جانب الإجمال.

٤ ـ فضيلة الإيجاز أو الإطناب في الحقيقة ترد إلى الوسط المعتدل دون إفراط أو تفريط[1].

---

(١) النبأ العظيم/ ١٢٧ وما بعدها.

لكن الحقيقة أن في القرآن من كلا النوعين في الموقف الملائم له. ويحسن الإطناب عادة في المواقف التي تقتضي التفصيل لا الإيجاز، والوضوح لا الإبهام، والعبارة لا الإشارة. ويكثر هذا في القرآن في آيات الأحكام خاصة، لأنها تتعرض لما يكلف الله به عباده. ولابد أن يكون ذلك واضحاً للمكلف كل الوضوح. كذلك يكثر في القصص القرآني لما فيه من العبرة والتسلية للنبي ﷺ ببيان ما نزل بغيره من الأنبياء.. وما لاقوا من أقوامهم. كذلك يكثر الإطناب في آيات توجيه النظر إلى الكون، وما فيه من خلق السموات والأرض وما بينهما.. لأن فيه إظهاراً لعظمة الخالق، ولفت النظر إلى دلالة الأثر على المؤثر، والموجود على من أوجده، والحاضر على الغائب(1).

٧ ـ المحسنات البديعية:

ورد منها في القرآن الكريم أنواع جمة، نجتزىء منها بما يأتي:

١ ـ التورية (أو الإيهام). وهي أن يذكر لفظ له معنيان: أحدهما قريب والآخر بعيد، ويقصد البعيد.
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(2). فالنجم يطلق على الكوكب وهو المعنى القريب، كما يطلق على ما لا ساق له من النبات، وهو المعنى البعيد المقصود(3).

٢ ـ الالتفات. وهو نقل الكلام من أسلوب (تكلم ـ خطاب ـ غيبة) إلى

---

(١) المعجزة الكبرى لأبو زهرة/ ٣٣٢ ـ ٣٣٦.
(٢) الرحمن ٦.
(٣) معترك الأقران ١/٣٧٤، ٣٧٥.

آخر. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، بدلاً من: وإليه أرجع. وفائدته أنه أخرج الكلام في موضع مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريد لنفسه، ثم التفت[2].

ومن محاسنه ما وقع في سورة الفاتحة. فإن العبد إذا ذكر الله تعالى وحده، ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال، وآخرها: ﴿مالك يوم الدين﴾ المفيد أنه مالك للأمر كله في يوم الجزاء - يجد من نفسه اتجاهاً لا يقدر على دفعه نحو خطاب من هذه صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع، والاستعانة في المهمات[3].

ويقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع إلى الخطاب الآخر. كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[4]، وقوله ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[5].

ويقرب منه كذلك الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر، مثل: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[6]. و﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾[7]، و﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[8].

---

(١) يس ٢٢.

(٢) معترك الأقران ١/٣٧٨.

(٣) السابق والصفحة.

(٤) الطلاق ١.

(٥) طه ١١٧. وانظر معترك الأقران ١/٣٨٤.

(٦) فاطر ٩.

(٧) الحج ٣١. وفائدة هذا النوع حكاية الحال الماضية.

(٨) الكهف ٤٧. ويستخدم هذا النوع عادة فيما تحقق وقوعه. (وانظر معترك الأقران ١/٣٨٤، ٣٨٥).

٣ ـ الانسجام. وهو تحدر الكلام وسهولته، وعذوبته كأنه يسيل رقة. وإذا قوي الانسجام جاءت الفقرات موزونة بلا قصد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) (بحر الطويل). وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾(٢) (بحر البسيط). وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(٣) (بحر الخفيف).

٤ ـ الاقتدار. وهو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض.. قال ابن أبي الإصبع: وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن. فإنك ترى القصة الواحدة التي لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه(٤).

٥ ـ الائتلاف. وهو نوعان:

أ ـ ائتلاف اللفظ مع اللفظ، بأن يقرن الغريب بمثله، والمتداول بمثله وقد سبق أن مثلنا له بقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾(٥).

ب ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾(٦). لما كان الركون إلى الظالم، وهو الميل إليه، والاعتماد عليه دون مشاركته في الظلم ـ وجب أن يكون

(١) الكهف ٢٩.
(٢) الأحقاف ٢٥.
(٣) النساء ٧٨. وانظر معترك الأقران ١/٣٨٦، ٣٨٧.
(٤) معترك الأقران ١/٣٨٨، وانظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع/ ٢٨٩.
(٥) انظر فصل «خصائص التركيب وتأليف الجمل» ص١٦٩.
(٦) هود ١١٣.

العقاب عليه دون العقاب على الظالم - فأتى القرآن بلفظ المس الذي هو دون الإحراق[1]. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[2] فإنه أبلغ من «كُبّوا» للإشارة إلى أنهم يكبون كبا عنيفاً فظيعاً[3].

٦ - تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[4]. فإن الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان - يوهم أن ما يأتي بعده مما يوجب أن ينقم على فاعله، مما يُذم به. فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً تأكيد المدح بما يشبه الذم[5].

٧ - التقسيم. وهو استيفاء الأقسام الموجودة مثل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[6]. إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار. ومثل: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[7].

٨ - الجناس، وهو تشابه اللفظين في اللفظ، وهو أنواع منها:

أ - الجناس التام، بأن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئتها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا

(١) معترك الأقران ١/٢٨٩.
(٢) الشعراء ٩٤.
(٣) معترك الأقران ١/٣٩٠.
(٤) المائدة ٥٩.
(٥) معترك الأقران ١/٣٩٣.
(٦) الرعد ١٢.
(٧) فاطر ٣٢. وانظر معترك الأقران ١/٣٩٤، ٣٩٥.

لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1]، وقوله: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2].

ب ـ جناس الخط، بأن تختلف الحروف في النقط، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[3].

جـ ـ الجناس الناقص، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[4].

د ـ الجناس المضارع، وهو أن يختلف اللفظان بحرف مقارب في المخرج، مثل: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾[5].

هـ ـ جناس القلب، وهو أن يختلف اللفظان في ترتيب الحروف، كقوله تعالى: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[6].

و ـ جناس الاشتقاق، بأن يجتمع اللفظان في أصل الاشتقاق، مثل: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾[7]، و﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[8].

٩ ـ العكس وهو أن يؤتي بكلام يقدم فيه جزء ويؤخر جزء، ثم يقدم المؤخر، ويؤخر المقدم. كقوله تعالى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾[9]. وقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[10].

---

(١) الروم ٥٥.
(٢) النور ٤٣، ٤٤. وانظ معترك الأقران ١/٣٩٩، ومن بلاغة القرآن/ ١٨١.
(٣) الشعراء ٧٩، ٨٠.
(٤) القيامة ٢٩، ٣٠.
(٥) الأنعام ٢٦.
(٦) طـه ٩٤.
(٧) الأنعام ٧٩.
(٨) الواقعة ٨٩. وانظر معترك الأقران ١/٣٩٩ وما بعدها، ومن بلاغة القرآن/١٨٢.
(٩) الأنعام ٥٢.
(١٠) الحج ٦١. وانظر معترك الأقران ١/٤٠٦، وبديع القرآن/ ١١١، ومن بلاغة القرآن/ ١٨٦.

١٠ ــ الفرائد، وهي الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، وتكون بفرادتها دالة على عظم فصاحة هذا الكلام، وقوة عارضته، وجزالة منطقه، بحيث لو أسقطت من الكلام عز على الفصحاء الاستعاضة عنها بغيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾(١) وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾(٣).

١١ ــ اللف والنشر. وهو أن يذكر الشيء إجمالاً أو تفصيلاً، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾(٤). أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٥). فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(٦). فاللوم راجع إلى البخل، والحسرة إلى الإسراف.

١٢ ــ المشاكلة. وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(٧). لأن الجزاء حق لا يوصف

(١) يوسف ٥١.
(٢) سبأ ٢٣.
(٣) غافر ١٩.
(٤) البقرة ١١١.
(٥) القصص ٧٣.
(٦) الإسراء ٢٩. وانظر معترك الأقران ١/٤٠٨ وما بعدها، ومن بلاغة القرآن/ ١٨٤.
(٧) الشورى ٤٠.

بأنه سيئة. وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]. فأخذ الحق لا يسمى اعتداء. هذا بالإضافة إلى ما يحمله التعبير بهذه الصورة من إيماء بأن مقابلة الشر بالشر، أو الاعتداء بالاعتداء، وإن كان أمراً مباحاً فتركه أولى، إذ العفو أفضل، والصفح أولى[2].

١٣ ـ المطابقة، أو الطباق. وهي الجمع بين المتضادين في الجملة. مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ، وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[4].

١٤ ـ الإبداع. وهو أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع. قال ابن أبي الإصبع[5]: ولم أر في الكلام مثل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[6]، فإن فيها نحو عشرين ضربا، وهي سبع عشرة لفظة وتفصيلها:

* المناسبة التامة في: «ابلعي»، و«أقلعي».
* الاستعارة فيهما.
* الطباق بين الأرض والسماء.
* المجاز في «ياسماء».

---

(١) البقرة ١٩٤. وانظر معترك الأقران ١/٤١١، ومن بلاغة القرآن/ ١٨٣.
(٢) من بلاغة القرآن/ ١٨٣، ١٨٤.
(٣) التوبة ٨٢.
(٤) النجم ٤٣، ٤٤. وانظر معترك الأقران ١/٤١٤، ومن بلاغة القرآن / ١٨٥. وقريب منها المقابلة (انظرها في معترك الأقران ١/٤١٦).
(٥) بديع القرآن/ ٣٤٠.
(٦) هود ٤٤.

* الإشارة في «وغيض الماء». فإنه عبر به عن معان كثيرة. فإن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء، فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.
* الإرداف في: «واستوت».
* التمثيل في: «وقضي الأمر».
* التعليل في: «وغيض الماء». فإن غيض الماء هو علة الاستواء.
* صحة التقسيم، حيث استوعب أقسام الماء حالة نقصه.
* الاحتراس في الدعاء. لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك.
* حسن النسق: وهو مجيء الكلمات متواليات معطوفات متلاحمات تلاحماً سليما مستحسناً.
* ائتلاف اللفظ مع المعنى.
* الإيجاز، لأن الله قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة.
* التسهيم، لأن أول الآية يدل على آخرها.
* التهذيب، لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن. كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة.
* حسن البيان، من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه.
* التمكن، لأن الفاصلة مستقرة في محلها، مطمئنة في مكانها.
* الانسجام(١).

---

(١) بديع القرآن/ ٣٤٠، ومعترك الأقران ١/٤١٩، ٤٢٠، وإعجاز القرآن البياني لحفني/ ٣٦٦. وانظر ما سبق ص ١٧٠، ١٧١.

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ ط ثالثة ـ الحلبي ١٩٥١.

٢ ــ أثر الدخيل على العربية الفصحي ـ مسعود بوبو ـ دمشق ١٩٨٢.

٣ ــ أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ـ محمد عبدالواحد حجازي ـ مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١.

٤ ــ أساس البلاغة ـ جارالله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.

٥ ــ الإعجاز البياني للقرآن ـ د. بنت الشاطيء ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٦ ــ أ ــ إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد صقر ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٣[1].

ب ــ إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق محمد شريف سكر ـ بيروت ـ أولى ١٩٨٨.

٧ ــ إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ـ د. حفني شرف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٠.

٨ ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعي ـ دار الكتاب العربي ببيروت ـ ١٩٧٣.

٩ ــ الاقتراح في علم أصول النحو ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق د. أحمد محمد قاسم ـ القاهرة ـ أولى ١٩٧٦.

١٠ ــ الأمثال في القرآن الكريم ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ـ دار المعرفة بلبنان ١٩٨٣.

(١) مقدمة المحقق فقط.

١١ ــ البحث اللغوي عند العرب ـ د. أحمد مختار عمر ـ عالم الكتب القاهرة ـ ط سادسة ١٩٨٨.
١٢ ــ البحر المحيط ـ أثير الدين أبو حيان الأندلسي ـ السعادة ـ الأولى.
١٣ ــ بديع القرآن ـ ابن أبي الإصبع المصري ـ تحقيق حفني شرف ـ نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٧.
١٤ ــ البرهان في علوم القرآن ـ بدرالدين محمد عبدالله الزركشي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الحلبي ثانية.
١٥ ــ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني ـ تحقيق خديجة الحديثي، وأحمد مطلوب ـ بغداد ـ أولى ١٩٧٤.
١٦ ــ بيان إعجاز القرآن ـ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي ـ ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
١٧ ــ تاريخ القرآن ـ د. عبدالصبور شاهين ـ دار القلم ١٩٦٦.
١٨ ــ تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه ـ محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي ـ الحلبي ثانية ١٩٥٣.
١٩ ــ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ـ أثير الدين أبو حيان الأندلسي ـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ـ بغداد ـ أولى ١٩٧٧.
٢٠ ــ تدوين القرآن الكريم ـ د. محمد قبيسي ـ الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ أولى ١٩٨١.
٢١ ــ التصوير الفني في القرآن ـ سيدقطب (د.ت).
٢٢ ــ التعبير الفني في القرآن ـ د. بكري شيخ أمين ـ دار الشروق. رابعة ١٩٨٠.

٢٣ ـ تفسير الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر ـ المعارف بمصر.
٢٤ ـ تفسير غريب القرآن ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة ـ تحقيق السيد صقر ـ الحلبي ١٩٥٨.
٢٥ ـ تفسير الكشاف ـ جارالله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
٢٦ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ـ حمزة بن حسن الأصفهاني ـ تحقيق محمد حسن آل ياسين ـ بغداد ١٩٦٧.
٢٧ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ـ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر (د.ت).
٢٨ ـ الجاسوس على القاموس ـ أحمد فارس الشدياق ـ القسطنطينية ـ الجوائب ١٢٩٩هـ.
٢٩ ـ الجمان في تشبيهات القرآن ـ ابن ناقيا البغدادي ـ تحقيق عدنان زرزور ومحمد الداية ـ الكويت ـ الأولى ١٩٦٨.
٣٠ ـ حجة القراءات ـ أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة ـ تحقيق سعيد الأفغاني.
٣١ ـ خزانة الأدب للبغدادي.
٣٢ ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جنى ـ دار الكتب المصرية ـ ط أولى.
٣٣ ـ الخط العربي الإسلامي ـ تركي عطية عبود الجبوري ـ بغداد ١٩٧٥.
٣٤ ـ الخط العربي: نشأته وتطوره ـ د. إميل يعقوب ـ بيروت ١٩٨٦.
٣٥ ـ الخط العربي وتطوره ـ د. سهيلة الجبوري ـ العراق ١٩٦٢.
٣٦ ـ دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن ـ د. المحمدي عبدالعزيز الحناوي ـ القاهرة أولى ١٩٨٤.
٣٧ ـ دراسات قرآنية: تاريخ القرآن وعلومه ـ د. عدنان زرزور ـ دمشق ـ أولى ١٩٧٥.

٣٨ ــ دراسات لأسلوب القرآن الكريم ـ محمد عبدالخالق عضيمة ـ السعادة بالقاهرة (د.ت).
٣٩ ــ دلائل الإعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني ـ دمشق ثانية ١٩٨٧.
٤٠ ــ سر الليال في القلب والإبدال ـ أحمد فارس الشدياق ـ الآستانة ١٢٨٤هـ.
٤١ ــ الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ ترجمة د.عبدالصبور شاهين ـ بيروت ـ ثالثة ١٩٦٨.
٤٢ ــ علم الدلالة ـ د.أحمد مختار عمر ـ دار العروبة بالكويت ـ أولى ١٩٨٢.
٤٣ ــ غاية النهاية في طبقات القراء ـ شمس الدين محمد بن الجزري ـ تحقيق برجشتراسر ـ الخانجى ١٩٣٢.
٤٤ ــ غيث النفع ـ علي النوري الصفاقسي ـ بهامش سراج القارىء المبتدي ـ الحلبي (د.ت).
٤٥ ــ الفاصلة في القرآن ـ محمد الحسناوي ـ بيروت الثانية ١٩٨٦.
٤٦ ــ الفروق في اللغة ـ أبو هلال العسكري ـ بيروت أولى ١٩٧٣.
٤٧ ــ فكرة إعجاز القرآن ـ نعيم الحمصي ـ الرسالة ـ ثانية ١٩٨٠.
٤٨ ــ في اللهجات العربية ـ د.إبراهيم أنيس ـ الأنجلو ـ ثالثة ١٩٦٥.
٤٩ ــ القرآن: إعجازه وبلاغته ـ د.عبدالقادر حسين ـ الأمانة بالقاهرة ١٩٧٥.
٥٠ ــ قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ـ د.فضل حسن عباس ـ دار البشير ـ عمان ـ أولى ١٩٨٨.
٥١ ــ كتاب سيبويه ـ تحقيق عبدالسلام هارون.
٥٢ ــ كتاب المصاحف ـ أبو بكر عبدالله بن أبي داوود السجستاني ـ تحقيق آرثر جفري ـ القاهرة أولى ١٩٣٦.

٥٣ ـ لسان العرب ـ ابن منظور المصري.
٥٤ ـ لطائف الإشارات لفنون القراءات ـ شهاب الدين القسطلاني ـ تحقيق عامر السيد عثمان وعبدالصبور شاهين ـ القاهرة ١٩٧٢.
٥٥ ـ لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم ـ أبو عبيد القاسم بن سلام ـ تحقيق عبدالحميد السيد طلب ـ الكويت ١٩٨٥.
٥٦ ـ اللفظ المعرّب في القرآن الكريم ـ يونس موسى شتات ـ رسالة ماجستير بمعهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة.
٥٧ ـ مباحث في علوم القرآن ـ د. صبحي الصالح ـ دمشق ١٩٥٨.
٥٨ ـ مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ الرسالة ـ الطبعة التاسعة عشرة ١٩٨٦.
٥٩ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ تحقيق فؤاد سزكين ـ الخانجي ـ أولى ١٩٥٤.
٦٠ ـ المحكم في نقاط المصاحف ـ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ـ تحقيق عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٠.
٦١ ـ مختصر البديع في شواذ القراءات ـ أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه ـ تحقيق برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٣٤.
٦٢ ـ مداخل المؤلفين والأعلام العرب ـ ناصر محمد السويدان ومحسن السيد العريني ـ الرياض ١٩٨٠.
٦٣ ـ المصحف الشريف ـ المصحف الأميري المصري.
٦٤ ـ المصحف الشريف ـ د. محمد عبدالعزيز مرزوق ـ المجلد العشرون من مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٠.
٦٥ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة ١٩٦٩.

٦٦ ـ المعجزة الكبرى: القرآن ـ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي بالقاهرة (د. ت).
٦٧ ـ معجم القراءات القرآنية ـ د. أحمد مختار عمر ود. عبدالعال سالم ـ ط ثانية الكويت ١٩٨٨.
٦٨ ـ معجم مصنفات القرآن الكريم ـ د. علي شواخ إسحق ـ الرياض أولى ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.
٦٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبدالباقي.
٧٠ ـ المفردات في غريب القرآن ـ الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ـ تحقيق محمد سيد الكيلاني ـ الحلبي ١٩٦١.
٧١ ـ مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون.
٧٢ ـ ملحق في ذكر مذاهب متقدمي النقط من النحاة ـ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ـ مع «المحكم» له.
٧٣ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ـ محمد عبدالعظيم الزرقاني ـ الحلبي ـ ثالثة.
٧٤ ـ من أساليب البيان في القرآن الكريم ـ محمد علي أبو حمدة ـ عمان ـ أولى ١٩٧٨.
٧٥ ـ من أسرار التعبير في القرآن ـ د. عبدالفتاح لاشين ـ مكتبة عكاظ ـ السعودية ـ أولى ١٩٨٣.
٧٦ ـ من بلاغة القرآن ـ د. أحمد أحمد بدوي ـ نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٠.
٧٧ ـ منتخبات الجوائب ـ أحمد فارس الشدياق ـ الآستانة ١٢٨٨هـ.
٧٨ ـ النبأ العظيم ـ د. محمد عبدالله دراز ـ دار القلم بالكويت ـ رابعة ١٩٧٧.
٧٩ ـ نشأة النحو ـ محمد الطنطاوي ـ طبعة ثانية ١٩٦٩.

٨٠ ـ النشر في القراءات العشر ـ شمس الدين محمد بن الجزري ـ التجارية ـ أولى.
٨١ ـ نظرية الحروف العاملة ـ د. هادي عطية مطر الهلالي ـ عالم الكتب ـ بيروت أولى ١٩٦٨.
٨٢ ـ النكت في إعجاز القرآن ـ علي بن عيسى الرماني ـ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

كتب أخرى للمؤلف

* تاريخ اللغة العربية في مصر ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠ .
* النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ـ منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١ .
* البحث اللغوي عند العرب ـ عالم الكتب بالقاهـرة ١٩٧١ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
* البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب ـ دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢ .
* أسس علم اللغـة ـ تـرجمـة عن الإنجليـزيـة ـ طبعتـان ١٩٧٣ ، ١٩٨٣ ـ عـالم الكتب بالقاهرة .
* من قضايا اللغة والنحو ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ .
* ديوان الأدب للفارابي ـ تحقيق ودراسة ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهـرة ـ خمسة أجزاء ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩ .
* المنجد في اللغة لكراع ـ تحقيق بالاشتراك ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ ، ١٩٨٨ .
* دراسة الصوت اللغوي ١٩٧٦ ، ١٩٨٦ ، ١٩٩١ ـ عالم الكتب بالقاهرة .
* العربية الصحيحة ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨١ .
* اللغة واللون ـ دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢ .
* علم الدلالة ـ دار العروبة بالكويت ١٩٨٢ ، وعالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٨ .
* معجم القراءات القرآنية ـ ثمانيـة أجزاء ـ تـأليف بالاشـتراك ـ جامعـة الكويت ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
* النحو الأساسي ـ تأليف بالاشتراك ـ ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ ، ودار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٨ .
* المعجم العربي الأساسي ـ تأليف بالاشتراك ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ لاروس ١٩٨٩ .
* أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩١ .
* تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى ـ عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩٢ .

الفهـرس